الزلزلة

خيري حدّاد أبو عافية

الزلزلة / رواية
خيري حدّاد أبو عافية
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٩

OKTOB.NET

دار اكتب للنشر والتوزيع
القاهرة ، ١ش المعهد الديني ، المرج
هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧
موبايل : ٠١٢٩٢٥١٥٩٢ - ٠١٨٢٣٦٣٠٣٥
E – mail : dar_oktob@gawab.com
المدير العام :
يحيى هاشم
تصميم الغلاف :
إبراهيم متولي
تدقيق لغوي :
محمد أبو عوف
رقم الإيداع : ٢٠٠٩/١٩٨٨٧
I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٦٢٩٧- ٠٦٤- ٠

الزلزلة

رواية

خيري حدّاد أبوعافية

الطبعة الأولى

٢٠٠٩



دار اكتب للنشر والتوزيع



إهداء

إلى الراحلة أمي ..

بعدها رحلت كل المعاني الجميلة

إلى حفيدتي كرمه



١

كان الطريق أجردًا بلا شجرة صغيرة، والسماء عارية ليس فيها نجمة والأرض شقفاء تضربُ عجلات المركبة القديمة الهالكة بقوة وأركان العربة تضربني، و لم يكن شيء يخيفني أكثر من الرمل والصخر الكثيف على جانبي الطريق، وكان سواده في تلك الليلة يخنقني ويقبض على أنفاسي وتصوّرت أنّ شبحاً سينقضُّ عليّ من بين هذه الصخور والتلال، و لم يكن في الأفق أمامي أية رحابة، وشعرت بأنني في مستنقع أمامي وخلفي وليل مقبض لا ينتهي.. وشعرت برعشة وبأنّ خلاءً بدأ أمامي، وبعد ساعة كاملة من السير المطبق في سواده كان ضياءً باهتاً يبزغ من بعيد ويزداد حمرة في ثلاث نقاط على يميني وكأن بؤرا من النيران تتعلق بأفق السماء الشاهق، وظهر سياج من الحجارة الضخمة تبرز على جانبي الطريق - سياج مرصوصة بيد البدو.. منكوشة .. مكسورة.. متقطعة.. كأن أناساً أقاموها ليختفوا خلفها ويرقبوا الطريق، وكانت قصعات النار المحفورة في الأرض قد خمدت نيرانها من ليلة ماضية أشعلها البدو لّما اشتد البرد عليهم كصقيع يلسع أجسادهم، وكان البدو يرتحلون من بقعة لأخرى، وهم يقاومون رحالاً هبطوا عليهم فجأة ليترعوا منهم أرضهم وبيوتهم، قوم ليسوا منهم، إنهم مجموعات من

الخونة من قرى كثيرة، وبلاد من الجنوب والشمال تدربوا على النهب والسمسرة وتجريد الناس من أملاكهم وبيعها ثم التنكيل بهم، وكانت السياج التي أقاموها لا تستطيع حمايتهم من [illegible] وبطش الجبارين، وكان الطريق إلى مدينة صناعية يمتد بقضبانه الحديدية وسط بيوت وأملاك البدو، ولكنهم قطعوه، ولم يعـــد القطار الذي يحمل العمال والفنيين قادر علـــى أن يـــستمر في رحلاته اليومية لبتر القضبان ناهيك عن أن هؤلاء القوم قـــاموا بقفل المصانع والمعامل والمتاجر في تلك المدينة، فانقطعت الحياة حتى وصل أهل هذه الناحية من بـــدو وحـــضر إلى أنهـــم لا يستطيعون الحصول على رغيف الخبز.. ولم يعد هنا أحد يبكي على أحد ولكن كل واحد يبكي على نفسه، وأصـــبح النـــاس جميعا حيارى أين يذهبون أو يرحلون.. فانتـــشرت جماعـــات النهب بين الناس أنفسهم.. هؤلاء لصوص وهـــؤلاء نـــصابين وآخرين تجار خدم وغيرهم قوادين والشرفاء افترشـــوا الأرض ليبيعوا الخبز والخضار والنابت والترمس وامتلأت الشوارع بكل ما هو رخيص ونزلت البنات والنساء من تلك الأحياء الفقـــيرة إلى كل شارع وميدان وسوق يعرضن أنفسهن حتى يعـــدن إلى بيوتهن بالطعام.. والحال بعد النهب والسلب وانتهاك الحرمات والتنكيل أن كل هذه الناحية أصبحت بلا إيراد.. ناس بلا إيراد ماذا يفعلون، وأصبحت الروبابيكيا تجارة منتـــشرة وانتـــشرت

العربات الصغيرة التي تجرها الحمير حتى أنها دخلت المدن الكبيرة، والمدهش أن من شباب قد تعلّم كثيرًا وتثقف وجد في عربة الروبابيكيا البسيطة.. خير وسيلة العيش وهي العمل الوحيد المتوفر لدى الجميع، وأصبح الناس في وقت واحد يستيقظون مبكرًا ليلحق كل منهم بكل ما ألقي في المدينة أثناء الليل.. قالب طوب.. عدد حديد.. زجاجة.. صفيحة.. مسمار..وعادت أشهر بقعة في تلك المعمورة للروبابيكيا، هي تلك المدينة التي أطلقوا عليها اسم الزلنطحية.. من كثرة انتشار الأعمال المنحطة بها، الناس طول النهار في الشارع بيقولوا كل واحد بيلقّط رزقه.. هيَّ الناس كلها بقت صايعة ولا إيه.. هيّ الناس دي كلها ولدتهم أمهاتهم ليكونوا أوباشا.. هيّ الدنيا حوّلت الناس الكرام في سنوات قليلة جدا إلى هذه الدرجة من التشرد والانحدار.. هيّ إيه الحكاية بالضبط.. ولكن أهل صنعة الروبابيكيا ومن ضمنها أصحاب الأعمال الهالكة كالموظفين والعمال والشباب في العقد الثالث من العمر، وكثيرين دخلوا نقابة الروبابيكيا واعتبروا أنفسهم هم الأولى بصفة روبابكيا لأنهم يعملون حتى ساعة متأخرة من النهار والليل وفي النهاية لا يستطيعون تحصيل قوت عيالهم الضروري.. والمجتمع الجديد يتكون الآن وهو في لحظات ولادته النهائية وسوف يكون مكونًا من طبقات عصامية اعتمدت على نفسها وكونت نفسها

كما يقول الناس.. المجتمع الذي تولدَّ فعلا من أم مريضة عجوز تمالكت وترتدي ثيابا متهرئة ولدت ثلاث أبناءهم.. الزبّـال، الروبابيكي، والعامل وهذا الصنف الأخير هـو ولـد شـامل يتكون من الشباب الذي يعمل طيلة النهار كالعبد ويحصل على ملاليم لا تكفيه الطعام الضروري، وكـذلك كافـة الرجـال والنساء الذين يعملون في الدواوين وفي محـلات وشـركات القطاع الخاص والخدم والسمسرة والقوادين وأصحاب الأعمال الذين يقيمون شركاتهم في الشوارع.. وهم كل الذين يبيعـون أي شيء ويتخذون من الشارع مقرا لهم..

* * * * *

.. لن يلد الزبال إلا زبالا.. ويرث العيـال عـن أبـيهم الروبابيكيا وكذلك قطيع العبيد وهو الابـن الثالـث لـلأم الموجوعة لن يجد أبنائهم أو بناتهم شيئا إلا الـشوارع مـلاذا لهم.. وفي وسط بيوت الفقراء كانت ماسورة المجارى مخرومـة بشكل دائم، فتراكمت مياه قذرة وانتشرت ناضـحة في كـل جانب، وعند باب كل بيت من الحي، وبعضها اخترق البيوت الهزيلة التي لاتستوي أرضيتها مع أرضية الـشارع المنحـدرة، وكان أهل الحتة ينسحقون من التعب طيلة النـهار وينـامون بعيون منهكة متورمة ورمًا هزيلا من ندرة الدم في عـروقهم.. ينامون كالكلاب لاهثة من شدة الجوع وشوق العطش، وبلـغ تقتير الفقر على الغلابة أن جدران بيوتهم رقيقة هشة تخترقهـا

آهات الصدور الجائعة تجأر بنار الجسد مهما كـــان هـــزيلا..
لاشيء من الأسرار الخاصة محفوظا حتى أن الأطفال في الحـــي
أكبر شيء يصل إلى أسماعهم وتراه أعينهم من ثقوب الحيطان..
تلك اللقاءات بين الرجال والنساء أو بين الشباب والفتيـــات،
وكانت لقاءات جميعها غير مشروعة إلا قليلا منها بـــين زوج
وزوجته.. زوج يعمل بالنهار وكان عامل يسكن معهما يعمل
بالليل ويساعد الزوجة في أعمالها بالنهار، يجّفف لها الخـــشب
الذي تقدح به النار في الفرن ويحمل معها الماعون الكبير ليضعاه
فوق الكانون وبعد أن تصدح نار الموقد ويغلى مـــاء الحلـــلّة
كانت ناره تصدح، فيضاجع الزوجة قرب الموقـــد.. وكـــان
يحدث ذلك كل يوم.. وبعد أن ينتهي ينام في غرفته، فلما يأتي
الزوج في أول الليل يكون جاره قد انصرف إلى عمله، ولما كان
الزوج يصل إلى بيته مهدودا من صعوبة عمله اليـــومي كـــان
يأكل وينام.. وكانت الزوجة تربت على ظهره وهـــي تـــردد
بصوت يسمعه.. نام يا حبيبي نام.. فيقول لها قبل أن يـــذهب
في شخيره.. روحي يطول عمرك..

.. ورجل آخر رغم عمله الطويل فإنه لم يكن قادرا علـــى
أن يأتي بالضروري لعياله فرافقت زوجته رجلا ينقدها بعـــض
المال لتحصل على الضروري، كان الرفيق يدخل البيت أمـــام
الجيران على أنه قريب لها.. ولم تكن تستطيع امرأة من جاراتهم
اتهامها بشيء، لأن كل واحدة منهن لها قصة.. سواء في داخل
بيتها أو في خارجه.. وكان أقوي شـــيء في مدينـــة تحـــضنها

العشوائيات من كل جانب.. أن تلك العاصمة تزدهــر بكــل أنواع الأعمال المنحرفة من سرقة ونصب واحتيال.. وكل مــا هو رخيص من دعارة وإدارة لها بواسطة نساء ورجــال.. ولم تكن هناك فتاة أو امرأة مهما كان عمرها أو أيًا كانت درجــة حلاوتها وتعمل خادمة أو طباخة إلا ولها علاقة جنــسية مــع أصحاب البيت.. ولم يكن للواحدة منهن بيتا واحدا.. وكانت كل النساء من هذه الأحياء الغجرية التي تحــيط بالمدينــة.. لم تكن أي واحدة منهن ترتوي من زوجها أو تسعد بلقائه لأنهــم جميعا رجال غلابة مهدودي الحيل والعافية من قسوة أعمــالهم وطول وقتها.. ولم يكن هناك رجل واحد يسأل أين تــذهب زوجته.. أو إلى أي بيت تذهب.. وما الذي تقوم به في تلــك البيوت.. لأن النخوة والرجولة التي كانت ربما في زمان مــضى لم تعد الآن لزحمة الحياة وكثرة مطالبها وأن تلــك الأعمــال تداريها الحيطان..

ومن لديه نخوة من الرجال فيقعد زوجته في البيت ويمــوت من الجوع هو وعياله.. ولم يكن لأحد خيار.. فهذه هي الحياة فرضت حاجتها في نفوس البشر، لكن المشكلة أيضا التي تواجه هؤلاء الناس أن بناقم لم يكن يستطعن إكمــال تعلــيمهن في وسط هذا الجو الذي يفرض نفسه بقوة.. وهو الحاجة الدائمة للعريان والجوعان كي يعيش، فتعلمت الفتيات كيف يلقــطن رزقهن على شاكلة أمهاقمن.. وتعودت كل فتــاة مــن أبيهــا الرضوخ لما هو واقع فاختصرت الطريق خاصة أنــه لا توجــد

بارقة أمل في الزواج ومن ذا الذي يتزوجها إلا واحـــدا مـــن أوباش الحي كانوا شبابا أو كبارا..

* * * * *

وكان الفقراء في قريتي معروفين لا يتعدون مائة أسرة وكان الأغنياء يكفون حاجة المحتاجين، ولم نسمع أن فقيرا كان يترح من بلده بحثا عن عيش أفضل وكانوا جميعا يأكلون ويعيـــشون وتكونت هذه العشوائيات بشدة وعلى مراحل بدءًا من بدايـــة السيتينات وحتى الآن بلغت شدتها وخطورتها حتى أصبح كـــل حي فيها له ناسه وقوانينه وأعرافه.. والعرف السائد هو الحاجة تبرر الوسيلة.. فاحصل على طعامك بشيء من الجسد.. وعاد الأن أهل قريتي جميعا فقراء وكل واحد في حاجة إلى لقمة مـــن رغيف،وكان في قريتي وزراء يحكمونها بالعرف وقبل أن تبزغ أية مشكلة اجتماعية كان هؤلاء الرجال من الـــوزراء والـــذين يحكمون بالعدل يحلون أية مشكلة.. فأين الحاج حداد ودردير الصاوى وحسنى الجندي وعبدالحميد الهلالي.. كان أهل القرية جميعا يرتضون حكم وعرف أي رجل من هؤلاء لأنهم كـــانوا ينشرون العدل بين الناس جميعًا، ومن الشيء الجميـــل الـــذي يمكن ذكره أن أحد الوزراء كان يهوى مصافحة النساء بشكل ناعم وكن يخضعن له قليلا لأنه كان رجلا ناعمـــا وصـــاحب كلمات تعجب النساء وكان الرجل لا يتعدَّى ذلك ثم يبـــدأ في

حل المشكلة ومهما كانت القضية صعبة فإنه كان قادرا علـــى حلها بمفرده في نهاية الأمر.. كانوا رجالا و لم يعـــد هنـــاك في قريتي الآن وزراء مثل الذين ذهبوا.. وأصبحت كل قرية تضرب تقلب وليس لأحد شأن بالآخر، وظن بعض الرجـــال الـــذين حصلوا على الدكتوراه في العلوم المختلفة أن يقوموا بأعمـــال الوزراء السابقين لكنهم لم يفلحوا لأن كلا منهم يريد لنفـــسه فقط الظهور..و لم تفد شهادته أحدا من قريته أو من أهله، إلا كلا منهم لن يفد إلا شيئا في نفسه.. و لم أكن أستطيع أن انفق وقتا طويلا في التأمل في أحوال القرى والبلاد جميعـــا لأنـــني أدركت تماما أنه لا فائدة فقد انفلت الأمر، ومهما كان حـــالي تعيسا أو مذعورا لما تراه عيني من فساد وظلام يحمل أكبر قدر من الظلم الإنساني بين البشر، وكنت أشعر أن عينـــاي تكـــاد تتورم من شدة الألم وكانت مقلتاي ترى الأوضـــاع المخزيـــة بعيني يلتهب فيهما الرجاء وقلب ينبض بالـــدعاء.. و لم تكـــن هناك فائدة من الاعتكاف مع نفسي من أجل قراءة واكتشاف كل وجه بائس دون أن أجرؤ على مفاتحة أحد بأنني أســـتطيع حل مشكلته، فمن لا يملك أدنى شـــيء يقدمـــه للمحتـــاجين والفقراء عليه أن يسكت، والشيء الكاسح في كل مكـــان في بلادي أن فئة متسلطة منذ عقود تمسك كل شيء ونـــتحكم في أمور الناس بشكل يوجه كل ثروة البلاد لخدمة فئة واحدة ومن

لم يعجبه ذلك فهناك الكرباج وأبواب الزنـــازين، ولا أعـــرف حتى الآن تفسيرا لماذا كل هؤلاء الذين يحكمون يسرقون حـــتى أننا وصلنا أنه لم يعد هناك شيء ليسرقه أحد غيرهـــم، فمـــن سرق سرق وما زال يسرق ومن اغتنى اغتنى ويزداد ثراء، وبقى السؤال المحيّر.. من ينقذ الفقراء من فقرهم والناس جميعا من يوم إلى يوم يزدادون خنوعا وخوفا فيتضورون جوعـــا، والـــشرفاء ليس لديهم شيء ليبيعوه، ولكن السارقون والمارقون الذي ليس لديهم أدنى شرف يبيعون كل شيء وبقى الدور على المـــواطن نفسه وسوف يبيعونه غدًا في سوق العبيد.. والمصيبة أن القوانين وجدت لتحمى السارق ووجدت أيضا لتلفق للأحرار التـــهم والمكيدة وتدخلهم الزنازين.. في منتهى السفالة هؤلاء ولمـــاذا أنجبت البلاد مثل هؤلاء وهل يا ترى العيب على من ولـــد أم العيب على من ربّى .. وعندما كنت في نقاش مع رجل ثاقب الفكر قال في ألم ..

.. هل على الناس جميعا أن تعلم أطفالها الـــصغار كيـــف ينهبون وينصبون وكيف تكون الطفلة الصغيرة مهيئـــة عنـــدما تكبر لتكون داعرة، إننا جميعا خائفون ننكفء على ماذا نفعـــل ولا نجرؤ على أن نرفع رؤوسنا لأعلى لنقول أننا سنفعل، وعلى كل أصحاب المصالح أن يدفعوا لكي تقضى مصالحهم ولكـــن من أين يدفع الفقير، فهل على الفقير الذي لا يملـــك شـــيئا أن

يدفع بابنته أو زوجته لتدفع من جسدها حتى تقضى حاجتـــها، وبقدر الجمال تقضي المصالح الكبيرة لدى الذين يملكون المال.. إن الذين يملكون المال هم الذين يدفعون مقابل الجسد والذي لا يملك مالا لا يستطيع أن يتملك جسد كلبة، وكانت المــشكلة عند الفقراء دائما أنهم لا يملكون نساءً جميلات وبالتالي فإنه في كل جوانب حياتهم يزدادون فقرا على فقرهم، ولـــو وجـــدت امرآة جميلة من أهل الفقر فإن جمالها يكون شاحبا مريـــضا في حاجة لأن يعالج وقتا طويلا حتى يكـــون جمـــالا متماســـكا يستطيع أن يواجه المنافسة في سوق الجسد، إن عامـــة النـــاس وكثير ممن لهم مصالح وغير المثقفين وكثير من الناس الذين يحبون أن يعيشوا أغبياء أو يريدون أن يبقوا في غفلة دائما يقولون لا.. إن مجتمعنا بخير من قال أن هناك فقرا أو فقراء أو أيـــن ســـوق الجسد هذا.. لا لا .. إننا ما زلنا بخير.. وهؤلاء الذي يقولـــون إننا نذهب إلى الهاوية مجانين.

.. كان على صبرى أن يقوم ويذهب إلى بيته لقد مـــلّ أن يمضغ كل هذه الصور المذهلة التي أصابت مدينته، أنفق كـــثيرا من الوقت في أوجاع أهله ولمّا شعر بمرارة ثقيلة في حلقه كـــان لزاما عليه أن يترع نفسه من شاطيء النيـــل عنـــد كـــوبرى التحرير.. قام بصعوبة من مقعده الخشبي وتحت كوبرى قـــصر النيل رأى قاربا يعلو وينخفض كأنه ينفصل عن الأمواج ولكنه يقترب من الشاطيء في غضب والمياه تقذف بـــه وفي نفـــس

اللحظة يترل منه ما يقرب من عشرين صيادا بأسمالهم البالية وكان بينهم بعض النسوة، وجلس جميعهم في بقعة من الأرض تحت الكوبرى وأشعلوا نارا من خشب أخرجه أحدهم من جوال يحمله، وجلس ثانية على مقعده وراح يتأمل الناس في شغف شديد، وكانت أصوات غريبة تنبعث من الصيادين كأهم ينشدون عدة أناشيد وهم ينقلون قفف السمك من المركب إلى حيث تصدح النار..

وكان هناك عدد من الصبية يبدو أهم أولاد الصيادين يلعبون على الشاطيء ومنهم من راح يجلس عند النار المشتعلة وهو يرقب أهله في عملهم، والنيل قد أسجى تضيئه أشعة شمس الصباح المنبعثة من الشرق وأصوات أخرى قليلة تأتيه من فوق الكوبرى لأناس يذهبون إلى معاملهم.. ولما كان صبرى قد ركب من بيته عربة أجرة توصله إلى تلك الحديقة ليتأمل هدوء البلدة في تلك البقعة كان الفجر الحنون الذي ذهب بسكونه عن المدينة كلها وبدأ الضجيج، وهو لم يكن يعرف ما سر هذه الطاقة للتأمل في داخله وما فائدهما، ما دام لم يفعل شيئا حتى الآن، وعبر كوبرى قصرالنيل إلى جهة حي عابدين وكانت أصوات مكتومة تنطلق هنا وهناك حتى عرج شمالا حيث ميدان طلعت حرب، وهناك وجد رجلا سكرانا يردد كلمات لا يفهم معناها صبرى.. وكان الرجل يحدّث تمثال طلعت حرب لما اتضحت كلماته قليلا :

- يا حبيبي مش بعيد ترجع تاني ..

- عملت بنك مصر علشان نهضة مصر..

- وكنت عارف إن النهضة ما تجيش غير ببنك..

- لازم من البنوك وفوائد البنـــوك ترجـــع تـــاني ونعيـــد استثمارها في مصر..

- تعال يا حبيبي شوف العيال بتبيع كلامك بالرخيص..

- واللى بنيته في سنين.. إتهد في سنتين..

- وكل شيء راح لا صناعة ولا زراعة..

- إنت عارف بقينا إيه..

- بقينا بلد من غير إيراد.. تعال يا حبيبي الحـــق مـــصر.. البلد كلها بتناديك..

اقتربت من الرجل وابتسمت له فتوقف عن مناجاته والتفت بوجهه نحوى قائلا :

- عايز إيه ..

- إنت مين ..

- وانت مين.. قوللي إنت مين ..

- أنا واحد من الناس كنت قاعد على النيل بتفرّج علـــى الصيادين..

- كويس حلو. وأنا بكلّم الراجل ده..
- طيب إنت مين ..
- أنا زيّك واحد من الناس..
- يعني إنت عاقل ..
- يعني إيه عاقل ..
- عاقل أوي..
- فعلا كلامك حلو أوي.. بس إيه فايدة الكلام..
- مش بإيدي أعمل غير كده..
- طيّب إنت شارب حاجة..
- أبدا ..
- طيب ليه لابس هدوم وسخة..
- ما عنديش غيرها ..
- طيب أنا عندي هدوم كتير ..
- مش باشحت ..
- طيب تعال نتمشّى سوا ..
- لأ بحب أمشي لوحدي ..
- طيب إنت بتشتغل إيه..
- كنت مهندس في شركة خصخصوها ..

- ليه إنت في الشارع دلوقتي ..
- زيّك إنت ليه في الشارع ..
- إنت ساكن فين ..
- ف عابدين ..
- مع مين ..
- قاعد عند أختي ..
- وولادك ..
- سبتهم ..
- ليه ..
- مش قادر أصرف عليهم ..
- خلّصوا تعليم..
- أيوه .. وإيه فايدة ولادك يخلّصوا جامعة ويقعدوا في البيت من غير شغل ..
- معاشك كام..
- تسعميت جنيه ..
- إمشوا على أدكم ..
- العيال بهدلتني عايزين ياكلوا كل يوم حاجة حلوة ..
- للأسف في زمن كيلو الجبنة بقه بعشرين جنيه..

- تصّدق بالله أنا بقول لهم حاسبوا على الجبنه..

- خلــّلي العيال تشتغل في أي حاجة ..

- مش راضيين ..

- طيب طلّعهم من البيت وريهم العين الحمرا.. يشتغلوا أي حاجة شريفة.. كل واحد على الأقل يأكلّ نفسه ..

- مش قادر عليهم ..

- خللي أمهم تساعدك ..

- إنت عارف أمهم بتقوللي إيه..

- اشتغل طول النهار والليل عيشنا زي الناس.. إنت راجل إنت ..

- إنت إسمك إيه ؟

- إسمي يفيد بإيه..

- مش مشكلة بلاش إسمك.. وإنت كده رايح على فين ..

- هاقعد على قهوة أشرب جوزة..

- وبعدين ..

- أرجع لأختي ..

- وولادك ..

- طفشت منهم ومن أمهم .. واحد من ولادي مسك عليّ الكرسي وقال إنت راجل مالكش لازمة طالما مش قادر تأكلنا إمشي من هنا ..

- قلت يابني دا قدري أنا راجل على المعاش وسني عـدّي الستين .. وكفاية علي ربيتكم.. تعرف قال لي إيه ..

- إيه؟

- إمشى من هنا يا راجل يا وسـخ .. وأمـه كملـت الشتيمة ..

- قالت إيه ؟

- لما تمشي ويبقى البيت من غير راجل هـاعرف أأكـل ولادي إزاي.. بس ورينا عرض اكتافك ..

- وبعدين ..

- مشيت لأن الموضوع بقى على الأخر ..جاب خـت.. ومن ساعتها وأنا عند أختي عايش في هدوء مع نفسي علـى الأقل أحفظ كرامتي وآدي العيال..

- عايشين إزاي دلوقتي ..

- أمهم بتطلع الساعة أربعة العصر وبترجع اتناشر ..

- بتديهم فلوس ..

- المعاش كله باديه لابني الصغيّر بيصرفه عليهم.. إبني الصغير كويس..

- وإنت عايش منين كده..

- باشتغل في مخزن ملابس جاهزة في الموسكي أي حاجة الوارد والمنصرف.

- بتاخد كام ..

- ستمية ..

- عايش بيهم مع أختك طبعًا ..

- اختي عانس وبتاخد معاش من أبويا وعايشين ..

- طيب مراتك بتشتغل إيه..

- ما بقتش مراتي.. طلقتها لما عرفت أنها فتحت على بره ..

- بتشتغل إيه ..

- فكنس ..

- يعني إيه فكنس ..

- إعرف أنت بقه.. هوّ كل حاجة تسأل عليها.. عرفتك كل حاجة.. تعال إشرب معايا جوزة.. أنا كل يوم قاعد عا القهوة دي..

وكنت قد تمشيت مع الرجل حتى شارع الألفي وكان المقهي في شارع صغير يقع بين شارع الألفي وشارع عبدالخالق ثروت.. وتواعدت مع الرجل على أن أصادقه وأجالسه حيث يجلس على هذا المقهي كل يوم من الثامنة والنصف وحتى العاشرة.. بعدها يذهب إلى عمله في الموسكي..

* * * * *

كنت قلقا وأعيش مع نفسي أكثر مما أعيش مع الناس وكان الفقر والجوع والمرض والتشرد أبواب تفتح لأول مرة في بلادي، لقد كانت أرض بلادي جميلة لمّا كانت تزرع القمح والذرة والقطن ولكن ما شأن بلاد أخرى تزرع لنا ما نأكله، قبل أن نسمع بشيء اسمه ثورة كان الجمال في مدينتي يأتينا من أُسر معروفة في القرى والمدن وكان الطعام يأتي الفقراء من أياد أصيلة وأسر عريقة تعرف كيف تنفق أموالها وكانت العدالة الاجتماعية متوفرة تلقائيا، وإذا كان هناك بؤر ظلم هنا وهناك فإنها محدودة لكن مظلة الحياة كانت تكسو الجميع بالقدر الذي لا يشعر أحد أنه مهان في كرامته، وكانت المرأة الجميلة تحتفظ بجمالها لزوجها وفي بيتها وكان الجمال لا يباع ولا يتاجر فيه، ويقولون إذا كان الجمال يباع ويشترى فكيف يكون جمالا، لقد بلغ الفساد مداه حتى بلغ السلوك في زماننا أن يقولوا

للجميلات بأن بيع الجمال هو أفضل طريــق لاســتثماره، و لم يكن غريبا أن يحدث هذا في بلاد تقترب من وطن بلا إيــراد، و لم يكن ظلام الجوع وحده ينتشر. ولكن ظلام القمع أســود والأسود منه أن يعُقتل الأطفال من أحضان أمهاتهم في الهزيــع الأخير من الليل.. وكنت أسمع عن ذلك حتى أنه في ليلة مــن الليالي :

قوة من الشرطة تقتحم بيتي في الثانية بعد منتصف الليل في ليلة ٢٠٠١/١/٣١.. قائد القوة رائد في السادسة والثلاثين من عمره ويرتدي ملابس مدنية.. طرق الباب بقوة .. قلنا جميعــا من يأتينا في مثل هذا الوقت.. هلع أهل البيت جميعا نحو الباب يتقدمهم رب الأسرة.. فتح.. قائد القــوة محــاولا أن يرســم إبتسامة سخيفة .. قائلا :

- محمود صبرى إبنك..
- أيوه إبني ..
- ممكن نخش ..
- إتفضل.. فيه إيه ..

هدّجت أنفاسي بقوة خاصة عندما دخل معه ضابط يرتدي حلة سوداء برتبة ملازم أول يحمل رشاشا يوجهه لأعلى وكأنه يحرس الرائد من أهل البيت.. وأشرت بيدي إلى مقاعد الصالون

ليجلس قائد القوة ومن يحرسه.. يا نهار إسود مين دول وعايزين إيه.. وفي لحظات هزَّ الرائد رأسه قسائلا .. فين محمود.. .. رفض الجلوس والملازم جاد في رفع السلاح لأعلى وكأن سيضرب أحدا في سقف البيت ..

- ليه

- عايزينه ..

- فيه إيه.. إنتو مين ..

- إحنا أمن الدولة ..

- يا ستار ابني عمل حاجة في أمن الدولة ..

- لأ حاجة بسيطة ..

وكان الطفل محمود يقف واضعا إصبعه في فمه وقدماه ترتعش ويتأمل وجه أبيه ووجه الرجلين في ذهول.. قسائلا بصوت مرتعش ..

- أنا .. أنا .. ليه.. أنا في ثانية ثانوي.. والله ما ضربت حد من زمايلي وعمري ما تعديت على مدرس..

وكان الرائد سمجًا فقال للطفل الذي لم يجب أحد عن سؤاله عن ما الذي فعله :

- فين أوضتك يا محمود

صبري : ليه.. هوّ زارع حشيش في أوضته..

الرائد : لو سمحت سيبنا نشوف شغلنا ..

صبري : بس إنت في بيتي .. دا هجم على الناس ..

الرائد : مش إنت اللي تقول هجّم ..

صبري : هوّ دخول البيوت سهل كده.. عـايز إيـه مـن أوضته ..

الرائد : مرَّة أخيرة إنت بتحوشنا عن شغلنا .. ممكن ما فيش كلام خالص..

صبري : مش إنتو القوة إعملوا اللي إنتو عايزينه.. إقـتلني ومالكش دعوة بابني..

إيه الموضوع على فكرة إنتو جايين غلط.. ابني أكثر حاجة عملها إنه ما بيعرفش يركب أتوبيس لحد الآن.. وما يعـرفش يروح الألف مسكن لوحده.. هوّ الطفل عمل إيه..

الرائد ينظر بامتعاض إلى الأب ضاربًا بكلامه وتـساؤلاته عرض الحائط قائلا لمحمود :

- فين أوضتك يا محمود ..

نظر محمود إلى أبيه وكأنه يقول له :

- خلاص يا بابا مش مشكلة.. ها وريّه قوضتي ..

صبري : خش هات الحشيش من جوه ..

تراجعت أم محمود وإبنتها إلى الخلف ليفسحا الطريق حتى يدخل المتهجم على حرمة البيوت ليترع الخطر الذي يهدد أمن الوطن من غرفة الطفل.. ودخل الضابط الحقير غرفة ابني وصفق الباب بشدة، وهلعت الأم نحو زوجها تضرب بيديها صدرها وكانت تريد أن تصرخ بأعلى صوتها ولكنها كتمت الصرخة في أنفاسها المتهدجة وقالت وكأنها تلقي اللوم على رجلها :

- يا لهوي .. يا حسبتي بالي .. فيه إيه وليه هوَّ ابني حاطط حاجة في أوضته ومش عارفين.. قوللّي يا صبرى قول ولطمت بشدة خدّيها فأمسك صبرى بيديها قائلا :

- أهو دا بقى كُفر .. إستغفرى الله ..

.. تراجعت إلى الخلف وهي تهزي بكلمات كثيرة.. فيه إيه.. حوش يا صبرى عننا.. هوّ محمود راح في حتة من ورانا.. هوّ فيه إيه جوّه .. أستر يارب فيه إيه في قوضة إبني :

وقال صبرى وهو يحاول أن يجلسها على المقعد :

- لأ أبدا تقريبا فيه جاسوس مستخبّي في دولاب محمود ..

واقترب محمد الصغير من أبيه وقال في براءة وهو يحملق في وجه والده :

- أنا معاه في الأوضه يابابا والله ما فيه حد..

وأمسك صبرى به وقال :

- طوّل بالك يا محمد هانشوف حضرة الضابط العظيم ماسك مسكته.. الصبر حلو يا بني.. اهدأ.

كان أهدأ الأفراد في الأسرة أخته والتي راحت تضع أذنها على باب الغرفة ربما تسمع ما يجري في الداخل وسمعت ..

الرائد : دا إيه

محمود : شريط

الرائد : جبته منين ..

محمود : من السوق..

الرائد : ودا جبته منين..

محمود : كتاب الأذكار عادي موجود في كل حتة ..

الرائد : ودي ..

محمود: إسطوانات قرآن وشرايط عادية مالية الأسواق..

محمود : شوف الدولاب مفتوح على الآخر.. شوف حاجة في الهدوم..

.. هزّ الرائد رأسه وقال وهو يحضن بيده وصدره شريط فيديو للعلامة الهندي واسطوانات القرآن والشرايط وكتاب الأذكار :

- حانطلع من سكات وامشي معنايا زي الشاطر علشان تعرّفني بيت إيهاب

.. وفرح الولد لظنّه أن الموضوع ينتهي عند بيت إيهاب.. الحمد الله دي بسيطة وعليه قال مخلصا للرائد وفي صوت عال :

- حاضر تحت أمرك مفيش مشكلة..

- خلاص تعال ورايا ..

.. وخرج الرائد وهو يحمل جسد التهمة والجريمة في يده وكانت قدماه تدق الأرض بقوة كما كان الرشاش الذي يحمله الضابط الصغير ويصّوبه إلى السقف يحمي اقتحام الرائد بيت الناس في قوة.. ومن يقدر على القوة إلا القوة.. ولّما كان قائد الاقتحام يخرج في سلاسة وخلفه محمود كأنهما اتفقا على شيء.

قال القائد لصاحب البيت في صراحة وكأن أحدا لا يستطيع أن يوقفه :

- محمود خمس دقايق معايا ها يوّريني بيت إيهاب ..

- أنا ممكن أوريك خليّ الولد وأنا جاي معاك.. دا بيت إيهاب أنا عارفه كويس..

- برضه عيب ما ينفعش خلّيك مستريح .. محمود خفيف عنك ..

وكان المثير أن ضابط الرشاش يؤدى عمله بقوة ويصوب فوهة الرشاش لأعلى وهو يكشِّر وكأنه بعد لحظة سيصوِّب الطلقات إلى عدو يتربص به ويسكن الطابق العلوي .. ونزلت الحملة على الدرج يتقدمها الطفل وخلفه الرائد ثم حامل الرشاش بعدهم صبرى يرتدي روبا ثقيلا وأم محمود يمسك بها الصغير محمد.. وفي كل طابق من الطوابق الأربعة التي تحت شقة محمود فتحت كل الشقق أبوابها وتراصت أفراد كل شقة خلف بعضها البعض ليشاهدوا أفراد حملة الضابط الهمام ومحمود المقبوض عليه بجسد تهمته والتي يحملها الرائد الفريد في مهماته والتي كانت سُمعتها قد انتشرت في الحي كله.. كانت هذه الأسر تسمع كل يوم عن مثل هذه الحملات الراقية والتي تنظف المدينة من أوكار منتشرة في كل بيت وتهدد أمن الوطن..

.. وانهمر الدعاء مع الدموع من أفراد كل أسرة خلف بابها الموارب :

- معلش ربنا فوق.. حسبي الله ونعم الوكيل.. معلهش يا أم محمود ولا يهمّك ربنا مش ها يسيبهم، طفل عمل إيه.. يا سلام على السفالة.. روح الله ما يبارك لكم.. خليك قوي يا أستاذ صبرى كل حاجة ليها آخر.. مظلمتك فوق عند الله ها يجيلهم يوم.. وفي أول ما سمعت آذان صبرى وأم محمود كلمات

التعاطف والحب والدعاء من أهل البيت كانت الدموع قد انهمرت بقوة تغسل وجه الأب والأم حتى محمد الصغير.

.. وكان أمام العمارة في الشارع مشهد لا ينسى تجمعات من الناس أمام كل بيت في المحيط الذي يحيط ببناية الطفل محمود ولم تكن هناك شرفة في كل هذه البنايات إلا ووقف أهلها جميعا وقلوبهم تبكي حسرة على ما يحدث وكان الجميع يقول بقلب موجوع.. ماذا فعل هذا الطفل.. ماذا في مقدور طفل لم يتعدّى السادسة عشرة والنصف أن يفعل وراح الجميع يتساءل.. أنه ربما يكون هذا الصبي الصغير قد اقترف جُرمًا كبيرا لم يره أهل الشارع جميعا.. ولكن عيون الأمن السهرانة لا يخفي عليها شيء.. يعمر بيت أمن الدولة يحميكي صحيح صاحية.. يا خرابك يا بلد من غيرهم.. ويهان أطفال الوطن وبيوته آباء وأمهات بلا ذنب اقترفه أحد.. واقترب بعض أهل الحي رجال ونساء وشباب يمسكون بصبرى من يده وكتفه وذراعه شادين من أزره :

- اوعى تزعل..
- خلّيك جامد ..
- اوعى تيأس من رحمة ربنا ..
- دول بتوع السلام.. على فكرة دا المقدم شريف ..

- ليه ابن مشلول.

- علشان يترقّوا ينكلّوا بالناس ..

- دي هوجة.. أصل فيه حاجة حاصلة ما تعرفش إيـــه.. بيرعبوا الناس

- ابنك ها يرجع ما تخافش كلّها يومين..

.. كانت عربة ميكروباص مدنية مكتوب عليها رمسيس- مدينة السلام هي التي تحمل الكبسة.. ركب ابني مـــع مـــن في العربة وأصبح عددهم ستة.. ثلاثة صبية من عمر إبني وثلاثـــة أكبر قليلا لا يتعدى الواحد منهم واحدا وعشرين عاما..

وأمسكني أبو إيهاب من الخلف قائلا :

- مصيبة يا أستاذ صبرى شفت إيهاب..

- الحمد الله إنهم مع بعض.. كانوا بيروحوا المدرسة ســـوا ودلوقت سوا..

- قالوا لإيهاب تعال ورّينا بيت محمود ..

- ضحك على الدقون

- هوّ بس ضحك على الدقون..

ثلاثة جنود يحمل كل منهم بندقية ويدورون حول العربـــة، مركبة بوكس سوداء يرأسها الملازم أول والذي ما زال رافعـــا رشاشه لأعلى ومعه ثلاثة جنود آخرين.. ركب الرائد شريف

أو المقدم شريف في المقعد الأمـــامي للميكروبـــاص بجانـــب السائق.. كان كمن أصاب هدفا أو انتصر على عدو أو حصل على جائزة كبيرة في الأمن أو شـــهادة تقـــدير مـــن حقـــوق الإنسان.. وكان الإرهاب والتخويف الذي تمارسه ســـلطات النظام بإجرام على الشعب هو عنوان الحملة المأســـوفة علـــى أعمالها الحقيرة.. انطلقت عربة المقبوض علـــيهم في موكـــب مؤسف بصق عليه كل شاهد عيان تجمّع من بعيـــد أو قريـــب ليرى المأساة أمامه بأم عينيه..

.. كانت أم محمود تبكي بحرقة بعيون منـــهمرة بـــدموع حزينة وهي ترى ابنها ذاهب إلى المجهول.. وإلى أين ولماذا وماذا حدث.. ولطمت خديها وراحت تضرب صدرها بكلتا يـــديها وكأنها تلوم نفسها.. لماذا جعلتهم وبهذا الاستسلام يأخـــذون ولدها دون أدنى مقاومة.. ووقعت على الأرض وارتمى فوقهـــا عددا من النساء يرفعونها لأعلى .. وهكذا فعلت أم إيهاب وأم ياسر وأم الخطيب وأم رمضان وأم أيمن.. كأن كـــل أم مـــات ولدها هذه الليلة.. ومضى بعض الوقت وبدأت الناس تنصرف إلى بيوتها.. وبات في كل بيت من البيوت الستة أحزان وندب وتليفونات للأهل والأقارب والأصدقاء في محاولات لإيجاد حل لاسترجاع وإعادة كل ابن إلى بيته..

* * * * *

وكان مشهد يقطّع قلب الحمار إذا رآه وسمعه، فلما كـــان الميكروباص يتحرك إلى جسر السويس في ثورة الطفل ربمـــا أو استغاثة مسكين لما نزل عليه فجأة من مصيبة فتح محمود نافـــذة المركبة وهو يضع إصبعه في فمه ونادي بصوت لا يخـــشى ولا يخاف وهو في قبضة من بيدهم الأغلال.. كانت رأسه كلـــها خارج النافذة وكأنه يستغيث بالناس جميعا.

- بابا .. بابا ..

جرى إليه والده فزعا حتى أصبح في مقابلة رأسه وقربها :

- فيه إيه.. فيه إيه يا محمود..

- ما تسيبنيش يا بابا.. شوف أهلك يا بابا.. إعمل حاجة يا بابا.. أنا رايح فين يا بابا.. قوللّي يا بابا.. هاتوا أي حد كبير بدالي أنا صغيّر يا بابا.. أنا غلبان يا ناس.. والله مـــا عملـــت حاجة.. والله..

.. وراح الولد في عويل وبكاء شديدين وبصوت عال هـــزّ الناس جميعا فانخرطوا في بكاء شديد وراحوا يرفعون أكفهم نحو السماء منادين في صوت واحد..

حسبي الله ونعم الوكيل.. وكان أول من بكى في شـــرفته ودعا بنفس الدعاء السيد كامل إبراهيم وزوجته نرمين بطـــرس اللذان يقطنان في الطابق الثاني للبيت المواجه لبيت محمود..

وكان أبو إيهاب قد استمال أحد الجنود من الحملة والذي كان يقف أمام بوكس أسود يحمل جنود الحراسة..وقال أبـــو إيهاب:

- الله يرضى عليك يا بني إنتو رايحين فين بعد كده..

العسكرى: رايحين السلام ..

أبوا إيهاب : السلام دي فين ..

العسكري : عارف قسم مدينة السلام.. أمن الدولة جوّاه..

أبو إيهاب : يعني أجي أزور ابني بكرة..

العسكري : ما فيش زيارة .. ممنوع ..

أبو إيهاب: والعمل ..

العسكري: العادة ها يقعدوا يـــومين في الفـــرع وبعـــدين يترحلـــّوا ..

أبو إيهاب : يالهار اسود يترحّلوا كمان .. على فين ..

العسكري : الله أعلم يا بيه.. شوف ابنـــك والعيـــال دي عملت إيه ؟!

أبو إيهاب : وحياتك يا بني قوللّي .. إنت منين إنـــت هـــا تطلع بلدياتي قوللّي يترحلوا فين .

العسكري : إحلف بالله أنا ما قلتش حاجة..

أبو إيهاب : ما تخافش قوللّي .. ها يروحـوا فـين بعـد السلام ..

العسكري : لاظوغلي .

أبو إيهاب : يعني إيه لاظوغلى ..

العسكري : مش عارف لاظوغلى.. ابقى اسأل عليه.. قلق البلد كله هناك..

أبو إيهاب : يعني إبني راح بحر ما لوش آخر..

* * * * *

وكانت أم محمود تهذى بكلمات لا يفهم معناها وما حدث في هذه الليلة يحزن عليها الليل فيمتد ظلامه طويلا ولا ينتهي.. كانت شديدة اللوم على زوجها كالعادة، فكل شيء غير سعيد يحدث في البيت وبدون أدنى درجات التفكير والحكمة يكـون زوجها هو السبب ولّما كانت تجرى نحو الشرفة ربما ترى إبنها قد عاد فجأة ثم تعود إلى غرفته تفتح دولابه وتبحث فيه عـن ولدها ثم تقلّب في هدومه وتبكي.. أخـذها زوجهـا بيـده وأجلسها على كنبة بالصالة وقال في هدوء :

- بالراحة إهدي .. خلينا نفكّر بالراحة..

- إبني راح فين.. هات لي ابني..

- معاه ربنا ..

- وانت

- ربنا أحسن ..

- يعني إبني راح خلاص ..

- مين قال كده ..

- طيب هات إبني ..

- أنا زيك بالضبط .. إهدي ..

- أهدي إزاي ..

- طيب صوّتي يمكن الصوات ها يجيبه ..

- اتصرّف ..

- قولي يا رب ..

.. ولما وجدها هدأت قليلا قال في شيء من التردد :

- جوز بنت عمتك لواء في مكتب الوزير ..

- إيوه ..آي والله ..

- كلـّمي عمتك ..

وسكتت قليلا وقالت كمن تكلـّم نفسها :

- صحيح ها كلـّم عمتي ..

وبيد مرتعشة وبقلب متلهف حادثت عمتها قائلة :

- عمتي .. إزّيك يا عمتي ..

- إزّيك يا بنتي ..

- إذا كنت بتحبي بابا وبتحبيني الحديني يا عمتو ..

- فيه إيه يابنتي .

- محمود ابني .. أمن الدولة جم خدوه ..

- يا لهوي الساعة كام دلوقتي .. عمل إيه دا لسه عيّل ..

- هوّ دا اللي حصل ..

- طيّب وأنا عمل إيه يا بنتي ..

- عصام.. اللوا عصام يا عمتو جوز نبيلة في عرضك يـــا عمتي ..

- يا بنتي إنت عارفه عصام ما بيخدمش حد ..

- طيّب بس قولي لنبيلة

- نبيلة بتخاف منه.. وبعدين ها تقولـــّه إبننـــا إرهـــابي وخدوه.. لا يا بنتي.

بُصّي ها قولك من الآخر عصام وبنتي بتـــوع مـــصلحتهم وبس..

- نبيلة الأستاذة في كلية البنات تخاف من ضابط..

- طول عمرنا يا بنتي بنخاف من العساكر.. لما كنت بنت صغيّرة وعايشة في السيدة كنت لما بشوف عسكرى أجرى وأقول للناس إوعو العسكري..

- دا أنا سامعة إن عصام ده ابن ناس غلابة أوي وانتو نفسكم بتقولوا عليه كده.. الله يرحم أبوه اللّي كان بيعمل الأسبتة ويمشي يبيعها في الأسواق.. المفروض واد زي ده أبوه كان غلبان ومطحون يساعد الناس.. دا أنا سامعه إنه بيشتغل في مكتب اللّي يتقصف في رقبته اللى ولّع البلد..

- بصّي يا أم محمود إنت بنتي ومن الآخر عصام ده داق الفقر وهوّ صغيّر وشاف أبوه راجل غلبان كوته لما لبس البدلة وبقه ضابط ما حدّش عرف يكلّمه من يومها وهيّ دي عادة الناس البسيطة الفقرا لما ربنا بيديهم ما بيعرفوش حد.. ويعدين بيخاف على مستقبله أوي وعلى الترقية ومش ممكسن يعرّض نفسه حتى لو بكلمة ويقولوا إنه له صلة قرايب وهم ولد إرهابي..

- بقه ابني بقه إرهابي كده مرّة واحدة ..

- هيّ البلد بتاعتنا كده.. طالما حدوه عمل ما عملش هوّ بقه إرهابي..

- يا نهار إسود بالزور والبهتان والبطش وتلفيق التهم للناس هيّ دي البلد.. هوّ إحنا عايشين فين..

- ها سألك سؤال يا بنتي هوّ إبنك بيصلـــّي الفجر..

- من شهر بس مواظب على صلاة الفجر..

- يبقه خلاص راح في الرجلين ..

- إزاي يا عمه..

- نبيلة بنتي بتقول عن لسان عصام إن اليومين دولت فيـــه هوجة تخويف للصّغير والكبير في البلد ونازلين دلـــوقتي علـــى الأطفال اللّيّ بتصلـــي في الجوامع علشان تحقيق فكرة القـــضاء على المنابت، يعني فكرهم يا بنتي إن العيّل طالما رجله خـــدت على الجامع خاصة في الفجر يبقه ده عيّل ها يبقه شديد لّما يكبر والخوف من اللّيّ زي دول.. هاتوهم نقضي عليهم من دلوقتي أحسن.. والله يا بنتي نبيلة بنتي قالت لي كذا مرّة الكلام ده من لسان جوزها اللي بيشتغل في مكتب الوزير اللّي بـــيلم النـــاس وكأن الناس دي غنم في عزبة أبوه..

- يا لهوي يا عمة.. دا أحنا لو في الجاهلية كـــان هايبقـــه حالنا أحسن من كده.. والجاهلية الأولى ما تعملش كـــده في أطفال تكره البلد بعدين.. يا عمة ممكن اللوا عصام ده يساعدنا من تحت لتحت..

- على العموم يا بنتي ها قول لنبيلة دلوقتي حالا.. لو كنت أعرف إن ابنك بيصلـــّي في الجامع كنت قلت لك إمنعيه..

- ما قلتيش ليه يا عمة ..

- أنا قلت أكيد زي أبوه.. أبوه طول عمره بيصلّي في البيت والجمعة بس في الجامع واحنا سامعين كده عنه..

- يا ريته كان زي أبوه..

- على العموم الولد غلبان وما زنبوش حاجة وأنا هاكلّم نبيلة وهارُد عليك ..

* * * * *

.. وضعت أم محمود كف يدها تحت ذقنها وأمسكت قلمًا كأنها تستغيث من مجتمع المصالح.. ولكن إلى متى تستغيث .. سرحت قليلا بأفكار في رأسها ثم قالت في قرف وهو تبحث عن ورقة :

- يعني إحنا بقينا في بلد كل واحد فيها ومصلحته وتطير رقابي الأبرياء في سبيل تحقيق هدف كل واحد لوحده.. يعني كل واحد ياكل التاني في سبيل مصلحته.. لا قيم ولا مبادىء الخوف والخنوع وذل الحياة وكل واحد في عرقوبه.. يعني الدنيا هوجة فوضى وإنحطاط.. وما كناش فاكرين إن الدنيا في البلد بقت كده.. دلوقتي وصلت الرسالة وعرفنا لّما المصيبة دخلت بيتنا وخذت أعز ما لدينا .. طيب ها نعمل إيه يا صبري..

* * * * *

ورحت أفكر في أقاربي.. في أقارب أمي.. وكان يجب عليّ أولا أن أبلغ خالى المستشار ع. فودة نائب رئيس محكمة النقض سابقا وكان الوقت يقترب من الثامنة صباحا وأدرت قرص الهاتف :

- آلو ..

- آلو ..

- أنا صبرى يا خالي..

- أيوه يا بني إزّيك.. خير بتكلّمني بدري .. فيه حاجة في تلوانه أو شنشور..

- لأ .. فيه حاجة عندي أنا ..

- خير يا بني فيه إيه.. يا ستّار..

- إبني محمود خدوه النهاردة.. الساعة اتنين بالليل..

- من دول اللىّ خدوه..

- أمن الدولة يا خالي..

- بعيد الشر ابنك عمل إيه..

- ولا حاجة..

- إزاي يا بني.. لا قنبلة ولا سلاح ولا بيلف ويدور حول كنيسة أو معبد مالوش أي نشاط كده أو كده..

- كل ده لأ..

- والعمل يا بني.. خدوه على قسم إيه..

- قسم السلام..

- طيّب أنا ها كلّـم العميد سامح جوز بـنتي أهـو في الشرطة يمكن يعمل حاجة أو يدلـّنا على أي حاجة..

- طيب يا خالي أنا في البيت منتظر ردّك علي..

- وحياة حميدة أختي وغلاوة ولاد أختي والحـاج درديـر وشنشور كلها ها قلب الدنيا علشان محمود..

- متشكر يا خالي ربنا يبارك فيك ..

ودبّ في داخلي بعض الأمل فهاتفت ابنة خالى ع شـبابك الدكتورة شاهيناز زوجة اللواء شاهين السيد مدير أمن سابقا..

- آلو ..

- أيوه مين ..

- الدكتورة نورا.. أنا صبرى ابن عمتك حميدة..

- أهلا يا صبرى فين من زمان..

- في الدنيا ..

- عاوزين نشوفك مش تيجي تزورنا علشان نعرف ولادك.. فاكر أبوك.. الدنيا كلها إتقطعت بعد موت عمي الحاج دردير كان كل ما يجي مصر لازم يزورنا في منيل الروضة.. فين بابا وفين أبوك وفين عمتي حميدة.. كل الناس الحلوين ماتوا .

وكدت أبكي وتحشرج صوتي فجأة فقالت :

- ما لك يا صبرى فيه إيه.. فيه حاجة..

- أبدا إبني خدوه..

- إبنك مين ..

- محمود ..

- مين اللي خدوه ..

- أمن الدولة ..

- يا نهار إسود ليه..

- علشان بيصلّي الفجر في الجامع ..

- آه قولّي كده ..

- يعني إنت عارفة إن ده سبب كاف لإعتقاله..

- شوف جوزي كان لوا ومدير أمن.. إنت عارف من سنة منع عادل إبني من الصلاة في المسجد.. كان ابني بيروح

كل وقت يصلـّي.. ولما قلت له ليه.. قال لي اليـومين اللـيّ جايين فيه هوجة سياسة الوزارة القضاء على المنابت ومش هـا يخلـّوا حد يروح الجامع إلا ويعتقلوه.

- طيب ما قلتليش ليه..

- هو أنا أعرف إن ابنك بيصلـّي الفجر في الجامع.. مـا أنت بعيد وبعدين أنا ما خدتش فيها ولا إديت.. إسمع أنا هقول لشاهين وأشوفه إيه اللي يقدر يعمله ولو إن أي واحد بيطلع من الداخلية مهما كانت رتبته ما حـدّش بيخدمـه ولا يـسمع كلامه.. بيني وبينك شاهين من ساعة ما خرج قطـع علاقتـه بيهم كلـّهم لأنه كان قرفان.. ولكن يا صبرى خد مني وعد هاعمل قصارى جهدي وحياتك وغلاوة عمتي حميدة وعمـي الحاج دردير..

- متشكر أوي معلش تعبتك..

- عيب دا إنت أخويا ..

* * * * *

وواصلت الاتصال وهاتفت ابن خالتي الدكتور أ. الجـرف أستاذ بكلية الطب وشرحت له ما حدث وشـاركني أحـزاني ووعدني بأنه سيبذل قصارى جهـده.. ثم اتـصلت بـشقيقه المهندس س.الجرف رئيس مجلـس إدارة إحـدى الـشركات

وصديق شخصي لابن الرئيس عبدالناصر.. ووعــدني بأنــه سيفعل المستحيل، بعدها هاتفت الدكتور ح. الجــرف أســتاذ بكلية الطب، وما وعدني إخوته وعدني..

واتصلت بالدكتور ع.ز. فودة أستاذ الاقتصاد الــسياسي وسكرتير اللجنة المصرية للقانون الدولي ثم اتصلت بالمهندس ح. فودة وهو صديق شخصي لأحد الوزراء الحاليين ورئيس مجلس إدارة شركة كبرى في أجهز الكمبيوتر.. ولمّا اتصلت بــاللواء مهندس ر. الجرف وهو زوج ابنة خالي الدكتورة عزة.. قــال بتوع الجيش أبرياء من ما يفعله بتوع الداخلية وكلــّمني كثيرا في الدين وأنه يجب عليّ أن أكون قويا ونصحني في أن أفكرّ في الله كثيرا ،أن أستعين بالله عليهم وأخبرني في نهاية حديثه معــي بأننا مقبلون على أيام سوداء وعليّ بالصبر وقــال أن الــدور علينا.. وهو كأس سيشرب منه الجميع.

وأخيرا اتصلت بالدكتور ط. الجرف وهو أستاذ القــانون الدستوري.. فقال لي :

- لله الأمر من قبل ومن بعد.. والله في هذا العهد لن ينفــع القانون ولا كل علوم القانون في بلد لعبوا فيه بالدستور و لم يعد الدستور دستور كل الناس ولا دستور وطن.. لقد عاد القانون في أيدي من يزيّف القانون من أجل فرد واحد أو مجموعة مــن

الأفراد.. والحمد لله أنني لم أنجب ولـدا لأنـني أيقنـت الآن وبشواهد هذا العهد الفاسد أنه كـان سـيكون في غياهـب السجون لأنه كان سيواصل رسالتي التي لم أستطع مواصـلتها لمرضي ولكبر سني.. شوف يا صبرى إنني لن أستطيع أن اتصل بمن هم أقل مني حتى يخرجوا ابنك.. وأنصحك بـأن تـصبر.. ولماذا لا تكون صاحب رسالة واترك ابنك ومصيره ولا تتعـب نفسك في بلد كل أمورها تزوير وتزييف.. إنه مـن علامـات ذروة النفاق والفساد والطغيان أن أساتذة القـانون يـزورون القانون.. يا صبري ما تجريش ورا حد وما فيش حد ها يطلّـع ابنك وكل اللّيّ كلمتهم ماحدّش ها يعملّـك حاجة.. كـل واحد مش شايف غير نفسه وكلنا غرقانين في الدنيا ومصالحها والعوض على الله.. وكان كلام الدكتور الجرف رسالة قويـة منعتني من الاتصال بأي أحد آخر واكتفيت من أقاربي هـؤلاء وشعرت باليأس من أن أطلب شيئا من أحد بعد كلام أسـتاذ القانون وعليّ أن أكون قويا وأن أتلفحّ بالجسارة والقوة وعليّ بالصمت والصبر وأن اعتمد على ربي فقط.. وحسبي الله ونعم الوكيل.. وقفلت هذه الصفحة .. ويوم بعد يوم اعتدت التأخير عن عملي أو عدم الذهاب فقي محاولات من التفكير الـشديد لرأب الصدع الذي أصاب بيتي وفي الليلة الرابعة من اعتقال ابني حدثني خالي المستشار ع. فودة :

- آلو يا صبري.

- أيوه يا خالي..

- إزّيك دلوقتي عامل إيه.. فيه أي أخبار عن إبنك ..

- لأ ما فيش حاجة..

- شوف يا صبرى إنت عارف أنا قعـــدت في الإمـــارات سبعتاشر سنة لّما كنت في النقض كنت أعرف كثير من لواءات الشرطة.. وكانوا يتمنون أي خدمة، والله يا بني دوّرت علـــى تليفوناتهم وجبتها من الأجندات القديمة - لقيت اللـــيّ مـــات واللي طلع واللي تليفونه ما بيردش.. يعني لم أعثـــر علـــى أي واحد ممكن يعمل حاجة.. فيه مستشار قريبنا اسمه أ. المنوفي دا منصبه مساعد المدعي الإشتراكي..

- لأ يا خالى بلاش حد من عيلة المنوفي من تلوانة خالص..

- ليه ..

- في موتة أمي ما فيش حد من عيلة المنوفي جه عـــزّي في أمي.. دا كلام عبدالسلام ابن خالي عبدالحكيم.. يبقـــة إزاي نروح نطلب خدمة من واحد منهم..

- إسمع يا صبري.. المستشار أحمد ده ما لوش دعوة بعيلـــة المنوفي أمه من عيلة فودة قريبتنا وهوّ بيحب إخواله من فـــوده

أحسن من أبوه نفسه.. شوف أنا كلمته وقال لي خلليّ صبرى يجيلي البيت علشان آخد منه كل حاجة وأسمع منه.. يا صبرى إسمع كلامي.. خد تليفونه وكلّمه وهوّ مستني تليفونك علشان تروح له..

- خلاص يا خالي هات..

.. ومر يومان وذهبت إلى المستشار أ. المنوفي واستقبلني استقبالا جميلا واحتضني وقبّلني وقال وهو يدخلني غرفة صالونه :

- خالك عبدالعزيز قال لي كل حاجة.. أمي من عيلة فودة واعتبرني مش من المنوفي خالص هوّ أنا لو أمي من عيلة تانية كنت هابقه مستشار.. يا صبرى يا شنشوري راسك ناشفة زي بتوع شنشور.. يا صبرى أنا خالك زي المستشار عبدالعزيز ماهو خالك بالضبط..

- لآ والله أنا ما أقصدشي.. أصل أنا متعوّد على حاجة من صغرى اللي ما يحبّش أمي ما حبهوش

- دي حاجة حلوة أوي.. واحنا كلنا بنحبك وكانت أمك الحاجة حميدة ما تقولشي لأمي غير يا عمّة فاطمة.. أحسن حاجة في عيلة فودة الحب والتماسك والتدين وعشان كده كنت بحب أمي أوي.. وبالتالي بحب أخوالي أوي.. شوف بقه أنا عايز أخدمك بقلبي ودمي قوللّي كل حاجة عن إبنك وخدوه إزّاي .. وبعدين نقول يا رب..

.. وحكيت للمستشار كل شيء بالتفصيل عن إبني وعـــن طريقة القبض عليه، وتحسّر الرجل عما جرى وقال:

- وهكذا ينحدر العدل ويضيع القـــانون.. علـــى مـــدار الخمسين عاما الماضية وعصا الأمن تعلو ويدنو القـــضاء لأنهـــم يريدونها في النهاية بلا قضاء وبلا عدل.. وبطول هذه الـــسنين بين القضاء والشرطة عداوة دفينة لأن الشرطة ترفع العصا على الشعب والقضاء يحاول إنزال العصا من أيديهم حتى لا يُعتـــدى على الشعب، والشيء المضحك أن كل شيء في بلادنا يـــدار بالتدخل الأمني والتخويف وقد يقول أحد من النظام..

- من قال هذا؟ وعليه لّما كانت وهذه دولة ،هذه أخلاقهـــا كان قانون الطوارىء الذي به يقتحمون أي بيـــت ويعتقلـــون الأبرياء والأطفال دون أن يقترفوا شيء وهذا القانون الحقير في يد الأمن لتلفيق التهم لأي إنسان لا يعجبهم.. فهـــذا النظـــام يريدنا جميعا أن نقول له نعم آمين.. وهذا لا يمكن أن يكـــون فالذين يعترضون أو يتكلمون يتم اعتقـــالهم وإذا كـــان كـــل الشعب يرفضهم يعـــني كـــل الـــشعب الـــصامت لا يقبـــل بحكمهم..فهل يعتقلون كل الشعب..

وغدا سوف يعتقلون الناس على صمتهم .. المشهد السياسي في البلد كله مرفوض لأنه الذل.. وكيف ننجو لّما ابنك ياخدوه وهو طفل لم يتفوه بكلمة ضدهم وهو حفيد عائلة كلها قضاة

ومستشارين وأساتذة جامعات.. فما بالك ماذا يفعلون بأطفال من عامة الشعب.. ؟

- يا سيدي الفاضل إن من ضمن الشباب الذين تم إعتقالهم مع إبني ابن بائع خضار سرّيح يمشي في الشوارع بعربة كـــارو يجرها حمار ويقول مجنونة يا قوطة..

- إذا هم ينكلـــّون بكل الناس.. لقد وصل هذا النظام إلى درجة الإنهيار بالفعل لأنه لا يدرك ماذا يفعل وأنه الآن ينكّـــل بالجميع ويستعدي كل الشعب بكل فئاته..

- ولماذا كل هذا وإلى متى يدمرون هذا الوطن..

- نحن أمام مشهد واضح قاتل وقتيل.. ظـــالم ومظلـــوم.. سوف أقتلك لتحقيق أنا .. هو يقول لنا أنا كل شيء وأنـــتم جميعا حزمة قديمة.. أليست هذه فتنة.. أليس هذا ظلام الليـــل الكاسح الذي دخل كل بيت.

- نحن أمام مجموعة لصوص ونصابين وسماسرة يفعلون كل شيء في البلد وبكل بجاحة ومعهم العصا لتخويف من يقف في طريقهم.. إن أملاكنا وثرواتنا تنهب وتباع أمام أعيننا ونحن في غيبوبة لا ندري ماذا نفعل..

- نحن أمام مشهد الذين يهدمون الوطن والذين يبنون قلـــة لم تعد قادرة على بناء طوبة واحدة الآن..

- يا سيادة المستشار في وسط هذا الجو هل هناك أمـــل في عودة ابني..

- أنا ليس لي أبناء سوف أعتبره إبني وسأبذل كل مـــا في وسعي.. وكل ما أرجوه منك ألا تحزن.. وقل حسبي الله ونعم الوكيل..

- والله لا يوجد واحد في هذا البلد إلا وهو يرفع يـــده إلى السماء مرددا هذا الرجاء..

- لم يعد الناس يملكون غير هذا..

- وهل يقبل الله دعاء الضعفاء.. لقد إرتضينا جميعا الـــذل والمهانة..

- هذه تراكمات تعودّنا عليها منذ أكثر من نصف قرن..

* * * * *

.. أصوات مكتومة مقهورة وآهات تـــصرخ مـــن الألم في حجرة رطبة مظلمة وعصابة ســـوداء شـــدّوها علـــى عينيـــه فأصبحت الدنيا حوله يدهمها الظلام.. زعـــق فيـــه الـــضابط بكراهية :

- إقلع كل هدومك يا كـــ ...

- حاضر.. كله كله ..

- أيوه يا كـــ ...

وتلعثم الطفل قليلا.. وطفق.. والسِّلب..

- لأ خلـــّيه يا كـــــــ ..

وشخط الضابط في العسكري :

- إيده خلـــّص ..

العسكري : إيدك ..إسمك إيه

محمود : محمود يا بيه..

..ابتسم العسكري شعر بأن له قيمة وأنه عندما دخل معهد مندوبي الشرطة دخل النجاح كله وأنه كلـــّما يـــذهب إلى قريته في صعيد مصر يحكي لأبيه كـــم أن المعـــتقلين الـــصغار والكبار يخشونه ويقولون له يا بيه.. ويقهقه وهو يجلس بين أهله كل أجازة يقصّ عليهم حكايات جديدة عن المعتقلين وكيـــف يتم توثيقهم من الخلف وتعذيبهم واحدا بعد الآخر.. فيـــسعد كل من في أسرته على أن ابنهم له شأن كبير في الوزارة كلـــها وأنه أحد أعضاء الأمن في مكافحة الإرهاب..

العسكري : إديني إيدك قلت لك لورا مش لأدام ..

وتم توثيق ذراعي محمود برباط جلدي عند رسغه.. وشخط فيه :

- نام على ضهرك ..

نام.. وبنفس السرعة التي تم توثيقه بها وضع كرسي خشب عريض فوق الجزء العلوي لجسد محمود ليصبح صدره ورأسه تحت قاعدة الكرسي ليكون قيدا قويا يمنعه من أية حركة مقاومة عندما تصعقه الكهرباء.. وسحب العسكري الذي يرتدي ملابس مدنية.. سحب سلبْ محمود فكشف عورته.. وفي صمت راح الطفل يجهش بالبكاء وملأت الدموع وجهه وسالت فوق الأرض حوله.. وحمدا لله أنه يستطيع أن يبكي في حرية دون أن يري أحدا زفراته حيث الظلام وسقف المقعد يداري هطول دموعه.. فقد أدرك منذ أول لحظة تم اعتقاله فيها ودخوله هذا المبني أن الضابط أو العسكري سوف يسبّه حتى على دموعه.. الحمد لله أنني أملك الآن حرية نحيبي.. ربط العسكري إصبع قدمه الكبير.. لفَّ عليه رباطا كسلك وفي ذكره لف العسكري سلكا آخر.. وشعر محمود بأنه اقترب من شيء مرعب أعدوه له.. وأنه لا بابا ولا ماما ولا ستو التي كان يذهب إليها في شنشور وتحتضنه بصدرها الحنون والذي كان يشعر بأنه أقوى .حضن دافيء يحميه.. الآن من يحميه من يحني عليه من يأخذه من قبضة هؤلاء السفلة.. هكذا قال لنفسه في لحظات.. هكذا تأكد له أنهم أحقر سفلة في هذه الأرض والدليل على ذلك هو .. طفل في ثانية ثانوي عمري ما ركبت أتوبيس لوحدي.. كان نفسي وأنا في الإعدادية أروح ميدان

الألف مسكن لوحدي وأرجع البيت.. كل ما فعلته وأجدته كويس أوي إني كنت بروح المدرسة الثانوي لوحدى وأشوط الطوب في عرض الشارع.. وأكبر غلطة غلطها مدرس الدين وكل مدرسي الدين في الابتدائي والإعدادي والثانوية إنهم لم يدرسوا لنا أنه بين المسجد والحياة ظلمات.. أنه بين نزولي من بتيي لأصلي وأعود إلى بيتي بعد كل صلاة أنه بين هذا وذاك من يتبعونك من يرشدون عنك من يقولون أنك نبست في المستقبل القريب أو البعيد ستكون إرهابيا وسوف تفعل ما لا يُحمد عقباه.. يا سادة اعتقلت لأحاسب على شيء سوف اقترفه في المستقبل.. وإنني لم أفعل شيئا حتى الآن ولكنني سوف أفعل.. هكذا أدرك محمود بحسه في دقائق ودار بخلده الحزين كل هذا.. ودخل الضابط الغرفة وقال للعسكري في قرف :

- خلّصت .
- أيوه يا باشا كله تمام ..
- إعترف يا محمود أحسن لك ..

محمود : اعترف بإيه ..

الضابط: كنت بتمشي مع مين ؟

محمود : مع إيهاب..

الضابط: بتروحوا فين..

محمود : مدرسة عين شمس؟

الضابط : وكنتوا بتقابلوا مين ..

محمود: الناس اللي في الشارع ..

الضابط: تعرف الشيخ خالد ..

محمود: خالد مين ..

الضابط : ها تستهبل يابن الوسخة ..

محمود: ليه كده بتشتم أمي..

الضابط : وأبو أبوك ..

محمود: طيّب إنتو عايزين أقول إيه ..

الضابط : ها تقول يا كلب ..

.. جأر محمود بصوت هزّ الظلمات وكأن شيئا وقع فوق رأسه.. صعقته الكهرباء في ذكره وإصبعه..

الضابط : هاتقول ولاّ لأ..

محمود: طيب قوليّ أقول إيه..

الضباط : تعرف الشيخ خالد ..

محمود: أعرفه ..

الضابط : تعرفه منين وكان بيقولكم إيه ..

محمود : أعرفه من الجامع ..

الضابط : كان بيقول إيه..

محمود: قال الله وقال الرسول ..

الضابط : غير كده ..

محمود : ما قالش غير كده..

الضابط : لأ قال كلام كتير أوي ..

محمود : مش فاكر

الضابط: إفتكر يا كـ ..

محمود : اللىّ عايزين أقوله قوللـّي عليه ..

الضابط : ها عرّفك تقول إيه ..

وكأنه الموت يصعق الطفل واشتغلت الكهرباء وكاد الطفل يُصعق عندما لعب الضابط في الفولت.. وجأر وزعق وانهـار وسابت أعضاؤه وتأكد أنه بعد هذه الصعقة ستكون صعقة الموت.. إذا لابد أن أقول .. ماذا تريدون أن أقـول لأقـول.. كما قال أعرف الشيخ خالد.. والله يا سادة لم أعرف شيخ خالد ولا شيخ بتاو في حياتي ولكن أعمل إيه.. كل حاجة إنتو عايزينها قولوها ليّ وأنا هاقولها وخلـّصوا أوراقكم وشغلك حسب الأصول وابعتونا.. شوف ها تبعتونـا فـين وبكفاية فضلكم عليّ إن أنتم أرحم من أي شيء.. كتـّر ألف خيركم رغم إن أنا عملت المصايب دي كلها وهاتسبوني أعيش.. أنتو أحسن ناس في الدنيا.. كفاية ها تخلـّوني أعيش تاني.. إعملوا

ما بدى لكم ودّوني طوكر بس خلــّوني أعيش.. طيب بلاش الكهرباء أحسن دي حاجة صعبة أوي.. ورغم أنني طفل صغير كما يقولون لي احتقرت هذا الضابط كما يحتقر أي إنسان أي أعمال بذيئة، ولكنني تحاملت على نفسي وقلت :

- إنت عاوز إيه يا بيه أنا هاعترف بكل حاجــة.. بـــس قوللــّي أقول إيه..

- إنتو كنتو بتقعدوا كل يوم بعد الفجر مع الشيخ خالد..

محمود: أيوه ..

الضابط : كان بيشتم في الحاكم ..

محمود: أيوه..

الضابط : وإيه كمان ..

محمود: كان بيقول إن محمود وإيهاب وأنتم كلكم اللـــّي ها تحرروا الوطن من الكفرة..

الضابط : أيوه كده.. هات من الآخر.. وقال إيه كمان..

محمود: هيّ دي أخطر حاجة قالها واحنا قلنا له.. صح بس هانحرر الوطن إزاي ..

الضابط : إزاي قول يا محمود ..

محمود: قال بالكفاح.. والنضال والسلاح..

الضابط : واتدربت على السلاح..

محمود: لأ بأى ملحقناش انتو مسكتونا قبل ما نعملها..

الضابط : يعني كنتوا ها تعملوا..

محمود: أكيد.. كنا هانعمل.. مش إنتو بتقولوا كده يبقـــه صح..

الضابط : وعلشان كده إحنا جبناكم هنا..

محمود: ليك حق يا بيه.. كل واحـــد منـنـــا لازم ياخـــد جزاؤه..

الضابط : إحنا صاحيين ليكم أوي.. إحنا بنمسك النـــاس قبل ما يعملوا..

محمود: ربنا يحميكوا يا بيه للوطن..

الضابط : قوم يا محمود.. قوّمه يا عسكري.. هات غيره..

* * * * *

٢

.. ومرت أيام أخرى شديدة البأس على فـــراق محمـــود وتركت السادة أقارب أمي يحاولون كما وعدوني لإخراج ابني من معتقله، لكن بمرور الأيام أيقنت أن المجتمع المدني المحترم ليس له كلمة ولا شأن في مجتمع ملأه العسكر بالظلمات وأنه كـــان يجب أن يكون لي قريب من هؤلاء الجلادين حتى يـــساعدني في الإفراج عن الطفل، وكنت حريصا على ألا يعلم أحد في البلدة من أهل أبي شيئا عن ما حدث لابني لأنهم أناس طيبون ولـــن يفعل أحد منهم أدنى شيء من أجل ابني لأنهم بعيدين تماما عن المجتمع المدني الفاعل فهم المجتمع المدني القابع في قريته والفعـــل الوحيد الممكن الحصول عليه منهم هو التعاطف وبعضهم قـــد يشمت.. هم أهل قرية مجتمع مدني غلبان لا يعرف للأحـــداث أية أبعاد، وأبلغت كل إخوتي برأيي وكانوا حريصين معي على الكتمان.. والفاعل في أخوتي والذي بذل مجهودا كبيرا من أجل ابني هو أخي محمد سامي الذي يعمل مقاولا وكان قلبه يبكـــي معي لحظة بعد أخرى وقام باتصالات كثيرة جـــدا لكنـــها لم تجدي.. وكان لي أخ محامي قام باتصالاته لكنها كلها بـــاءت بالفشل وكان أخي أحمد المحامي له دور كبير فيما بعد في عمل التظلمات وقرارات الإفراج التي حصل عليها ابني واحتفظ بكل

أوراقه في ملف عنده وكان يجري مع ابني في كل مكان يذهب إليه بصفته محاميه..

.. وكنت أحب سكان شبرا مصر خاصة أهل ميدان الخلفاوي ولما كنت أشعر أنني بحاجة إلى أمي وحنانها أذهب إلى شبرا وحدي أزور خالتي وأختي وإخوتي لأنعم بالدعاء والبكاء.. وفي يوم هاتفني أخي محمد سامي قائلا :

- انت عارف عديلي لطيف ..

- أيوه عارفه..

- على العموم لطيف كريم أجرى بعض الاتصالات وهو يعرف عميد في أمن الدولة..

- وبعدين إيه اللّيّ حصل..

- لطيف حكى له ما حدث لابنك ووعده بأنه يفعل ما يستطيع..

- كويس والله .. دي أول حاجة من جوّه..

- طيّب لطيف عايزك تيجي شبرا النهاردة عندي وهوَ جاي بالليل علشان هاتكلّم العميد واحنا قاعدين مع بعض.

- والله دا كويس.. آجي كام ..

- تعال إتغدّي معانا لغاية ما يجي..

.. ولم أكن في يوم ضعيفا كما أنا الآن خاصة بعد أن وجدت أن المجتمع المدني منفصل تماما عما يحدث في البلد وهو المجتمع المدني الفاعل الذي يجب أن يكون له دور مؤثر في حياة البلاد، وأن هناك أياد أخرى تفعل ما تريده نتيجة سياسة داخلية متفق علي تنفيذها لإحكام قبضتهم على البلاد تحت أي مسمّي أو سياسة خارجية تملي عليهم لنيل الرضاء الخارجي، وأن المجتمع المدني الفاعل أو بمعنى أدق الواعي في البلاد ليس له أي دور سوى تنفيذ ما يملي عليه من تعليمات وأوامر لدرجة أن أحكام القضاء يتم التدخل فيها، ومعنى هذا أن العدل يتم انتهاكه في أي وقت.. وعليه فالعدل قد ذهب .. أما المجتمع المدني الغلبان فهو أهل القرى جميعهم وكل سكان العشوائيات في المدن وهم جميعا بعيدين عن أي وعي وإذا كان لأحد منهم بعض الوعي فهو وعي مستهلك ضعيف ومريض بقدر معاناتهم اليومية من أجل الحصول على الطعام والشراب.. إن ما حدث لابني هو الذي جعلني أصل إلى هذه الحقائق وأن أرى بلادي ومجتمعي بعين فاحصة وكاشفة.. وفي الموعد المحدد للذهاب إلى شبرا مصر الخلفاوي حيث يسكن أهلي جميعا وصلت إلى بيت أخي محمد سامي وتناولت الغداء مع أسرته بعدها بقليل وصلنا لطيف وزوجته.. لطيف كريم يعمل في إعلانات الأهرام منذ ربع قرن وبحكم عمله له اتصالات كثيرة وهو في بلدتنا حيث أهله عائلة سلامة الذين يقطنون جنوب القرية.. وكان لطيف له روح وأسلوب تختلف عن كثيرين في العمل في الإعلانات

أضفى عليه كثيرا من الذوق والكياسة إذا تعامل أو تحدث مع أي أحد.. وفي هذه الليلة توصلت إلى كثير من أحوال ابني خلف الأسوار.. بدأ لطيف كريم حديثه قائلا :

- شوف يا أستاذ صبري خلّينا عمليين.. إنت عارف محمود فين دلوقتي..

- محمود قعد يومين في السلام بعدها رحلوه إلى لاظوغلي..

- طيب ها نشوف الجديد دلوقتي..

دق لطيف رقم العميد .. بأمن الدولة ولّما جاءنا صوته :

- أيوه ..

- أهلا يا باشا أنا لطيف كريم..

- أهلا يا أستاذ لطيف..

- يا سيادة العميد ممكن أكلّمك دلوقتي..

- أوي اتفضل ..

- بخصوص محمود.. إنت عارف يا باشا زي ما قلت لك دا عيّل وما عملش حاجة وده يهمنا جدا..

- شوف يا لطيف.. أنا كان رأيي إن الولد ما عملش حاجة وكل العيال اللّي معاه.. لكن الموضوع جاي بملفات معمول فيها شغل.. وكان رأيي إن الولد يخرج لأنه ما عملش حاجة.. وسكت..

لطيف : وبعدين يا باشا ..

- لكن مش رأيي لوحدي.. كان رأي ناس تانية إنهم يترحلوا إلى طره..

لطيف: يا نهار إسود.. طره..دي طره دي معناها إيها.. هوّ الولد عمل حاجة..

- ثق تماما أنا عارف إن الولد ما عملش حاجة.. أنا شفته لّما كلمتني .. دا طفل..

- والعمل دلوقتي يا باشا..

- الموضوع مش بتاعي.. فيه ناس تانية معايا رأيهم إن العيال دي عملت وعلشان كده راحوا طره..

- التهمة إيه يا باشا..

العميد: محاولة الإنتماء إلى الجماعات الإسلامية.

- يا نهار إسود كده على طول..

- معلش ..

- طيب عايزين نزوره.. نعمل أي حاجة ليه..

- فوت عليّ في المكتب..

- إمتى يا باشا..

- تعال بالليل أحسن..

- بكرة يا باشا..

- خلاص ..

إنتهى الحديث الحزين والذي كسى ظلالا سوداء فوق رأس كل الموجودين خاصة بعد أن ذهبت زوجة أخي وزوجة لطيف في بكاء شديدين وهم يسمعون الحوار قاس اللهجة في مـــرارة بالغة خاصة بعد أن سمع الجميع ترحيله إلى طـــره.. الموضـــوع خطير ياولاد وقضية ومحاولة الإنتماء إلى الجماعات الإسلامية.. يا لهوي يا خرابي.. كل ده يا محمود.. يا حسرة على العبـــاد.. عوضي على الله.. يعوّض عليّ ربنا.. يعوّض عليّ ربنا.. وراح الجميع يقول .. عوضنا عند الله.. وحسبنا الله ونعم الوكيل..

* * * * *

نزل صبرى من بيت أخيه إلى الشارع وكان يشعر بأنه قد يضل الطريق إلى بيته، كان الحزن المملوء بالغضب المكتوم قـــد أصابه بذهول ولم يكن يستطيع أن ينطق بكلمة وكأن غـــُصّة

قد شقّت بطنه وصعدت إلى حلقه في مرارة بالغة.. لكن كلمات أخيه محمد سامي كانت شديدة الأثر وهو يصافحه مودّعا.. يا صبرى إنت أبو الصبر والقوة.. احتسب عند الله.. وعمر ربنا ماهينسى إبنك واللّي معاه.. خللّي بالك ربنا يمهل ولا يهمل.. .. وظل في شروده المهين وكأنه بدأ السفر ومعه أولاده إلى زمن حقير لا يعرف أحد له آخر.. وكانت سنوات الكلاب قد بدأت منذ وقت طويل ولكن صبرى لم يكن يشعر بها من قبل.. وكان كل إنسان يعيش حياة الكلاب عندما تدخل المصيبة إلى بيته وكأنهم أقسموا أن يمر كأس المرارة والذل على كل مترل، ومضى قرابة نصف ساعة وابن أخيه أحمد الذي يوصّله بعربة البيجو صامت لا يتكلم يحترم شرود عمه لكنه عند ميدان الحلمية مال برأسه نحو عمه وقال بصوت مبحوح :

- ما قدرش أقول ما تزعلش يا عمي.. لكن محمود له رب مش ها يسيبه.. والأمل لازم يبقه عندك انت يا عمي علشان إنت اللّي ها تطلّع محمود وتراعي البيت كله.

- طيب يا أحمد إن شاء الله.. بس أنا تعبت أوي لّما إبني يترحّل لطره.. صدمة كبيرة أوي..

- يا حسرة عليهم.. يا ميت حسرة على خيبتهم..

.. ومرت العربة بسرعة وسط أرتال المركبات في جسر السويس حتى وصلنا إلى فندق السلام ونزلت إلى أرض الشارع بعد أن صافحت ابن أخي، وأيقنت أنني ذاهب إلى بيتي لأجد أهله ثلاثة.. وتلهفوا جميعا لسماعي.. وعندما ذكرت ترحيل محمود إلى طره قامت أمه تهرول في كل أرجاء الشقة وتضرب صدرها بكلتا يديها في عنف حتى مزّقت ما يستر صدرها وتقول :

- يا ويلك يا خراب بيتك.. يا حسرتك من دون النسوان يا سميرة..

- طره يا محمود.. فين طره دي يا لهوي.. هات لي إبني .. هات لي ابني لو كنت راجل.. هات لي ابني أو طلّقني.. طلّقني لو كنت راجل..

- عيب الكلام ده.. فين الإيمان بقه.. هوّ طلاقك ها يجيب إبنك..

- أيوه.. عشان عايزة أطفش من هنا.

- إعقلي واهدي.. شوية صبر..

- منين أهدى ..عقلي خلاص راح.. إعمل أي حاجة الله ما يسيئك..

وانحنت تحت قدميه تولول وهي تنـــدفع لتقبيـــل قـــدمي زوجها.. وأمسك بها وقال في حنو ..

- إهدي .. الندب مش هايجيب ابنك.. وطلاقك مش ها يفيد ما تخرّفيش.. ما تخربيش البيت ما هو خـــراب .. بزيـادة خراب..

.. كان وجه أم محمود نضيرا جميلا.. عـــاد الآن وجههـــا تكسوه الكآبة ونظرات عينيها الساحرة أصبحت نظرات حزينة ساهمة تائهة تبحلق في المدى البعيد ولا ترى شيئا..

.. ولما كنت أجلس على كنبة الصالون في قبالتها كان محمد الصغير يلوذ بي ويكاد يلقي برأسه فوق صـــدري.. وبعـــد أن سكتت أمه قليلا عن العويل.. أمسكني من ذراعـــي في رقـــة وقال :

- محمود هايجي يا بابا مش كده..

- طبعا هاييجي .. طبعا ..

- أنا كتبت في ورق محمود هاييجي.. محمـــود هـــايجي .. وحطينا الورق تحت زجاج ترابيزة السفرة..

- برافوا عليك يا محمد.. المثل بيقول خدوا فـــالكم مـــن عيالكم..

- تعرف يا بابا لّما محمود مشي أنا حسيت إن رقبتي إتقطعت.. تعرف يا بابا هوّ أنا طول عمري عايش مبسوط وسعيد.. محمود كان بيلعب معايا وبيحبني وعلى فكرة همّ كان ممكن ياخدوني يا بابا.. وسكت..

- إزاي ..

- أنا صليت مع محمود في الجامع ثلاثة أيام.. كويس إني ما كملتش..

- برافو عليك كويس إنك مارحتش معاه على طول.. كانت بقت مصيبة.

- أنا عايز نمشي من هنا يا بابا نروح بلد تانية .. بس هات محمود الأول..

- لّما ييجي هانمشي..

- هوّ محمود عمل إيه..

- سياسة يا محمد..

- يعني إيه سياسة..

- السياسة يعني إضرب الشعب خلّيه يجري ويخاف علشان ناكل البطة براحتنا وما حدش يشوفنا.

- وهوّ العدل مش كل واحد من البلد ليه حتة..

- لازم يشبعوا الأول.. وإذا بقيت المصارين ياخدها الشعب وهوّ بيتنكلّ بيه.. أو بيتخانقوا عليها..

- وبيضربونا ليه وياخدوا الأطفال ليه.. ياخدوا كل حاجة بس ما ياخدوش ولادنا..

- السفالة محور من محاور السياسة والسياسة في دول الشرق أساسها التنكيل بالشعوب وإذا ما عملوش كده ما يبقوش حكام.. لأن الناس دي أصلا جت بالتزوير. فهي تحكم بغير رضا شعوبها وعلشان كده همّ قاعدين على كراسيهم بكربجة الناس والتنكيل بهم واعتقالهم.. المشكلة أساسها يا بني إن ما فيش عدل ولا حرية وفيه سادة وفيه عبيد والمصيبة إن سادة هذا الزمان هم حثالة الوطن..

- ليه ربنا بيسيب الناس دي تظلم بالشكل ده

- دا موضوع كبير أوي.. هدّي نفسك يا محمد

- أنا مصدوم يا بابا.. همّ الناس دي اللى خدوا أخويا من مصر..

- أيوه ..

- وإحنا من مصر..

- أيوه..

- طيّب همّ دخلوا علينا آخر الليل ليه.. وليه ماسكين كل البنادق والرشاشات دي.. تصدّق بالله يا بابا أنا قلـت أبويـا جاسوس ولاّ مجرم وجايين ياخدوه.. وبعدين لّما لقيت الحملـة دي كلها بتاخد أخويا اللـّي لسه بيشترى مصاصة لحد الآن.. أنا صعقت يا بابا ..أد كده محمود خطير.. هوّ كـان بيعمـل حاجة من ورانا..

- آه يا محمد بتقلـّب مواجعي.. إنت عارف الرائـد أو المقدم ده عمره كام.. بالكتير سبعة وثلاثين سنة.. أنا كنـت بحارب في الجهبة منتصف حرب الاستتراف وكنـا بنعـيش في النار علشان البلد كلها وهوّ كان عمره ست سنين.. كان لسه في سنة أولى إبتدائي.. وكنت أنا وغيري بندافع عنه وعن كـل الأطفال اللـّي زيه.. بندافع عن كل البلد.. عيّل زي ده قالوا له روح أقبض على الأطفال اللي أبهـاقم شـافوا الويـل في الحرب.. هيّ دي أوسمة ولاّ دي مكافآت للناس اللّي قـدّمت كل شيء للبلد في عز أزمتها.. هيّ البلد ماشية إزاي - هـمّ مش عارفين بيعملوا إيه..

محمد:وعلشان كده بقول هيّ فين مصر.. وهل الحقيقـة إن دي مصر دلوقتي.. يعني مصر دي بتاعة مين وليه مصر سـايبة ولادها بيحرقوها.. وليه مصر ساكتة على إعتقـال الأطفـال الأبرياء.. وبرضه أقولك يا بابا دوّر كويس.. أكيد إحنا مـش

من مصر يا بابا تعال ندوّر عليها علشان نشكي ليهـا اللـي حصل.. تعال نروح لمصر علشان تجيب لي أخويا..

- يا بني هدّي ..

- يا بابا إذا كانت السماء بتحمي مصر زي ما بيقولـوا.. ليه الحماية ما بتحميش كل المصريين.. أنا شايف إن مصر لناس وناس لأ.. ليه..

- المفروض إن السما بتحمي وبتظل كل الناس.

- الكلام دا كله غلط.. مكتـوب في الكتـب وبيقولـه المدرسين في المدارس.. هوّ كلام وشـعارات وزيـف نـاس بتضحك على ناس..على فكرة أنا بقيت أحتقر كل المدرسـين اللـّي بيقولوا الكلام ده.. بعدما خدوا أخويا عرفت أن البلـد كلها زيف في زيف..

- الموضوع كبير أوي يا بني وأنت ليك حق.. بس الكلام دا كبير عرفته إزاي..

- عرفته لّما إتصدمت في أخويا الغلبان.. صدمت لّما دخلوا علينا في عزل الليل بالبنادق والرشاشات.. يا سلام على قوتهم يا حسرتي عليهم لّما وطن يعتدي على وطن.. لّما الضابط يعمل راجل وبطل على الناس الآمنين في بيوتهم وياخد ابنـهم مـن وسطهم بهذا الشكل الحقير.. علشان معاه رشاش.. يعني إنتو ها

تدخلوا الرعب والفزع بيت ورا بيت مش بكفاية البطالة والفقر دخل كل بيت.. عايزين تدخلوا إيه تاني الحمد لله المهانة والذل والخنوع دخلوا دلوقتي كل بيت.. عايزين بعد كده تعملوا إيه..

- ياه.. بقه كده عرفت السياسية وانت سنك إتناشر سنة..

- بص يا بابا لو كنت راجل صحيح هات لي أخويا.. هوّ دا الحق.. موت ورا حقك يابابا..

- الحق يا بني يبقي فيه احترام لحرمة البيوت يبقي فيه أمان وكرامة..الحق ما فيش بريء يُعتقل.. الحق يبقه فيه أمان لبكرة.. الحق الناس في بلدها يبقي ليها عزة وكرامة بصحيح.. الحق حاجات كتير ما فيش منها حاجة واحدة دلوقتي في بلدنا..

- الحق يا بابا إن كل واحد يتمسّك بحقه.. إذا كنت يا بابا راجل من ضهر راجل وبتقول حاربت وعملت.. خد كله ده وروح هات لي أخويا بأي شكل.. وإذا ما قدرتش خدني أنا أجيب أخويا بس قوللّي أروح لمين.

* * * * *

.. لم أقل لابني محمد صاحب الإثني عشر عاما أنه تجاوز معي.. كان الصبي على حق وأنه بالفعل لم يعد في البلد راجل

من ضهر راجل.. ولو كنت أنا راجل صحيح طويل وعــريض ما كنوش خدوا ابني من حضني حتى ولو دفعت التمن حياتي.. لكن من زمان ماحناش من البلد.. بلد عايش فيها نــاس بــلا حقوق بلا كرامة يبقى دي مش بلدي.. وراح محمــد ينفعــل أكثر وقال وهو ينتقل إلى جوار أمه ويصبح في مواجهتي :

- إنت يا بابا نزلت من نظرى وعرفت إنك ضــعيف أوي والناس بياخدوا أخويا وانت لا شيء.. ولم تحاول أن تمنعهم.. لا حول لك ولا قوة.. ما كنتش أعرف إنك غلبان أوي كدة.. همّ كل الآباء في مصر كده.

- تقريبا يا بني كل الناس بقت كده.. هدّي مع بابــا يــا حبيبي.. شوية شوية هانعالج الأمور بالحكمة.

- أفهم من كده إنهم بكرة ياخدوا أمي وأختي وتقوللـــي حكمة..

- هيّ المشكلة الأمور دخلت في بعضها.. تعرف إني لــو عملت حركة عنف معاهم هايقولوا عليّ إرهابي.

- خلـّيهم يقولوا المهم تعمل الصح..

- الصح دا كان المفروض اتعمل من زمان..

- هوّ مين اللــّي وصّلنا للخنوع والذل ده..

- من سنة ١٩٥٢ وحتى الأن العسكر ربّوا فينـــا الطاعـــة العمياء.. تمام يا فندم.. للأمام هُب شمال.. معتـــدال مـــارش.. إرفع رأسك يا عسكري..

- يعني إيه تمام يا فندم..

- يعني كل شيء ميّه ميّة والحقيقة إن كل شـــيء تحـــت الصفر.. للأمام هب شمال يعني إحنا بنتقدم للأمـــام والحقيقـــة يمكن في الماشية بس وفي الشخطة بس والزعيق بس والهمبكـــة بس.. يعني خدوا الشكل والبكش وكل واحد بيضحك علـــى التاني وسابوا المضمون والجوهر.. وارفع رأسك يا عسكري.. لأن العسكري موطـــي راسه مين اللـــي خلاه وطيّ راســـه.. هايرفعها لحظة عشان الأوامر وبعدين ها يوطيّ تاني على طول كالعادة.. والمصيبة أنا أعرف لواء شرطة بيقول فيـــه مقولـــة معروفة بتقول..إضرب العسكري يخاف الشعب.. وهـــيّ دي أفكار الباشوات اللـــي بياخدوا الأبرياء من بيوتهم.

- همّ دول من مصر..

- أيوه ..

- وليه بيحكموا الناس بالشكل ده..

- علشان الناس كلها زي بابا.. زي ما شفت بابا كـــده مسلوب الإرادة جبان ذليل ..

.. وكم كنت أتمنى ألا تحدث هذه المواجهة السوداء مع صبي صغير حتى لا يفقد الأمل.. وشعرت بأنني أسأت التعامل مع إبني وأنقذني من الصمت الحزين رنين الهاتف.. فهرول إليه محمد الذي قال:

- أيوه بابا موجود..

- آلو

- أنا بنت خالك عبدالعزيز..

- أهلا إزّيك ..

- أنا كلّمت جوزي وانت عارف إنه مأمور قسم وبرتبة عميد..

- أيوه عارف.. قالك إيه..

- قال لي إنه مالوش حد في أمن الدولة..

- ياه ماشي همّ كلهم بيقولوا كده علشان ما يجيبوش أي ضرر ليهم وكل واحد عايز ياخد ترقيته..

- والله يا صبرى للأسف إنت جبت المفيد.. كل واحد ومصلحته.. ويمكن أوي يكون خايف لو سأل أو جاب سيرة إبنك إنه قريبنا يبقه إحنا من أسرة إرهابيين ويحطوّا عليه علامة إستفهام ويكون بكده ورّط نفسه وعمره ما يترقيّ.. ويمكن

يطلّعوه معاش من دلوقتي.. هوّ دا اللّي ما شي وكل واحد بيشوفها ماشية إزاي وبيمشي مع الموجة علشان مصلحته.. إحنا في زمن كلّنا اتفرّقنا فيه ومش ها يلمنا غير الموت..

- على العموم كتّر خيرك.. طيب حاولى من ناحيتك في الجانب المدني بصفتك أستاذه في كلية الهندسة يمكن تلاقي حد زميلك أو زميلتك تعرف حد ومن تحت لتحت يمكن المدني يخدمنا أكثر..

- شوف يا صبرى من غير ما تقول مش هاخلّي حد.. حاضر علشان خاطرك وخاطر عمتي حميدة..

- عمتك حميدة راحت وراح الستر.. ومن ساعتها الغم نازل علينا..

- معلهش أرجوك ما تخلّينيش أعيّط بكفاية ..

وأجهشت بالبكاء وبكيت معها وسكت الكلام..

* * * * *

ودق الهاتف مرّة أخرى.. وكانت شاهيناز ابنة خالي شبايك الطبيبة والتي بدأت حديثها معي :

- معلهش يا صبرى أصبر.. على فكرة مش مخلّينين حد.. فيه هوجة في البلد.. المصيدة في الجامع دلوقتي اللّي قايم

عليهم إن يلموا اللــّي بيروحوا الجوامع.. تصوّر ابــني كــان مواظب في المسجد أبوه منعه من مدة أنه يصلــّي في الجامع.. الجمعة بس ويبقه جنب أبوه.. أبوه.. لواء عمل كده..

- طيب ما قلتليش ليه علشان كنت أحافظ على ابني..

- يا صبرى الدنيا خدت الناس والناس كلها كل واحد بقه مع نفسه.. وإيش عرفني إن ابنك بيروح الجامع

- يا آلله

- ما فيش غير الله..

- طيب اللواء شادي قال لك إيه..

- الحيا في الوجوه.. الواحد منهم لما بيطلــع مــا حــدش بيخدمه هيّ دي أخلاقهم عالم مصالح متبادلة.. معلــهش يــا صبرى حتى لمّا كان في الخدمة جوزي كان سلبي جدا.. طــول عمره تربية أمه مالوش دعوة بحد وعمره ما رفع راسه وخــدم حد..

- يعوّض ربنا.. عوضي على الله..

- على العموم يا صبرى فيه واحد قريب أمي مــن عيلــة مدكور برتبة لواء ولسه في الخدمة هاشوفه وأرد عليك.

- وحياتك على أد ما تقدري..

- وحياتك ورحمة عمتي حميدة.. عمرى ما انسي طيبتـــها وحبها لينا راح من بعدها الود والحب والفطير المشلتت والبط.. الست دي كانت بستات تلوانة كلهم..

- ربنا يخليك ياختي ..

- معاك السلام يا صبري وعمر ربنا ما هيسيب ابنك.. ربنا اللى ها يدافع عنه منهم لله.

* * * * *

وكان لي قريب لأمي يعمل تاجرا في إحدى قري الباجور أجرى اتصالات كثيرة حتى وصل إلى عم فتوة الحزب الـــوطني الذي يخدم الناس مقابل حقائب.. وكأنه كان يوم التليفونـــات والذي بادرني قائلا :

- شوف أنا رحت لعم الديناصور وحكيت لـــه حكايـــة إبنك..

- قال لك إيه ..

- شوف قاللي إن الباشا بيخدم في كل حاجة بـــس أمـــن الدولة لأ .. هو راجل شريف الإرهابيين لأ..

- قلت له إن إبني طفل ومش إرهابي..

- قال لي إنهم طالما اعتقلوه يبقه الولد إرهابي..

- قلت له إننا مستعدين ندفع..

- قال هو بياخد حقائب من الناس مقابل تقضية مصالح لأن ده حلال.. لكن لا يقبل حقيبة الإرهابيين لأنها حرام وهو حريص على رضاء الله..

- يا حسرتي والله.. لآ والله دا راجل صاحب قيم ومبادىء صحيح.. ربنا يخليه يخدم مصالح أهل بلده وهوّ فعلا راجل صح.. إحنا إرهابيين يخدمنا إزاي..

* * * * *

وتملكني شعور داخلي باليأس من الناس وأن كل واحد من حولي يحاول تخليص نفسه من حكاية إبني.. وهكذا بدأ يتساقط أقارب أمي من مستشار إلى أستاذ جامعي إلى كل مناصب البلد الرفيعة وتأكدت من أنهم المجتمع المدني السلبي الذي لا يعرف إلا مصلحته أوهم بعيدين كل البعد عن المساعدة في مثل هذه الأمور أو أن كل واحد منهم يريد أن يحافظ على مسيرته في الحياة دون أن يمسّه أحد بسوء.. ومرّة أخرى حاولت التفتيش في أن أجد قريبا لي من ناحية والدي فلم أجد.. كان أهل أبي من الناس الطيبين في القرية أكبر شيء يقدموه لك هو واجب المواساة والعزاء عند الموت، وكان أعظم الأعمال التي قدّمها جدي لأهل عائلته أنه علّمهم كيف يعيشون شرفاء وأن

يكون لهم بيوت.. إشترى من كل واحد منهم أرضـــه وحـــرّم عليه أن يكون عاطلا أو لصًّا.. كان معظمهم أشقياء يقومـــون بأعمال الفتونة والبلطجة حتى أواخر القرن التاسع عشر.. ومنذ بداية القرن العشرين أصلح جدي من أبي أهل عائلته فبعـــد أن اشترى من كل واحد منهم قطعة أرضه الصغيرة أوجـــد لهـــم أعمالا زراعية في أرضه وزوجهم وفتح لهم بيوتهم وذلك كلـــه من عرق جبينهم ولكن بحكمته وإرادته ونصحه اســـتطاع أن يقضي على كل لص وشقي في هذه العائلة.. استطاع أن يجعل منهم جميعا رجالا صالحين يعملون ويعيشون من كد عملهم.. إلا واحدا لم يستطع إصلاحه وهو أبو لبـــدة زرقـــا وطالونـــه غبراء.. كان متمردا سافلا في سلوكه ونفسيته حتى أنني أذكـــر وأنا في تلك القرية كرهت رجلا وامرأة.. الرجل وهو أبو لبدة زرقا.. والمرأة أم الرزق الحيتة.. أم الرزق الحيتة كانت خالة أبي متزوجة من عبدالرازق الحيتة والذي مات غريقا في ترعة البلـــد الكبيرة عند حنفية خليفة الأكرت.. كانت امرأة كريهة وكنت أكرهها كما أكره العمى خاصة أنها كانت تكـــره أمـــي.. لا أطيل عليكم يا سادتي.. المهم في كامل استغراقي في البحث عن واحد من أهل أبي ليساعدنا في محنة ولدي لم أجـــد إلا تلـــك الذكريات القديمة التي لا تقدّم ولا تؤخر إلا أن هـــذه العائلـــة أنجبت على مدار قرن من الزمان رجلا واحـــدا كانـــت كـــل

الرجوله والشجاعة فيه وهو عمي إبراهيم عوض.. هـــذا هـــو الرجل الوحيد الذي كان سيضحي بحياته من أجل ابني لو كان موجودا معي في الليلة الغبراء التي اعتقلوا فيها ابني.. كان هـــذا الرجل سيضحي بعمره من أجل ألا يأخذوا الصبي من حـــضن أبيه.. وكان مجرد استرجاع هذه الـــذكريات والتـــصورات في محاولات بيني وبين نفسي للوصول إلى خرم إبرة اســـتطيع أن أعيد ولدي إلى بيته.. كان ذلك الرجوع إلى الماضي في قـــريتي كفيل بأن استجمع قواي النفسية والمعنوية لمواصلة الحياة بعـــد مأساة ولدي.. وأن أتأكد من أنه لا أحد يأتيني بولـــدي إلا الله وحده وأنني بعد الله الأول والآخر ربما أستطيع بمجهـــوداتي إذا أراد الله أن أعود بطفلي إلى حضني.. ورحت في بكاء شـــديد وكان ذلك في الساعة التي تقترب مـــن آذان الفجـــر.. ولمّـــا ارتفعت المآذن بنداء الله أكبر صليت ونزلت إلى الشارع أســـير وحيدا بغير قصد حتى بلغت ميدان الحجاز في مصر الجديـــدة.. وفي هذا الميدان جلست على دكة محطة المترو المتجه إلى مساكن شيراتون.. تأملت السماء الواسعة بعيون باكية وحملقت في كل المركبات التي تسير على الأرض حولي.. ولم أجد بعـــد طـــول تأملي شيئا قد يوصلني إلى أي شيء حقيقي في هذه المدينة الذي تاه أهلها واحدا بعد الآخر والتائهون القادمون أهل هذه البلدة جميعا لن تستطيع أي مدينة احتوائهم.

.. وكنت أتغيب عن عملي كثيرا في المرحلة الأولى لاعتقال محمود، وانتويت بعد تفكير طويل أن أفاتح الخواجة صاحب الشركات التي أعمل فيها المدير المالي حتى يراعي ظروف في هذه الأيام ولا يعتبر ذلك تقصيرا مني.. وفي مساء أحد الأيام ذهبت إلى شارع الموسكي حيث يقع مكتبه وسط محلاته ومخازنه.. واستقبلني مندهشًا لأن مسائل العمل كلها يتم مناقشتها في الهاتف وبادرني بعد أن جلست أمام مكتبه :

- خير يا أستاذ صبري.. فيه حاجة..

- لا أبدا هوّ أنا حصلت عندي مصيبة.

- يا ستار.. .. ونادي السكرتيرة لتقفل باب مكتبه ونبّه عليها بعدم دخول أحد أو استقبال أي تليفون يخصّه..

.. وحكيت له باستفاضة والدموع تكاد تنفجر من عيني كل ما حدث ليلة اعتقال إبني وما بعدها.. وراح يضرب كفًا بالأخرى :

- إيه ده بس دا طفل.. إرهابي إيه.. دا حتّة لو عمل حاجة ما يعتقلوهش.. شوف يا أستاذ صبرى أنا تحت أمرك عايز فلوس.. أرجوك والله الخزنة تحت أمرك إذا كانت الفلوس تتطلّع ابنك أقسم بعيسى والكنيسة أنا مستعد من جنيه لميت ألف..

- ياه أشكرك أشكرك.. إنت عارف شعورك دا عندي بالدنيا كلها.. أنا معايا فلوس ولو احتجت هاجيلك..

- صحيح يا ريت أعمل حاجة معاك ..

- هوّ أنا يهمني إنك تعرف الظروف اللـّي بامر بيها وأي وقت أتأخره الصبح هاكمّله بالليل..

- شوف يا أستاذ صبرى بالأخلاق والإنسانية والرجولـة بقولـّك ولا يهمّك.. بس أنا عايز حاجة واحدة إن الشغل ما يتعطلش وإن الإدارة المالية تمشي وبس والتقارير المالية الحلوة ما تتقطعش لأن أنا بقيت أعرف كل حاجة عن شركتي.. شوف أنا ليّ النظام المحاسبي يمشي ويتنفـّذ وما ليش دعوة حتيجـي إمتي المهم حلاوة الشغل تستمر والنظام المالي يتنفـّذ وأنـت صاحب النظام واعتبر نفسك صاحب مصلحة في أن الشركات دي تمشي وتنجح..

- ياه دا كده كتير أوي عليّ.. كل ده هايكون على مـا يرام وسأبذل قصارى جهدي يوميا علشان النظام المالي يبقـه على طول ميّة ميّة..

- طيّب إنت ليك عندي حساب تصميم النظام المحاسبي..

- بعد الكلام ده مافيش حساب بينـّا بقى..

- لأ معلهش دا تعبك ولازم تاخـد حقـّك دلـوقتي بالذات..

- بلاش يا خواجة إحنا بقينا إخوات..

- علشان كده .. إن كنتُ أحوات إتحاسبو ..

.. سكت صبرى قليلا وشعر بـــبعض الخجـــل .. فقـــال الخواجة :

- لو عايز تريّحني قول..

- أنا باعمل النظام لأي شركة بعشرة.. بس عندك أنا مش عايز حاجة بعد روحك الجميلة دي..

- النهاردة الفلوس راحت البيت.. بكرة الصبح هابعـــت ليك العشرة وفوقهم بوسة..

- دا كتير والله.

- دا شغل .. كفاية دلوقتي ما حدّش بيسرقني..

وصافحني في حرارة وانصرفت مسرورًا .. وفي طرقة الممـــر المؤدي إلى الباب الخارجي قابلتني السكرتيرة سلوى بوجههـــا الجميل وشعرها الذهبي وأكتافها البالغة النعومة.. والتي هللـــت لوجودي في المكتب وبادلتها نفس المشاعر حتى أني قبّلت يدها ممتنا لمشاعرها الرقيقة وزاد ذلك من سروري وأزال كثيرا مـــن أحزاني على ولدي..

.. وخرجت مرّة أخرى إلى شوارع الموســـكي الـــضيقة وقطعتها بصعوبة حتى وصلت إلى شارع بورســـعيد لاســـتقل

تاكسيا إلى شارع متحف المطرية.. وهناك قضيت بقية الليل في عمل متواصل خاصة مع ترتيب الأعمال وتعريف كل محاسب بتقاريره وكيف يعدّها ويضعها على مكتبي حتى يتم عمل التقارير بشكل يومي دون تعطيل وارسالها لصاحب الشركات

* * * * *

.. حكيت لزوجتي كيف كانت روح صاحب الشركات نحوى فقالت بصوت محزون وكأن ذلك تاريخ الوطن منذ أن وُلدت مصر :

- إن ذلك قليل مما يحدث في علاقات شديدة وقوية داخل هذا المجتمع، إن أمي كان لها طيلة عمرها صديقة وحيدة اسمها مدام تريزا لم تمر هذه السيدة في يوم بأزمة إلا ولجأت لأمي، وكذلك أمي إن أول من تسأله العون هذه السيدة إذا وقعت أمي في أي شدة، وهكذا طول العمر كانت أقوى العلاقات الاجتماعية بين امرأتين تدور خلف مسجد سيدنا الحسين في الجمالية بين هذه السيدة وأمي.. كانت متزوجة من رجل يملك محلا لتصليح الأحذية والحقائب.. كان لهما بنتا واحدة تزوجها شاب مسلم.

.. الوطن واحد وكلنا واحد عدا الغباء والجهل ..

- ليس غريبا على هؤلاء أن يختلقوا الأحداث ليفرّقوا الناس ويجعلوهم فُرادى، وطبيعي أن يعتقل هؤلاء الأطفال..

- لو كنت أعرف أنني سألد ابني كي يعتقلوه مـــا كـنـت تزوجت أبدا.. إنني لن أحبل مرّة أخرى..

- لقد أصبح الناس جميعا يقعـدون في بيـوتهم ويندبون نكباتهم ويبكون ويقولون كلاما حكيما.. لقد تحـوّل النـاس جميعا إلى ندابين وباكين وهذا لن يؤدي إلى شيء.. إننا يجب أن نحطّم الأغلال والقيود..

- كيف ونحن نخاف الإعتقال.. نحن لا نملك إلا الكلام في زمن رديء يعيش الناس فيه مثل الكلاب.. يتركونا نتكلـّم كي نزداد ضعفًا ومن يتكلـّم لا يعمل..

- إنني أخاف عليك من أحزانك.. تتحدثين في كثير مـن المرارة وكأن كل الطرق في حياتنا قد سُكّرت..

.. وامتعضت ولم تتفوه بكلمة لكنه أخذ كف يدها وقبّله..

فقالت وهي تنزع يدها من يده :

- ليتك تتركني وحدي..

- لماذا لا تنامي معي الليلة ربما يأتي الله بالفرج..

فقالت في كثير من العتابة :

- أعرف أي فرج تريد..

- ليس من الذنب أن نروّح قليلا عن أنفسنا..

- للأسف أنت رجل قليل الإحساس..

- ليس في هذا خطيئة ولا جرم.. إنني زوجك وفي حاجة إليك.. إرحميني قليلا..

- الرحمة ليست عندي.. إنني بعد اليوم لن أعطيك شيئا وأغرب عن وجهي ..

- أنت للأسف امرأة ناقصة.. أنا فعلا سوف أغرب عن وجهك ولن ألمسك بعد اليوم حتى ولو عاد ابني.

- أتمنى.. أتمنى هذا.. اتركني ..

.. فوجئت بالصغير محمد يقف خلف الباب المغلق ويبدو أنه سمع كل شيء فقلت له في عصبية :

- عيب عليك أن تقف هنا..

- لا تؤاخذني يا أبي كنت أريد أن أسمع شيئا عن إسلام..

- وماذا سمعت..

- سمعت أن أمي حرّمت نفسها عليك..

- وما رأيك في المصائب التي تنزل فوق رأسي..

- أعرف ماذا تريد يا أبي.. إنك تريد أن تذيب شيئا مما أصابك..

- إن الحزن يا محمد يكاد يدّمر رأسي..

- أمي ليس عندها شيئا يذيبه.. لقد سألتها في يـوم لمـاذا تنامي في سرير محمود ولا تغادريه .. لماذا لا تنامي في سرير أبي كما كنت.. وسكت..

- ماذا قالت لك ..

- قالت لأنني لا أريد أن أرى سرير محمود خاليًا..

- وما رأيك فيما وصلت إليه أمك..

- شيء مألوف يا أبي أن تموت الأم من أجـل ولـدها.. ولكن..

- ولكن ماذا يا محمد..

- وصلت حالة أمي أنها تحسد الكـلاب والقطـط علـى حريتها.. إنها لن تعطيك شيئا وعليك أن تصبر..

.. وقبّلت محمد وأخذته إلى فراشه حتى ينام..

* * * * *

ومرّت أيام والحال هو الحال.. وفي يوم هـاتفتني الـسيدة قوت الرضوان حرم خالي ع المستشار وكان صوتا همسا كأنها تخاف أن يسمعها أحد:

- صبرى.. اسمع.. إنت عارف د ع الدين فودة

- أيوه .. ابن عم أمي ..

- تمام.. ليه صلة بمكتب حقوق الإنسان في مصر.. إنـت عارف ليه..

- ليه..

- كان ماسك في يوم سكرتير اللجنة المـصرية للقـانون الدولي.. روح له إحنا مش هانخس حاجة..

- أنا مستعد أروح آخر البلاد بس أوصل لحاجة..

- خد تليفونه وكلّمه هوّ ساكن في الدقي.. عرّفه إنـك ابن الحاجة حميدة فودة وخالك ها يكلّمه النـهاردة ويديـه فكره عن الموضوع.. يمكن يعمل حاجة..

.. وفي اليوم التالي ذهبت إلى د. ع الدين فودة وهو أسـتاذ الاقتصاد السياسي وسكرتير اللجنة المصرية للقـانون الـدولي سابقا.. استقبلني كما يستقبل الخال ابن اخته وحكيـت لـه بالتفصيل ما حدث وكان ردّه خانقـاً ومحبطـاً. حيث قـال في صوت مبحوح :

- هذا هو الخط الذي نسير عليه ولا فائدة من قانون دولي ولا حقوق الإنسان.. كل شيء يتم إنتهاكه في عـز النـهار وتقول حقوق الإنسان.. إنها لافتات وشـعارات جوفـاء ولا فائدة، إنهم يعملون ما يريدونه كأن كل شيء خططوه أو هـو

مخطـّط لهم وينفذونه بلا أي خجل فليس هنـاك شـعب ولا ناس ولا حقوق ولا كرامة، إنهم لا يعملون حسابا لأي أحد.. إنهم يضربون الناس بلا تمييز وبلا عقل.. لا يهمهم شيء لقـد استعْبدوا كل الشعب، وأصبحوا هم في ناحيـة والـشعب في ناحية..

.. وتكلم الرجل كثيرا عن القـانون والحقـوق والنـاس والاستبداد كأنه يلقي محاضرة حتى أنني مللْت حديثه المطوّل.. ولكنه اهتدي أخيرا إلى طلبي فسكت بعض الوقت وقال :

- المكتب في المنيل.. جنب كوبرى الروضة المتجه إلى الملك الصالح.. هناك الأستاذ فريد أبو .. .. عرّفه أنني خالك وعلى العموم دا كارت مني إديه له.. وكتب على ظهره هذا الرجل / صبرى درديز ابن أختي أرجو أن تبذل قـصارى جهـدك في مساعدته.. د. ع الدين فودة..

.. وانقضت لحظات فيها وضع صبرى الكـارت في جيبـه وشدّ على يد الدكتور مصافحا وشكره وانـصرف علـى أن يذهب إلى مكتب حقوق الإنسان في اليوم التالي لعلّ وعـسى يصل إلى شيء..

.. وكالعادة وصلت لبيتي وحكيت لهم ما حدث بيني وبين الدكتور وأنني ذاهب غدا إلى حقوق الإنـسان.. وكانـت أم محمود في غيبوبة مستمرة إذا تكلمت فبدموع تنـصب علـى وجنتيها وإذا استمعت إلى حديثي فبعيون زائغة شريدة..

.. ولا أعرف لماذا كنت أخرج من بيتي قبل طلوع الشمس، كنت أهوى المشي في الشوارع الخالية من الناس، وكان هناك هاتفًا يصاحبني كأنه ابني ويحدّثني ويمشي بجانبي طالما الشوارع خالية من المارة ، ولا أحد يعرف كم كنت أعتقد في أن حديثي مع محمود كان شافيًا لنفسي التعبة وأن الظلم الذي ألّم به لا يعرف مداه إلا الله وأن الله يرى هذا الأب الحائر والمكلوم على ولده الذي إنتزعوه من بين أحضانه في ليلة غبراء.. وأن الله يرى كل ما يفعله البشر من آثام، وأن قرية تلوانة تنام كأنه لم يحدث شيئا لحفيدها، وأن قرية شنشور هي الأخرى تنام رغم أن طفلا لها قد اعتقلوه، وكان صبري يعتقد أحيانا أنه يجب أن يعّم كل البلاد إذا نزل الظلم على بيت فإنه يجب أن تخرج مسيرة من القرية أو القريتين اللتان مسهما الظلم، أن تخرج مسيرة صامتة تحمل شكواها إلى المسئولين في المدينة عما وقع من ظلم قد مسّ طفلا صغيرا أو امرأة أو فتاة أو رجل.. وكان يتصور أنه في ظل تقدم الزمان بالبشرية أن يكون الناس قد وصلوا إلى قدر كبير من الوعي والشفافية .. ولكن هذا لم يحدث، إن الصورة التي عليها بشرية هذا الزمان صورة مزيفة للمدنية، والمدنية الحقيقية هي مساحة النور والوعي والإدراك بكل ما هو حق والدفاع عنه مهما كلّف من نفس أو نفيس، ولكن للأسف هذه الصورة والمضمون لما يجب أن

تكون عليه البشرية من وعي غير موجودة على الإطلاق، لكل جماعات الناس في شارع ما أو مدينة أو قرية تحكمها المادة المجرّدة من كل قيمة وأن العدل بين الناس أصبح مقطوعا تحكمه المصالح ولا يحكمه العقل العادل وأن الناس جميعا غارقين في ظلام لا ينتهي.

* * * * *

وكان صبرى يهرب دائما من الأحياء الشعبية، وإذا ما تخطى في يوم شارع جسر السويس إلى حي مصر الجديدة وجد الساحة الواسعة التي تستقبله وتشده لمزيد من الحياة البعيدة عن المشاكل، وكان يدرك تماما أنه لو كان يقطن في حي مصر الجديدة لما ذهب إبنه إلى الجامع ولم يعتقل، فهل مساجد أو زوايا أو جوامع الأحياء الشعبية قد علّمت بعلامات حمراء خطرة، وهل يُعتقل الأطفال والأبرياء في الأحياء الشعبية أكثر من غيرهم الذي يقطنون في الأحياء الراقية، ولماذا يُعتقل أبناء الفقراء أكثر من أبناء الأغنياء وهل المال يحمي الناس من الظلم ويبعد عنهم ظلمات السجون. أم أن سطوة من يمسكون بالكرباج يجدون أنه من السهل عليهم النزول إلى الأحياء الشعبية والتنكيل بأهلها أيا كان نوع التنكيل ويصطادون منها ما يريدونه لتحقيق أهدافهم أو لتخويف الجموع الكثيرة من الشعب..

.. كان صبرى في هذا اليوم الذي يجب أن يذهب فيـــه إلى مكتب حقوق الإنسان على وشك الإغماء مما وصـــلت إليــه حالته النفسية، وكانت الساعة تقترب من التاسعة حينما كـــان جالسًا على أحد مقاعد مترو شيراتون وكان يجـــب عليـــه أن ينهض من استغراقه وأن يعود قليلا ماشيا بقدميـــه إلى ميـــدان الحجاز ليستقل الأتوبيس السياحي المتجه إلى حي منيل الروضة من الأحياء العزيزة على قلبه لّما كان يزور خالته أسمـــاء حـــرم المستشار كمال الجرف وكيل عام النيابة الإدارية في مـــصر.. كانت خالته تحبه كابن لها وكان زوجها فاضلا في كل علاقاته مع أقاربها وكم كان كريما مع صبرى أثناء دراسته الجامعيـــة في حل أي مشكلة تقابله في تجارة الزمالك حيث كـــان الرجـــل صديقا شخصيا لمعظم أساتذتها خاصـــة الـــدكتور الجزيـــري والدكتور رفعت المحجوب و.. .. .. كانت لصبرى أيام جميلة وقوية عاشها وسط أهله جميعا والذين أحاطوه بكل الحـــب في كل مراحل حياته.. أقاربه من ناحية أمه فقط.. فكيف لرجـــل مثله يتمتع بحب وقوة اجتماعية ترعرع .. وعاش فيهـــا طيلـــة عمره.. كيف له اليوم في بأس ألّم به.. بأس شديد ويشعر بأنه وحيدا يواجه هذا الظلم وحده وأن الجميع يذهبون بعيدا عنـــه ويتركون كرباج الظالمين يناله في قسوة..

ورغم ذلك شعر بقوة وهو يدخل البناية وصعد في المصعد حيث يقع المكتب وهناك قابل السيد فريد.. وقدّم له كـــارت الدكتور فودة وحكى له ما حدث لابنه.. وقدّم لـــه الرجـــل

مشروبا باردا وحكي له عن حقوق الإنسان في بـــلاد العـــالم الراقي وكيف حال حقوق الإنسان في مصر وأهم يواجهون في عملهم صعوبات كثيرة مع السلطات وفي النهاية فإلهم يقفـــون مكتوفي الأيدي أمام كثير من القضايا التي تواجههم ويعجـــزون عن حلها في ظل سيطرة الاستبداد والتعسف..

وبعد مرور وقت طويل وصبرى يحكي مع المسئول.. وعده الرجل بأنه سيبذل قصارى جهده هو ومن في المكتب من أجل خاطر الطفل وأن الدكتور فودة هو أستاذهم جميعا ولن يتـــوانى الجميع في خدمته..

* * * * *

.. وشعرت وأنا أعود من حي المنيل إلى عملي في ســـنتر النعام أن شيئا كبيرا يتنهد في داخلي ويبعث في قوة كأن شـــيئا ينسكب من شعاع نافذ إلى قلبي، وأن كل الذي بذلتـــه مـــن مجهود في محاولات لإخراج السجين سوف تـــصل كلـــها إلى سراب.. إذن الذين ذهبت إليه جميعا منشغلون بحياقم مهتمون بوظائفهم إلهم شريحة من المجتمع المدني الذين يخدمون أعمـــالهم ويغضون البصر عن أي شيء يحدث حولهم حتى ولو كان هذا الشيء مؤلما.. وعدت إلى المركبة المكيفة حـــتى وصـــلت إلى كوبري القبة ومنها استقليت تاكسيا إلى مقر عملـــي، كنـــت أستغرق مع كل أحوالي التي مضت منذ انتزاع ولدي ونفـــس قوة إستغراقي في الجانب الآخر أنفقها في عملي حتى أصل بـــه مع المحاسبين إلى الدرجة العالية في الكفاءة كما تعـــودّت مـــني إدارة شركات الخواجة، وكنت أشعر أن سماءً صافية من حـــب

الله تظللـــّني وتخيّم فوق رأسي ظلا يكسو كل حياتي ويشملها رغم ألم اعتقال الطفل الذي لن أنساه أبدا.. وكنت أسير على صفحات حياتي برقة بالغة وبقوة في الوقت ذاته وفي أي جانب أذهب يقترب مني صفاء السماء.. وكما كنت أرى من بعيد أن السماء يحضنها الأفق الممتد، كنت أرى أن ظل السحاب الرقيق الذي ينساب من السماء بطول رأسي ووجهي ويمسّ نبض قلبي في عطف شديد، كان هناك سرا لا أعرفه بـــين كـــل هـــذه الأطراف المتشابكة حولي، وأجمل شيء أن يشعر الإنسان في بلد يغطّ معظم أهله في أحوال معيشة سيئة وعقـــول ذات أفكـــار جاهلة ومتخلفة، أن تشعر وأنت في هذا الخضم الكثيف مـــن الظلمات أنك تعيش في شفافية وأن يكون بينك وبين الله شيء جميل وشفاف وصافي ينوّر حياتك، وكنـــت أحـــاول دائمـــا حجب هذا السر الذي يمنح ذاتي تلك القوة لأننا في بلاد يحسد الناس فيها بعضهم البعض على التراب..

.. وكنت دائما أتذكر صورة أبي الشيخ الخشن والحكـــيم في نفس الوقت وكيف لهذا الرجل الذي نبت في بيئـــة مليئـــة بالحقد والكراهية وأن خالته تلك السيدة المؤذية أم الـــرزق وأن من أهله الشقي والفتوة واللص.. كيف لرجل نبـــت في هـــذه البيئة أن يكون صالحا، أتخذه مثلا أمامي حتى تقوى نفسي ولا أنهزم حتى أصل إلى نهاية أمري وقدري في تلك البيئات المختلفة التي تعايشت معها خلال مراحل حياتي، وإنني لمـــا نـــشأت في قريتي وكان بيتنا بعيدا عن بيوت أقاربي حمدتُ الله أن بيتي كان

يقع وسط بيوت القطان وكنت أحب أهلها أكبر مـــن حـــبي لأهلي، وترعرعت طفولتي مع طفولة أطفال الصاوي والقطـــان الذين وجدت معهم وبينهم الحب والدفء والأمـــان وكـــانوا جميعا يتسابقون على التقرب مـــني وحـــبي ومـــصادقتي وأنـــا كذلك.. وكنت أخاف من كل أطفال عائلتي ولا أندمج معهم وأحذر دائما من حارة أبو سمك الذي كان أهلها جميعا مثـــل الغجر.. كيف ترعرعت محفوفا بالمخاطر من حـــولي وكـــبرت وسط هذا الجهل وساعدني على ذلك حب بعض أقاربي لي مثل أبنة عمتي الحاجة أم سلامة وابن عمتي عبدالحميد الهلالي وابنـــة عمتي مجيدة رغم خشونة طباعها لكن كان لها قلب يتمنى دائما أن ينمو ويكبر ابن خالها.. كانت البيئة كلها كراهية يتخللـــها مشاعر نادرة من الحب المتقطع ولكنني كنت أعتمد في أســـاس طفولتي على علاقتي الأصيلة بأطفال وأهل الصاوي والقطـــان وكأني واحدا منهم..

.. كنت شديد الاستغراق في طفولتي لأغرف منها بعـــض الحب وتدفعني جذورها الأصيلة لأقاوم ما أنا فيه من ألم في بلاد لم يعد فيها إحياء أي أمـــل.. والآن مـــات أحبـــاء طفـــولتي عبدالحميد وحداد ومحمود وعبدالواحد وعبد العزيز جمـــيعهم ماتوا و لم يعد يحيا هناك حول بيتنا القديم غير قليل منهم ضعفاء وهم بقايا من الأحباب الذين ماتوا.. فكيف لي أن أعـــود إلى قريتي وأنا لا أستطيع تحمّل الأحزان والذكريات.

.. كان بيتي دائما حزينا وكنت أشعر أن كل ما فيه يخنقني والصغير محمد يلاحقني بالأسئلة الحرجة وفي هذه الليلة قبـــل أن أنام والصغير كعادته ملتصقا بي أينما ذهبت حتى أنـــه يقـــف خلف باب الحمام ليستكمل أسئلته واستفساراته.. وقبـــل أن أدخل في فراشي هاتفني أخي محمد سامي ليبلغني أنه نجـــح في الحصول على زيارة محمود في طرة.. وبأنه ســـوف يـــأتي الآن ومعه عديلة لطيف كريم لاطلاعي على التفاصيل.. وبعد نيـــف ساعة وصلا واستقبلتهما في لهفة وكـــم كانـــت أم محمـــود والأطفال سعداء بهذه الخطوة.. وكان لطيف كرجل إعلانـــات حلو اللسان صاحب كلمات معسولة مجاملا رقيقـــا وســـاعده على ذلك أيضا أنه عاش في السويد قرابة عشر سنين قبـــل أن يعمل في جريدة الأهرام ويقيم مع أهله في الشرقاوية بشبرا..

.. رحّبت بهما وشكرت لطيف على تعبـــه معنـــا فقـــال بصوت مبحوح :

- لا يا أستاذ صبرى إن ابنك هو ابني وأنا لـــيس لي أعـــز منكم، أقسم بالله أنه منذ حدث هذا الخبر المفزع إلا وكلمـــت كل واحد في الأهرام أعرفه حتى أصل إلى شيء من أجل انتزاع محمود من ظلماته..

وردت عليه أم محمود كأنها لا تصدق أنـــه حـــصل علـــى زيارة :

- صحيح يا أستاذ لطيف جبت زيارة

- طبعا .. طبعا الحمد لله.. بس هيّ المشكلة لإثنين بس..

- وماله.. أنا مش هاقدر أروح لإبني وأشوفه في الوضع ده لأني ممكن أموت.. الموقف هايبقه صعب أوي.. وعلى فكـــرة مش عايزة أخته أو أخوه يروحو دلوقتي.. ممكن أبوه وأخويـــا ممدوح بكفاية أوي.. وبعدين يرتبها ربنا.

وردّ لطيف عليها مشفقًا :

- خلاص اللـــّي يريحك.. أنا عايزك بس تطمّني وتهـــدي والله محمود هاييجي بس طوّلي بالك.. على العموم أنا بكـــره الصبح هاروح مع ابن عمي الدكتور ياسر مخصوص لواحد لواء في الداخلية علشان نشوف إيه الممكن نعمله أو يساعدنا فيه..

وردّت بنفس اللهفة وكأن لطيف قد أحيا أملا في داخلها :

- والله يا ريت ربنا يخليك أد كده ها تتعب لينا..

وكان أخي محمد سامي صامتًا حزينًا ولكنه طفق وقال لها :

- الأستاذ لطيف أخويا وأخو صبري مفـــيش تعـــب ولا حاجة.. هوّ خدوم بطبعه..

وأخرج لطيف كارت العميد إيهاب صلاح من جيبه وقدّمه لصبرى هامسا :

- دا اللي ها تدخلو بيه.. هاتديه للمخــبر أو العــسكري اللــّي على الباب يدخــّله للمقدم محسن مسئول أمن الدولــة عن سجن استقبال طرة.. التوصية مكتوبة خلــف الكــارت وقرأها صبرى بصوت مسموع :

- سيادة المقدم.. محسن بك رمضان.. يهمني أمر الــسيد/ صبرى درديو ونجله محمود أرجو مساعدتهم.. العميد.. إيهــاب صلاح - مارس ٢٠٠١..

.. وكان شيءٍ من الصمت المحزون قد توغــل في النفــوس لكن الجميع تنفــس الصعداء لمّا ظهرت بارقة أمل في أن يــروا الصبي.

.. دقائق وانصرف محمد سامي ولطيف كــريم - ولأول مرة ينبعث نشاط غير عادي في جسد وروح أم محمود وتقــوم إلى المطبخ لتجهز لابنها طعاما ونزل صبرى لشراء الفاكهة التي يحملها معه إلى ابنه في الصباح.. وتحدّثت أم محمود مع أخيهــا ممدوح المصّور السينمائي تحكي له ما حدث وكــان شــديد الرغبة في أن يكون أول زائر لابن أخته.. وقال لأختــه مــاذا تريدون مني أن آتي به لمحمود.. وبعد نقاش عن مــا يجــب أن نحمله للصبي في أول زيارة اتفق مــع صــبرى أن يــأتي هــو بالحلويات من ميدان التوفيقية وأنه سوف يحضر إلينــا الليلــة ليبيت معنا ليلته على أن نقوم في الصباح مغادرين بيتنا قرابــة التاسعة لنكون في طرة البلد.. أتوستراد .. سجن استقبال طرة

في حدود العاشرة صباحا.. وتقريبا لم تنم الأسرة ساعة من الليل وقام الجميع بعد آذان الفجر بقليل ليقيموا الصلاة جماعة بما فيهم الصغير محمد.. وتناول الجميع فطارًا خفيفا وشايًا وراحت الأم تعبيء الطعام الذي قامت بطهيه.. وكانت تقبل كل قطعة طعام وهي تضعها في الحقيبة وتحضنها بدموعها الساخنة لأن محمود سوف يلتقي بقبلاتها ودموعها وهو يتناول طعامها.. حتى وصلت مشاعرها أنها كانت تربت بأصابعها في رقة بالغة على كل قطعة من طعام ملأت بها ثلاث حقائب متوسطة الحجم.. وساعدنا محمد الصغير في حمل متعلقات الزيارة حتى أسفل العمارة ووقفت الأم وابنتها تشاهدانا ونحن نضع الزيارة في سيارة ممدوح الدايو.. وانطلقت المركبة مع كل الدعوات الرقيقة إلى حيث يسكن الإرهابي الصغير محمود في سجن استقبال طرة.. وظلّ ممدوح يهز رأسه ويتبرم بشفتيه كأنه يريد أن يقول الكثير ولّما وجدته حائرا قلت له في تودّد :

- أتريد أن تقول شيئا ..

- كثير .. كثير عليّ ابننا أن يكون في هذا المكان.. هل تعرف ما الذي أتمناه.. إنني أتمنى أن يفقد محمود جزءا من عقله حتى لا يشعر بكل ما يجري حوله وحتى لا يفقد كل عقله..

- لا أفهم..

- كيف يتحمل طفل مثل محمود ما حدث له.. لو جمّعت كل أطفال العالم ووضعتهم جملة واحدة في مكان محمود لن

يستطيعوا تحمّل الحدث الفظيع وهرولوا جميعا في فزع ليلقوا بأنفسهم في بحر عميق من شدة الحدث..

- إلى هذه الدرجة فكرّت في هول الحدث ..

- في صباح أمس قال لي مخرج كبير إنه من مدة يسمع بأن هناك هوجة تجري في البلد، وأن ما حدث لابن أختك وكثير من أطفال البلد.. هو مجرد رسالة إلى أمريكا تقول نحن شديدي الحرص على مكافحة الإرهاب لدرجة أننا نعتقل الأطفال للقضاء على المنابت حتى يرضوا عن النظام ويطمأنوا أن لهم في مصر خير الأصدقاء..

- يقولون أن الدين لله.. والوطن للجميع.. وأنا أقول فعلا الدين لله.. ولكن الوطن ليس للجميع.. الآن أدركت مثل اليقين أن البلاد تذهب إلى عبودية شاملة من أجل أن يبقى السلطان على كرسيه مرضيًا عنه بأي ثمن..

- كانوا يقولون من ضمن شعاراتهم تحالف قوى الشعب العاملة.. أين هذا الشعب العامل.. لقد ذهبوا بالجميع إلى البطالة ثم بعد ذلك يعتقلوا أطفالهم..

- إن الظلم والفساد والبطش والبجاحة تقود الأمة جميعها إلى العنف والقتل والإرهاب.. إن إرهاب النظام فظيع .. وأن بلادنا مغتصبة ويعرف الناس ذلك وعليه فأنت تجد أن الجميع يساقون إلى القهر والفقر والانهيار..

- أريد أن تبحث معي على الآتي بين أسرتنا وأسرتكم.. من يطلق لحيته.. من يرتدي جلبابًا قصيرا.. أنت يا أستاذ صبري تكتب أشعارًا عن المرأة والفجور.. أنا أقوم بتصوير إعلانات عارية..

- لا أحد.. نحن أسرة عادية سوية ليس فيها أي تزمت أو تعصّب.. معظم أصدقائي مسيحيين ولا أحب في الوطن كله قدر ما أحببت في أي مواطن من صدق وحسن معاملة..

- الخلاصة لقد بدأ النظام يضرب الناس جميعا بلا تمييز.. إنه يستعدي الوطن كله.. لقد أصبح نظاما أعمى لا يدرك ماذا يفعل..ولا يعرف من يعتقل..

- أنا أكره هذا النظام واحتقره..

- هذا تعبير يسود مشاعر الناس جميعا في الوطن..

.. كانت العربة تخترق طريق الأتوستراد بسرعة وسط المركبات وتهيأ لي أنني أسمع عجلاتها تصرخ وتصوّت وأن أصحاب المركبات يفسحون لنا الطريق رأفة بحالنا وكي نرى الطفل بسرعة في بيته الجديد، وكانت تهيؤات كثيرة تلعب برأسي وكان ظلاما شديدا ينسلّ بين العربات في هذا الطريق الموحش الذي يحضن المدينة قرب جنوبها حيث يحفه جبل ممتد على يساره وعلى يمينه مباني عتيقة وأسواق قديمة واسطبلات

للبغال والحمير وزرائب للخنازير ومدابغ جلود.. طريق علـــى جانبيه قسوة بالغة ووحشة قاتلة تتمنى وأنت تقترب من نهايتـــه أن تعود كما كنت في بدايته.. وهدّأ ممدوح من سرعة السيارة وبعد قليل توقف عند مجموعة من الناس تتجمـــع علـــى يمـــين الطريق قرب سور يحيط بأبنية كثيرة في داخله.. أشار بيده نحو هذه المجموعة قائلا :

- فين سجون طرة ؟..

تقدم أحدهم إلينا وقال :

- عايزين سجن إيه.. جنائي ولا سياسي..

ممدوح : عايزين سجن الاستقبال.. وتلعثم قليلا ثم أردف :

- سجن استقبال طره السياسي..

هزّ الرجل رأسه وقال وهو يبتسم :

- شايف لفـــّة السور الجاية لف معاها أول بـــاب علـــى اليمين هوّ دا مدخل المعتقل السياسي كله..

ممدوح : هوّ فيه غير الاستقبال..

الرجل : فيه المزرعة والعقرب.. كل السياسي جوّه ..

ممدوح : استر يا رب..

الرجل : يا رب .

ممدوح : أمّال الحتة دي اسمها إيه ..

الرجل : شق التعبان..

ممدوح : هنا على الشمال ..

الرجل : أيوه ..

ممدوح: يعني إيه شق التعبان ..

الرجل: معلهش أصلها حتة سودة.. كلها على بعضها من أولها لآخرها..

وشكر ممدوح الرجل وانطلق بالعربة وكسر على السيمين ودخل في شارع يتجه إلى حي طرة وعند أول باب على اليمين توقف.. وهرول إلينا عسكري بصوت جهوري :

- يا بيه مش هنا.. إركن بعيد الناحية التانية.. دا باب البشوات..

- يا حسرتي والله دا بتاع البشوات.. والبشوات دول مين..

- الضباط يابيه.. معلهش يا بيه دي أوامر..وشاور بيده هناك ولازم الجانب التاني.. جنب السور هنا للباشوات بس ..

- على العموم ربنا يبارك لك.. إنت غلبان..

- أيوالله يا بيه أنا غلبان.. ربنا يسترها معايا وخلّص أيامي على خير ..

- عشان إنت غلبان ها ريّحك..

- حتى خارج الأسوار احتلوا الشوارع وقسّموها لهم..
هكذا ردّد صبري حتى ركن ممدوح العربة بجانب سيارات الزائرين وحملنا حقائب الزيارة ودخلنا في طابور طويل مع الناس - وكان علينا أن نجتاز بابا ضيقًا يفضي بنا إلى غرفة صغيرة بها مجموعة من الجنود والذي قام أحدهم بتفتيش حقائبنا، فتشها وهو يجس كل كيس كأن به متفجرات وشعرتُ بمهانة شديدة عندها تذكرت حياتي في الجندية أثناء حرب الاستنزاف وكم قضيت مع زملائي أقسى أيام الحياة من أجل الوطن.. يأتي اليوم الذي يُعتقل فيه ولدي ويفتّش حقائبي عسكري جلنف لا يساوي ثلاثة تعريفة.. وأيقنت تماما بأن الإنسانية امّانت في هذه الأرض ولا توجد أي اعتبارات لأي قيمة أو مبدأ وأن الإنسان في لحظة مهما كانت قيمته يصبح كلبا أجربا ضالا في بلاد أعلن فيها القضاء على الإرهاب من المنابت وبتطبيق هذه السياسة يصبح مئات من الناس وخاصة الأطفال ضحايا تطبيق هذه السياسة المهنية..

.. وقفل سعادة العسكري الحقائب ونظر إلينا شذرا فقلت له ونفسي مملوءة بقوة من في الأرض جميعا :

- يا حسرة على العباد..تعالى يا ندابة إندبي.

ارتبك العسكري وغيّر فظاظته في لحظة لشعوره بأنني قوي وأنه من الممكن أن يكون ورائي أحد.. فقال :

- يا بيه وأنا مالي أوامرو تعليمات.. لو ما عملتش كده أروح في طوكر..

- بس برضه مش بالفظاعة دي.. هوّ حد شايفك.. خليكو لطاف مع الناس ..

- والله يا بيه ما تعلمناش كده.. كنا قبل منا نخش الداخلية يمكن تربيتنا كان فيها حاجات كويسة.. لكن لمّا دخلنا علّمونا القسوة والتجرد من الكلام اللي حضرتك بتقوله.. ما تأخذنيش يا بيه أكل عيش إحنا خدّام الداخلية.. إحنا غنم البشوات وعلشان نعيش لازم نخش النحيلة من على صخر الجبل.

- يعني إيه..

- يا بيه.. زي ما بيتنكّل بيّه أنا بنكّل في الناس ..

- طيب وبعدين يعني إنت قلت كلام حلو أهه..

- معلهش يا بيه.. يلعن أبو دي شغلانة اللّي رماني على المر اللّي أمرمنه.. ما كناش لاقيين في بلادنا ناكل وهمّ استغلوا الحتة دي.. بيجيبوا الناس الواقعة علشان يبقوا عبيد ويطاوعوا كلامهم بالحرف.. نظام.. نظام يا بيه.. أنا إش أكون علشان تلومني.. معلهش أنا آسف على طريقة تفتيشي.. سامحني..

- معلهش خلاص بس بالراحة شوية على الناس.. الناس دي كلها مجروحة شوية رق.. شوية..

- حاضر يا بيه.. بس ممكن البطاقة مع بطاقة البيـــه عنـــد العسكري اللـــّي قاعد على المكتب مجرّد هايسجل بياناتها..

.. وتعاطف معي العسكري وشرح معنا حتى يتكلم ويعطينا فكرة عن كيف سندخل إلى سجن الاستقبال وأشار إلى مـــبنى تحيطه حديقة قاحلة :

- دي الاستراحة إقعدو فيها لغاية ما يجي الطفطـــف.. .. وانقلب إلى غرفة التفتيش..

.. وفي أثناء هذا الحديث العنيـــف حـــتى تـــصالح معنـــا العسكري.. كان ممدوح يضحك.. مرّة بقهقه وأخرى يبتـــسم ويقول بين الفينة والفينة :

- يا راجل لا تؤاخذه.. هوّ غصب عنه.. إنت عايز إيه من بهايم زي دي.. كتـــّر خير الله إنه عرف يصلـــّح معـــاك في الآخر..

.. جلسنا في الاستراحة المزدحمة بأهل المعـــتقلين.. وجـــوه كئيبة من شدة الحزن والمعاناة وكل واحد وواحدة له قصة مـــع معتقله.. من الرجال والنساء من طبقات المجتمع الغنية ويظهـــر ذلك من ثيابهم وحقائبهم التي يحملونها.. وآخرين من طبقـــات متوسطة وكثيرين من الفقراء ويظهر ذلك من القفف والمقاطف التي يملأونها بمختلف أنواع الطعام.. نساء وفتيـــات جمـــيلات أنيقات وكذلك شباب، ونساء وفتيات غلابة من المقهورين من

تحت.. من القرى والأزقة والحواري من كل أحيــاء القــاهرة والإسكندرية من قبلي وبحري .. بوتقة شاملة فيها كل أنــواع الشعب المصري..ورجال ونساء وطاعنين في العمر ويتــأوهون من شدة الجهد الذي بذلوه حتى وصلوا مع آخرين من ذويهـــم إلى سجن طرة الذي احتوى الجميع.. وكان هناك عدد لــيس بقليل من المنتقبات منهن الأنيقات ومنهن المبهدلات.. وكـــان الجميع من يجلس في الاستراحة ومنهم من يقف ومن يــشترى من البوفيه ومن ينتظر خارج المبنى يتأهب لأن يكون له مكانـــا في الطفطف.. وكانوا يندفعون للصعود ومعهم أحمالهم الثقيلــة حتى يمتلأ الترام الصغير الــذي ينطلــق إلى الــداخل لتوزيـــع الزائرين.. حيث سجن المزرعة في المقدمة.. ثم سجن العقرب.. وهناك سجون أخرى لم يكتب عليها أية لافتة ولكن كان ينزل إليها زائرين.. ثم يمر الترام الصغير أمام حظيرة كبيرة تربّي فيها عجول الداخلية.. بعدها بقليل سجن الاستقبال.. ثم يعود الترام إلى الباب الرئيسي ليأتي بآخرين.. كان علينا أن ننتظـــر أنـــا وممدوح حتى تهدأ الأمور ولا نتزاحم بهذا الشكل المهين ونحـــن نركب الترام.. ولمّا جاء الطفطف في المرة الرابعة اســتطعنا أن نركب دون أدنى بهدلة.. تذكرة الداخلية في ترامها بجنيه.. طبعًا سلخ برّه وسلخ جوّه وكل ده علشان العجول تتخن و يبقـــة لحمها طري.. من دقنه وافتله.. وتعيش الداخلية ببلاش.. كله

بلاش في بلاش وعلى الناس بالدم.. من لا يحمل العصا في بلادي ليس له نصيب في أي شيء.. وهيّ كده.. يا تلحق ياماتلحقش.. هكذا كنت أهزي وممدوح يسمعني ويبتسم.. وكانت المقابر التي تتاخم سور سجن العقرب العالي هي مقابر قديمة يبدو أنها من مدة لم تفتح.. ربما تكون هناك أوامر لإلغائها.. لأن دفن الموتى لا يجوز في حرمة ومهابة المعتقل الكبير..

.. وانطلق الطفطف يجوب أرجاء السجن الكئيبة وكلما رأيت أنه لا حدود وأننا ارتمينا في واد سحيق لا يعرف مداه إلا الله.. قلت عوضي على الله بصوت مسموع.. حتى انني قلتها أكثر من سبع مرات..

ومن شدة ضيق الزائرين الذين يركبون في عربتنا قال بعضهم مؤيدا لرجائي..أي والله العوض على الله.. ولّما كنا نقترب من سجن الاستقبال كانت هناك سيدة في الخمسين من عمرها مكلومة منكفئة على نفسها رأيتها تبكي في شدة وتداري دموعها ولاحظت أنها بمفردها وأمامها جوال كبير ملأته بالزيارة.. تعاطفت معها واقتربت منها ونحن نترل وساعدتها في حمل متاعها حتى دخلنا تحت مظلة استراحة الزوار.. كان الظل ضيقا لضيق حجم الاستراحة ورائحة من وسخ تهب على الزوار وكثير منهم يسدّون أنوفهم من شدة رائحة الصُنان والبراز.. وسرعان ما هربت أنا وممدوح وأخذنا

السيدة معنا إلى ظل شجرة في مدخل مكتب صغير يتبـــع إدارة السجن وهزّ ممدوح رأسه وقال :

- إنت عارف الريحة دى جاية منين..

- منين ..

- شايف الأوضـــه المفتوحـــة هنـــاك اللـــــّي في آخـــر الاستراحة.. مليانة قرف..

- مليانه وسخ..

- يعني الناس المزنوقة من الزوار هايروحوا فين.. بيخـــشوا أي حيطة تداريهم ويعملوها..

- وليه ما بيعملوش دورة ميّة بسيطة للزوار..

- ليه هم الزوار دول مين.. دا ناس كلها ولاد كلب دول أهل الإرهابيين..

- ربنّهم وذلهم وعذبهم..

- يا نهار إسود إحنا فين..

.. وسرعان ما انتبه كلانا أننا لسنا من الزوار وراح ممدوح يهاتف لطيف كريم في محموله :

- إحنا وصلنا هاتكلم العميد بهاء..

- أيوه خمس دقايق اقفل.. هاكلـــّمك تاني..

وبسرعة إنكفأت على السيدة في ود وهي تفتـــرش الأرض وقلت في حنان :

- بتعيّطي أوي ليه..

- إنت عارف أنا ليّه مين جوّه ..

- مين ..

- ولدين .. واحد سنه خمستاشر سنة والثاني أربعتاشر ..

- وليه خدوهم الاثنين ..

- علشان ولادي كانوا بيروحوا الجامع مع بعض كل وقت وعرفت بعدين إن دا خطر جدا وقال ياخويا الداخلية بتطبّــق سياسة.. سياسة القضاء على البغو ..

- تقصدى المنابت..

- أيوه.. أيوه النبت ..

- أبوهم مجاش معاك ليه..

- أبوهم ميت.. ميت من زمان ..

- ما فيش حد بيجي معاك.. حتى يساعدك في الشيل..

- كل أهلي بعدوا عني قالولي شوف ولادك عملوا إيه..

- يا حسرتي..

- معلهش لي رب..

- ربنا عمره ما هيسيبك..

- هوّ دا الأمل الوحيد.. وانت جاي لمين..

- لابني .. سنه ستاشر سنة..

- يا ضناي يا قلبي.. كمان.. فيه ولاد صغيّرين جوه كتير..

- دا بيصبّرك شويه ..

- يا ريتهم كانوا سابو لِيّ واحد..

- ربنا مش هايسيبهم.. الصبر ياستي ..

.. ورفعت الأم رأسهاوشكرته،وكان صبري يرى ممدوح يتكلم في المحمول ويبدو على وجهه علامات البهجة، كان لطيف كريم قد أخبره أن واحدا من الداخل سوف يخرج إلينا الآن وأبلغه أيضا أن الزيارة ستتم في مكتب المقدم محسن رمضان أو مأمور السجن كما أخبره العميد بهاء..

.. كان الزوار المزدحمون عند باب سجن الاستقبال مندهشون لّما رأوا عسكري يتقدمنا ويشخط :

- وسّع .. وسع للباشا.. إتفضلوا ياباشوات..

وداخلني شعور بالقوة وفي نفس اللحظة شعرت بالخجل وكان الباب ذو ضلفتين خشبيتين ضخمتين مطلوسة بسواد كسواد محمة الفرن.. ودخلنا بصعوبة من شدة الزحام خارج الباب واجتزنا عدة غرف يمينا ويسارا حتى أقصى اليمين حيث

تقع غرفة المقدم الذي قابلنا باهتمام وهو يرتدي ملابس مدنية، وجلسنا في مواجهته على مقعدين من الجلد الناشف وبادرنـــا بترحيب وظيفي يخلو من مشاعر الناس المدنيين الذين إذا رحبوا بأحد رحبوا بصدق وقال :

- العميد بهاء غال عندنا.. واحنا أي خدمة من طرفه .

فقال ممدوح :

- ربنا يخليك يا بيه وتابع وكأنه يهرّج .. هوّ الواد الصغير دا عامل إيه عندكم..

المقدم- على فكرة أنا عارفه.. دا واد صغيّر أوي.. ليه ما حشتهوش..؟

وكدت أنفجر في وجهه ولكنّـــي سرعان ما أدركت أنني في بيته وأن الذي يجلس فيه سحن سحيق وأنه هـــو صـــاحب الكلمة هنا - قلت وأنا أكظم غيظي :

- نحوّشه من إيه سيادتك ..

- إبعدوه..

- نبعده إزاي ..

- إبعدوه شوفو كان يروح فين ..

- بيروح المسجد ..

- كان يصلـّي في البيت..

- وش عرفني إن المسجد... إن المسجد.. وسكت ..

- هيّ كده من زمان.. هوّ إنت مش في البلد ولا إيه..

وشعر ممدوح بأن الحديث يحتدم بين صبرى والمقدم فدخل ملطفًا :

- يا باشا إنت كلامك كله صحيح.. إبننا مش متربي .. يا باشا إحنا متأسفين على تعبك معانا.. وعلى اللّي ابننا عمله.. دا عيال بايظة والله يا بيه..

- مش كده.. حضرتك تبقه مين ..

- خاله ..

- بتشتغل إيه..

- مصور سينمائي ..

- طيّب يعني أهله بتوع دنيا وبتوع فن.. وطفق يضحك .. يعني أهله بايظين.. طب ليه الواد مطلعش بايظ زيك..

- أي والله كلامك صحيح يا بيه.. هوّ فيه أحسن من البوظان في البلد دي.. العيّل المفروض يبقه في حاله.. ماله ومال المسجد هوّ المسجد ناقص عيال..

- إسمك إيه ..

- ممدوح.. ممدوح عبدالعزيز.. آخر فيلم كنت مدير تصويره فيلم الباحثات عن الحرية..

- ياه فعلا.. إنتو ناس القروض بعيد خالص عن المواضيع دي!!

سعد ممدوح لشعوره أنه أحرج المقدم من التشتة التي حدثت بينه وبين صبري.. وقال صبرى في الزحمة :

- معلهش الواد طالع بايظ.. لما يطلع هاتربيه صح..

.. ودخل علينا فجأة العميد ع. منصور مدير السجن فعرفه المقدم محسن رمضان بأننا من طرف العميد بهاء من أمن الدولة فرحّب بنا الرجل ثم قال موجها كلامه للمقدم :

- أي خدمة عايزينها ..

المقدم : أبدا.. ليهم ابن هنا..

العميد : تبع جماعة؟

المقدم: دا واد صغير أحيل لموّد والسلام

العميد: حط نفسه في محيط ..

وحاملته ف كلامه لأننا لسنا في حاجة إلى صدام مع أحد :

- المشكلة المحيط واسع مش هانلاقيه.

العميد : إحنا دايما بنقول للناس خدوا بالكم من عيالكم..

- على فكرة كل قرايبي اللي في الشرطة لواءات وعمداء حاشوا ولادهم من الجوامع من مدة.. طيب دول خدو بالهم

من عيالهم واحنا بعيد ما نعرفش إن فيه هوجة.. يا بختهم أنقذوا ولادهم علشان عارفين لكن إحنا اتاخدنا على عمانا..

- العميد: معلهش نصيبه.. ياريت سلامي لسعادة العميد.. قلّه بس مأمور السجن.

وانصرف العميد تحت بند علاقات مشيّ حالك دا بس علشان العميد هاء إسمه جاملنا كل حاجة ليها تمن وأهم حاجة أنهم يجاملوا بعض، ولو إحنا مش من طرف حد ماكنش حد عبّرنا.. ياحسرة على القيم اللّي حلّت محلها المصالح والزيف وشيّلني وشيلّك.. وطلّ علينا الطفل لأول مرّة يلقي الأب نظرة على ابنه.. شكّ أول الأمر أن يكون هذا الشاحب الأصفر ولده.. لكنه هو تبرز عظام وجهه كأنه منذ مدة يقطن في محيط من الثلج.. يرتعش .. يرتعش رأيت نبض قلبه الرقيق يبرز فوق عظامه التي يظهرها جلبابا أبيضا وسخا يرتديه، تائه شريد الذهن والمخبر بجواره يأتي به إلينا فهرول إليه خاله منفعلا غارقا في بكائه ليحتضنه بقوة فانسّل الولد في أحضان خاله كأنه عود كبريت، ولّما انهمر الطفل في عويل مناديًا.. خالي.. خالي.. حبيبي.. لم يستطع المقدم مقاومة الموقف فانسل خارج مكتبه.. وكاد الطفل أن يقع لّما تركه خاله لاحتضنه وأخذته باكيا بين أحضاني فاعتصرت بقايا من الضلوع الواهنة كعظم دجاجة مريضة وراح محمود يردّد بابا.. بابا.. أنا عملت إيه.. قل لي عملت إيه.. والله ما عملت أي حاجة.. بابا صدّقني.. أنا عايزك إنت تعرف كده.. همّ عمرهم ما هيصدقوني.. كل

اللـــي بيقولوه إن مجرد رحت الجامع يبقه عملت.. وإني كنت لسه هاعمل التخين بعدين.. همّ رأيهم كده يـــا بابـــا.. هـــمّ وظيفتهم تلبيس تلبيس التهم يا بابا.. بس أنا صغيّر ماستحملش تطبيق سياساتهم الجامدة دي يا بابا.. أنا حاسس إني عمري ما هطلع من هنا يا بابا.. خدني يا بابا خدني معاك يا بابا..

وفي رقة بالغة حملته لأجلسه في حنان بيني وبين خاله وقلت وأنا أربت على ظهره :

- ما تخافش يا بني.. ربنا معاك.. إحنا مش هانـــسيبك.. إهدى.. قول حسبي الله..

- أنا طول وقتي يا بابا بقول حسبي الله ونعم الوكيل.. ماما ما جتش ليه.. إزي ماما.. ماما بتعيّط عشاني.. قل لهـــا أنـــا كويس يا بابا.. أنا عارف إن ماما هاتموت عشاني.. أنا عـــايز ماما.. عايز ماما..

- هاتيجي المرة الجاية..

- ما جتش ليه يا بابا معاكم.. كان نفسي أحـــط راســـي على صدرها وأعيّط..

- يعني أنا ما نفعش يا محمود.. حط راسك على صـــدري وعيّط..

- ما ينفعش يا بابا.. أنا عايز صدر ماما..

وتعجب المقدم من كلام الولد وتفرّس في وجهه ولو تــرك نفسه على سجيتها لقال :

- يا حرام والله دا طفل.. دا فعلا فيه غلط حصل..

وفي صوت خفيض انحنيت على ابني وقلت :

- حققوا معاك في إيه..

- ولا حاجة.. انت بتروح فين.. إنت بتقعد مــع مــين.. الشيخ في الجامع قال إن .. إنتوا كفــّرتوا الحاكم.. مش إنتــو رفعتوا ايديكم لما الشيخ قال.. مش كده الحاكم كافر.. ولّمــا عذبوني يا بابا في قسم السلام بالكهرباء.. كان التعذيب شديدا كنت أشعر بأنني قريبا من الموت.. فأنهيت العملية القذرة وقلت للضابط.. يا بيه كل اللــّي بتقوله صحيح.. أنا وافقت الشيخ على كل كلامه.. علشان أخلص يا بابــا.. يعــني أقــول ولا أموت.. الموضوع يا بابا بالنسبة للضابط كــان شــغل ولازم يخلــّصه كويس علشان يبعتنا لاظوغلي واحنا التهم لابــسانا بصحيح.

- والتهمة إيه يا بني..

- محاولة الانتماء إلى الجماعات الإسلامية..

- وانت يا محمود عارف كثير بقه عن الدين..

- أنا ما كنتش عارف أروح فين كان عندي وقت فراغ.. فقلت أروح الجامع أصلــّي وأسمع أي حاجة من اللــّي بيقولها

الشيخ خالد.. مش أنا قلت لك يا بابا وديني نـادي الـشمس قلت لي دا أربعين ألف جنيه اشتراك.. وضحكت وقلت يا بني أنا راجل من الشعب.. وقلت احنا كنا في البلد نروح نلعب في ملعب المدرسة الإعدادي ببلاش يبقة أزّاي أدفـع تمـن فـدان علشان ابني يلعب.. وقلت لي روح الحراك يا بابا العب ببلاش مع أولاد الشعب.. رحت الحراك كان الأعراب بيجروا ورانـا ويضربونا بالطوب.. ما لقيتش أي حاجة تلمني غـير إني أروح الجامع أسمع كلام ما سمعتهوش قبل كده ..

- يعني أنا ما قلتش لك كلام عن الدين خالص..

- بتقولـّي صلى وبس.. يعني إيه شرع يا بابا..

- أصل الشرع دي كلمة كبيرة أوي معناها حكـم الله.. الحق والعدل والحب بين الناس..

- برضه مش فاهم..

- يا بني أنا ما قدرش أقول لـك تفاصـيل.. شـرع الله بالتفصيل مكتوب في كتب الشريعة اللـّي بيدرسـها بتـوع الأزهر.. ومش مطلوب منك ولا مني أن أكون فقيه.. لكـن مطلوب منا كلنا نحب عملنا ونحسن بين الناس حتى ولو بكلمة حلوة.. والعدل بين كل البشر والحرية وحب الوطن.. هـوّ دا الدين كل دين في الدنيا نزل من السماء بيدعو إلى المودة والخير والحب والسلام بين الناس وبس ومش مطلوب مننا أكتر مـن

كده.. وأقسم لك بالله أنا سني خمسين سنة ولا أعرف شرع الله إلا في هذه الكلمات البسيطة..

- يعني شرع الله أنا ماليش دعوة بيها خالص.

- يا بني لّما تكبر تعرف كل حاجة.. والكتب فيها كل حاجة.. وكل الناس في مصر بتطبّق شرع الله.. يعني معظم الناس بتحاول تعمل اللّي ما يغضبش ربنا وإن ربنا يبقة راضي عنها.. الناس بتعمل اللّي يرضي الله بالفطرة والناس دي كلها ما قرتش أي كتب في الدين..

- يعني ما كانش لازم أعرف الحاجات دي ولا أسمعها..

- أبدا.. يعني إنت عرفت حاجة عن الشرع اللي بيقوله أي شيخ..

- أبدا .. طيب ليه بيسيبوا الناس المجانين دي تتكلم في الجوامع ليه..

- والله.. اسألهم.. يمكن يكونوا عايزين يعملو شغل..

- طيب الناس دي كبيرة على وعي في اللّي بيعملوه.. بس أنا ذنبي إيه.. أنا ما عرفش أي حاجة.. ليه يا بابا سبتني أروح الجامع طالما فيه خطر جايني هنا..

- والله يا بني لو كنت أعرف إن فيه خطر ما كنتش خلّيتك رحت الجامع.. وبعدين إنت من إمتي بتروح الجامع..

- من شهرين بالكتير ..

- مصيبة وحطت علينا يا بني..

- الله يلعن كل اللـــّي ليهم دقن في مصر كلها..

- لأ يا بني مش كده.. ما نقدرشي نعمّم..

- أنا بكرههم يا بابا .. همّ اللـــّي جابوني..

- إنت مجرد سمعت وما عملتش حاجة ..

- ياريت ما يخلـــّوشي أي واحد مرّبي دقنه يقعد يتكلم مع عيال وأطفال تاني.. أنا نفسي مافيش طفل يدخل هنـــا تـــاني بالزور والبهتان اللـــّي حصل لي..

- كل حاجة ليها حل يا محمود ..

- الحل إنهم ما يخلـــّوشي بتوع الدقون المجاذيب اللـــّي لابسين جلاليب قصيرة وعاملين خزعبلات ما لهاش أي لازمـــة وبعيدة عن الـــدين.. لأن الـــدين في الأول والآخـــر ســـلوك ومعاملة.. ما فيش حد محتاج كلامهم ولا خطبهم.. الناس دي كلها يمنعوهم من المساجد.. المساجد للصلاة بس.. وما فـــيش داعي للعب العيال ،وما فيش داعي برضه لأن الجوامـــع تبقـــة مصيدة لشغل أمن الدولة.

وتنهد ونكس رأسه نحو الأرض .. فتابع معـــه والـــده بقيـــة الحديث:

- أيوه يا بني صح بتقول كلام كبير أوي أمن الدولــة لازم يستغل صح ويخللــي الشعب يحبه ولازم يعمل لصالح الشعب ولأمن الشعب.. أمن الدولة هو أمن الشعب وأمن البلد كلــها هوَّ للأمان .. أمن البلاد كلها مش أمن يخوّف الناس ويتــهك حرمات الناس والبيوت ويعتقل الأبرياء والأطفال.. أمن الدولة لازم يكون فيه دراسات علمية وعملية وإنسانية يشتغل عليها.. هيّ مش فوضى.. بالشكل ده هاتخللــي الناس كلــها تعــيش بالخوف وتكره بلدها وتخللــي كل واحد يشعر تماما بأنه ليس له وطن.. يعني لّما أي وطن يتعرض لاعتداء وانتهاك أجنبي مين ها يدافع عن الوطن بحب.. الشعب كله هو اللــــي هيــدافع وأمن الدولة مش ها يقدر لوحده يدافع عن البلد.. ما تخلــوّش الناس تفقد وطنيتها بهذا البطش والتنكيل والظلــم .. حاســبو شوية واعرفوا إنكم بتقطّعوا في الوطن وبتهربدوه بس الغــرور مش مخليكم دارين بأي حاجة.. ارجعوا شوية وفكروا وحاولوا تفكروا من جديد علشان سلامة وأمن البلد.. ما تخلوّش الوطن غلاية بتغلي وبتزيد لهيبها واطفوا النار اللــّي تحتيها خلــــوا الغلاية نار باردة.. خلوّها ميّة مثلجة اللــّي يشرب منها يرتوي وينحني لبلده لأن بلده بتسقيه وكفاية كي ولهيب للبلــد.. ..

وكان المقدم يروح خارج مكتبه ويعود ليقعد وكأنــه يمــارس عمله ولكنه في الحقيقة كان يمثــّل أنه يعطينا فرصة للحــديث

مع ابننا بحرية وفي نفس الوقت يريد أن يسمع محور الحديث مع ابننا.. ولم يتمالك نفسه من كلام أبو محمود وقال يتصنع الذوق وأنه من أجل خاطر العميد :

- الكلام دا خطير أوي.. يعني أنا سمعته كله.. بس علشان خاطر العميد بهاء سبتكم تتكلموا براحتكم.. لكن والله الكلام تؤاخد عليه يا أستاذ..

فقال ممدوح :

- والله يا سيادة المقدم الكلام اللّي قاله أبو محمود علشان يقوّي بيه نفسية ابنه وبعدين دا طفل قال كلام كبير أوي فرد عليه أبوه.. والله لو تأملت كلام أبو محمود اللّي قاله فعلا لازم تخللّو الناس تحب بلادها.. ولازم.. ولازم.. انتو بتزعلو من الحقيقة ليه..

المقدم : بكفاية لغاية كده.. والله فيه أمن الدولة في لاظوغلي روحو للمسئول هناك وقدّموا دراستكم بخصوص المواضيع دي.. أنا هنا بعيد خالص عن الكلام ده.. أنا ما حدتش ابنك اللّي خده رائد من قسم السلام..

صبري : كتّر خيرك إنت عملت اللّي عليك وأكتر - لا تؤاخذني أنا أب ومجروح وقلت اللّي في نفسي فيه وسامحني لو كنت غلطت..

المقدم : ما فيش حاجة.. تبقه قول للعميد بهاء إنت قلت إيه.. علشان يعرف أنا زيكم إزّاي وعلي العموم إحنا كلنا عارفين الناس بتقول أكتر من كده.. على فكرة باق من الزيارة عشر دقايق.

ممدوح : فيه أكل لمحمود ممكن ياخده.

المقدم : أوي أوي .. بس اسأل محمود هاتدّي الأكل لمين..

محمود : لأمير الجماعة..

صبرى : ليه.. يعني إيه أمير ..

محمود : واحد كبير في الزنزانة بيقولوا عليه أمير والنظام ماشي كده أي وحد يجيله أكل يعطيه للأمير ثم الأصغر فالأصغر والباقي من الأكل يعطوه لصاحب الأكل..

صبري: والكلام ده في عرف مين..

المقدم : إحنا سايبينهم جوه عاملين دولهم الخاصة بيهم ..

صبرى : كمان يادي المصيبة هذا يعتبر اغتصاب لكل ما هو إنساني.. وهوّ ابني هايقدر على كده.. إذا جوّه فيه بطش أكتر وظلم أكتر.. وبلاوي سودة ..

ممدوح : يعني واحد زي ابننا كأنه يقدّم كل شيء قربان لآلهة الزنزانة.. وأنتم تسمحون بذلك.. طيّب ليه سايبينهم يعملو كده..

المقدم : برضه مش أنا.. هيّ كده من زمان ..

صبرى : أقسم بالله.. هذه ظلمات الجاهلية .

المقدم : علشان تعرف إن لينا حق..

صبري : ليكم حق مع التيوس اللـّي جوه.. لكن ابني لأ.. وبعدين حاطين ابني مع ناس كُبار ليه.. علشان يتلوّث والظلام يغطيه.. إيه اللـّي بيحصل دا كده إبني ها يدمّر .. أطلب نقل إبني في زنزانة بها صغار مثله.. علشان خاطر الإنسانية قبل ابني ما يروح منـّي.. يعني لو إبنك ترضى كده..

المقدم : هوّ ابني من الجماعات..

صبرى : ملعون الجماعات اللي في مصر كلها .. أرجوك..

المقدم : روح للرائد اللـّي خد إبنك وقلـّه إبني مش مـن الجماعات..

صبرى : لأ أنا هاروح لربنا.. دا فعلا ابني راح المحيط..

* * * * *

.. وشرد الصبي وكان أكثر ضعفا ورأيته نحيلا هزيلا كورقة تقطعها الرياح.. واحتضنته بقوة وكدت أدخله في ضلوعي ولمّا وجدني شديد الرغبة في ألا أتركه قال وهـو يمـسكني مـن ظهري :

- يا بابا كل شيء له نهاية.. وأجمل شيء في الموضوع كله إني ماعملتش حاجة.. أنا مغسول بمية البراءة أمام الله..

وقلت وخاله يأخذه من حضني :

- أد كده كلامك كبير ..

وقال وخاله يحضنه موجها كلامه لكلينا :

- أنا جوّه مش بفكّر إلا في الله رغم أنني لا أعرف تفاصيل شرعه.. أفكّر في الله بقلبي..

.. ولما تركه خاله وقف بيننا وأردف :

- إن قلبي يشده نور غريب لدرجة أنه يجعل ظلام الزنزانة وضيقها ضياءً واسعة.. إن كل ما يحدث حولي مسرحية هزلية من شدة ظلام ما يحدث حولي سواء من إدارة السجن أو من الشيوخ.. إنني دائما أضحك في داخلي وكأنني أسخر من هذا العالم الذي ولدت فيه.. وهل يدخل أطفال العالم مثلي عالما مثل عالمي في بلادهم..

.. أبي إن هؤلاء الشيوخ ليسو من البشر.

.. هل كانت لهم بيوت تربوا فيها مثلي..

.. كنت أسمع عن حثالة الناس في أي مجتمع.. أكيد هؤلاء حثالة بلادي..

..إن اليد التي جاءت بهذه الحثالة هي اليـــد الـــتي جـــاءت بالبراءة هنا ..

.. لا تحزن يا أبي إنني قوي ولكن من ناحيتـــك حـــاول أن تخرجني من هذا الظلام..

وأمسك بيد خاله وابتسم وقال وكأنه يهزر معه :

- يا خالي شوف رقـّاصة عندك أو عريانة مـــن بتـــوع الإعلانات يمكن تقدر تخرّجني..

وانتزع محمود الضحك من صدر كلينا الحزين وهزّ ممـــدوح رأسه كمن سيحاول بهذه الطريقة وقال :

- حاضر يا محمود.. والله اقتراح كويس.. وليه لأ..

.. وكان المقدم في هذه اللحظة يعود إلى مكتبه وهو يبتسم ابتسامة تعوّد عليها مع كل زائر كوسة وقال :

- تحت أمر البهوات عايز حاجة تانية يا محمود ..

وشكره كلانا وصافحناه وخرجنا من مكتبه ومحمود يتقدمنا ومعه المخبر الذي يحمل حقائبه ودخلا في رواق طويل واختفيا وكان كلانا بقلبه الواهن وعينه الزائغة الشريدة النظرات تودّع الصبي من ظهره والذي كان يلتفت الينا ويلوّح لنا بكف يـــده حتى اختفى في ظلام الرواق السحيق..

٣

غادرت سجن الاستقبال بشعور بائس يكاد يمزّق صدري على ولدي.. وكان ممدوح يهدئني وهو يداري دموعه حتى وصلنا إلى البوابة الكبيرة لكننا خرجنا من الباب الصغير للزوار، ولمّا انطلقت بنا العربة في طريق الأوتوستراد المتجه إلى حي العباسية كانت يد ممدوح ترتعش طول الطريق وكانت عجلة القيادة تكاد تفلت من كفيه، وظللت أدعو لولدي وأدعو على من أخذوه واتهموه وسجنوه حتى وصلنا إلى جامعة عين شمس، ونزلت أنا لأكمل الطريق إلى جسر السويس حيث منزلي وذهب ممدوح إلى أحد مواقع التصوير لاستكمال تصوير فيلم سينمائي.. وفي البيت وجدت زوجتي متلهفة لسماع كل شيء عن ولدها بالتفصيل.. وحكيت لها كل ما حدث مرّات حتى تطمئن على طفلها وراحت تدعو له كما فعلت وتدعو عليهم إلا أنها راحت تكرر بصوت عال:

- ياه أد كده كبرت يا محمود.. يعني كنت بتحاول تنتمي للجماعات الإسلامية واحنا مش دارين.. ما كنتش أعرف إنك خطير أوي كده.. يا ترى طالع لمين لأبوك اللي عمري ما (برّأه) أبدا من معرفته بنسوان غيري.. وأحلف بكل الإيمانات إنه بيكتب الشعر علشان بيعرف نسوان.. يعني أبوك بتاع نسوان.. وخالك بيصوّر العرايا في الإعلانات والأفلام.. يعني إنت يا بني من تحت وفوق ابن ناس عايشين الدنيا وبس.. إش

معني إنت طالع خايب كده ما طلعتش بايظ زي أبوك ليه.. يا حسرة عليهم طيب لّما تعتقلوا العيال ما تشوفوا أهاليهم مــين.. لكن كل اللــّي عايزه أعرفه لّمــا كنــت بتحــاول تنتمــي للجماعات الإسلامية ما عرفتش ننتمي ليه.. كنــت بتتزحلــق على السلــّم اللــّي إنت طالعه ولا ربيت دقنك ولميت نــاس حواليك ونزلت فيهم يا شرع.. دا إنت مش حافظ من القرآن غير الفاتحة.. قوللــّي محاولة إنتماءك كانت إزاي نفسي أعرف كنت بتحاول وهمّ شافوك يا سلام على يقظة الأمن.. دي ناس فعلا بتعرف تعمل شغل إزاي علشان يوصلوا ويترقــوا علــى رقاب الأطفال الأبرياء.. تعالوا يا نــاس آدي الجمــل وآدي الجمال.. إبني كان بيحاول إزاي..

* * * * *

وتركت الزوجة تولول وحدها في البيت.. لقد كان جــو البيت حزينا ومؤلما.. تركتها وذهبــت إلى عملــي في ســنتر الخواجة.. جلست في غرفتي الزجاجية والتي منها أرى أكثر من ثلاثة عشر محاسبا ومحاسبة حولي في نــصف دائــرة يقومــون بأعمالهم، ولّما جلست إلى مكتبي جاءتني المديرة التنفيذية ماريانا بالكثير من الأوراق والتقارير والبيانات والــتي كتبتــها علــى الكمبيوتر لاطلع عليها وأوجهها.. وكان مكتبها الصغير وعليه جهاز الكمبيوتر يقع في نهاية غرفتي الكبيرة قريبا من البــاب.. كانت لها بعض الملامح التي تجمعها مع المحاسبة منى مــصطفي

والتي كانت تعمل معي في فرع وزارة النقل والمواصلات بمدينة الموصل بالعراق منذ أوائل الثمانينيات.. لكن ماريانا تتفوق عليها في الكثير.. أكثر منها علمًا ورشاقة وثقافة وأشيك في كيفية ارتداء ملابسها الجميلة والتي تظهر جمالها الرائع في رقة بالغة.. كنت عندما أتحدث إلى مني في العمل أو في أي أمور أخرى تأخذني إلى تحت.. لكن ماريانا كانت تأخذني إلى أعلى.. هذا الشعر الأسود الفاحم الذي يتدلى على كتفيها كشجرة ظل، قسمات وجهها كشعاع ينعكس من خلاله كل دلالات السحر التي تنسدل على ثغرها كالبسمة السحرية التي لا تنتهي.. أشياء في وجهها الجذاب أقوى من أن يقاومه كاتب أو شاعر.. كانت رواية أو قصيدة شعر لم تبدأ بعد.. وكانت توقد النار في داخلي في بروز صدرها النافر والتفاف أردافها في استدارة عود القصب الذي كلّما حاولت ثنيه إنثنى ونقع منه العسل الأبيض.. ولما كنت أفكّر في سبب نجاحي الباهر في هذه الشركة كانت ماريانا هي العامل الأول في نجاحي في إخلاصها في العمل.. وفي توددها الحميم نحوي.. وأنفقت وقتا كبيرا لماذا تظهر لي كل هذا الود والاهتمام وتفاني في عملها إلى درجة كبيرة جدا ليكون في أجمل وأقوي صورة أمام صاحب الشركات.. فهي المديرة التنفيذية لكل الشركة وسكرتيرتي وهي المحاسبة الإدارية الأولى وأكفأ من يعمل على

الكبيوتر.. وهي المحامية عني وعن الحق وهي العين النافـذة في تشغيل المحاسبين ومراقبة أعمالهم.. ومع كل ذلك فهي شديدة التدين.. فعندما تنتهي من بعض أعمالها تقرأ في كتاب دينـها، ولم تكن متزمته أو متعصبة ومجاملة.. هي مصر الراقية قبل عام ١٩٥٢.. وعندما كانت تسمع آذان الـصلاة يـصدح مـن المساجد تقول لي.. إن قلبي ينشرح.. وكانت ماريانا تبلغ مـن العمر خمسة وثلاثين عاما من مواليد برج الحمل.. وهي مـن مواليد إحدى القرى في الدلتا.. وفي مـرّة قالـت : إن الـتي ولّـدتني داية تدعي أم هاني.. وكنت أندهش أن الداية الـتي ولّـدت ماريانا هي نفس الداية التي ولّـدت في القرية شـلبية وستيتة وإبراهيم الطنيني وفوزي المورجي وغيرهم من أشـناف وأجلاف أي قرية.. وقلت في نفسي وليس الـسر في الدايـة ولكن السر في الولادة.. ولما كنت أستغرق في حياتي اندهش أن الذي أحزنني وأنزل السواد في حياتي أناس من مصر وأن الذي يسعدني ويبهر حياتي ماريانا وهي من مصر.. فهل ينقسم الناس في مصر.. أناس يمسكون العصا ويعتقلون الأبريـاء وفي نفـس الوقت يعتقلون أشقياء وسفلة أصحاب الخـزعبلات والـذين يلوثون دين الله بذقونهم العفنة وملابسهم القـصيرة و.. و .. وشعب آخر يتحمل الذل والفقر والحرمان والبطالـة والجهـل والمرض.. وشعب ثالث في الوسط يعمل في شركات المدينـة

ومصانعها وبنوكها وهؤلاء يمثلون المجتمع الوسطي والمدني الراقي والذل ما زال متماسكا رغم أنه بدأ ينهار في صور وأشكال أخرى.. وإن ماريانا إحدى الصور الجميلة التي ما زالت واجهة مصر تتزين بها.. والغريب كيف تضعون ماريانا ومن هم في مثلها في كفة واحدة مع ستيته وشلبية والطنيني والموريجي.. أو كيف تضعون الطفل البريء محمود مع شيوخ من بيئات منحطة يتمسحوا بالدين ويلوثونه بمعتقداتهم المريضة وأفكارهم الجاهلة.. كيف تضعون الطفل البريء مع الشيوخ في زنزانة واحدة..

.. ومرّت الأيام.. وفي يوم أودعتها سر الذي حدث لابني.. وراحت تبكي بكاءً شديدا في مكتبي ولكن دون أن يلحظها أحد وهي تضع وجهها أمام شاشة الكمبيوتر وكأنها تندمج في العمل.. وفي يوم آخر أودعتها سر أن زوجتي تمتنع عني لحزنها الشديد على ولدها ولخوفها أن تلد ولدًا آخر يعتقلوه.. وكلما أودعتها شيئا من أسرار حياتي بكت من كل قلبها وبدأت تحيطني برعاية أكثر واهتمام أشد وود أقوى مما كان عليه من قبل، وفي كل يوم تتكلم معي في أمور كثيرة حتى عرفت كثيرا من حياتي.. وجاء يوم قالت لي في رقة بالغة :

- أريدك ألا تحزن.. أريد أن أسرى عنك وأن أكون قريبة منك حتى أدفع عنك البأس الشديد..

.. وقلت وأنا أمعن النظر في دفتر أمامي وهي كأنها مستغرقة في عملها بالحاسب :

- أنا جد ممتن لمشاعرك الطيبة نحوي ونحو قصة ابني وكل شيء في حياتي.. وأنا كثير في داخلي يشعر نحوك بالألفة والراحة..

- أجمل ما فيك صوتك القوي..نبراته.. أعماقه.. نجاحك في عملك .. حزمك .. رقتك.. مشيتك.. كل شيء فيك رائع.. هذا في جانب..أريد أن تترك كل هذا..تعال الآن ناحيتي.. أريدك أن تهتم بي.. أن تعيرني شيئا من اهتمامك.. أريدك أن .. وسكتت .

ثم أبعدت وجهها عن الشاشة قليلا ورجعت خطوة بالكرسي الدوار والتفتت بوجهها إلى الخلف نحوي وكأنها حريصة على أن تودعني سرا ولا يسمعه أحد .. وهمست :

- أقول لك عنيّ شيئا لا يعرفه أحد هنا..

وأصغيت لها :

- أنا سيدة.. أرملة منذ أكثر من عشر سنوات.. زوجي مات في حادثة.. وأعيش مع أمي..

.. ثم تقدّمت مرّة أخرى حتى لاصق وجهها وجه الحاسب ثم تابعت تقول :

- ليس لنا أحد في القاهرة.. نعيش أنا وأمي في مدينة كبيرة كهذه وحدنا.. ليس لنا صلة بأحد.. حتى الأقارب منهم من مات ومنهم من هاجر ومنهم من لا نعرف عنه شيئا..

- لا تحزني يا ماريانا على شيء.. كل إنسان في هذه المدينة يعيش وحيدا حتى الذي له أقارب وأهل.. أصبح الناس في هذا الزمان فرادى وكأن شيئا قويا يقسّمهم.. وسوف أكون لك أمينا على ما أودعتيه عندي من سر..

- لقد أودعتني كل أسرارك.. فكيف لا أودعك سرك.. إنني في حاجة لأن أتكلم معك كثيرا..

- لماذا لا تزورنا في البيت.. إن أمي تعرف عنك كل شيء.. عندما أعود إلى أمي كل يوم ليس لي حكاية معها إلا الحديث عنك..

- يشرفني أن أزوركما في البيت ويسعدني أن أرى والدتك.. ويسعدني أكثر حديثك عني..

- قلت لك أننا لسنا لنا أحد.. ومن كثرة كلامي عنك فإن أمي تشتاق لأن تتعرف عليك..

- أنا تحت أمر الجمال.. إنه لشرف لي.. لك أن تحددي اليوم..

- أنت الذي تحدد.. نحن نستقبلك في أي وقت تشاء..

.. عصرت ماريانا ورقة براحتيها وكأنها تلتقط سعادتها فرحة بأناملها الرقيقة..

.. ومنذ لحظة هذه الدعوة وابتهج قلب صبرى وراح يفكر في شيء آخر سعيد أدخل السرور إلى قلبه.. حزن شديد على ولده وسعادة بالغة بدعوة ماريانا.. إنها امرأة فيها كل معاني وسمات الأنوثة.. إنها المحاسبة المثقفة.. هي العون في العمل وهي المرأة التي يذهب إليها خياله حتى قبل هذه الدعوة.. فمنذ أن قست عليه زوجته ومنعت عنه معاشرتها وهو قد لجأ بالفعل إلى ماريانا نفسيا وتلقائيا يفكرّ فيها..

.. كانت الربيع هو برياحينه ينزرع تحت رموشها.. هي اللحظة الجميلة والخطوة في وقعها كأنها دقات قلب والشعر المنثور على كتفيها لولاه لعادت قبلات كل العاشقين جوفاء.. هي طائر هائم فوق سفح جبل يطل على نهر صاف.. هي السنابل والزهر والشجر الظليل والقمر الذي ينير الليل.. هي ليل العاشقين ونهار المحبين.. هي النبع الذي يرتوى منه الحب ..

وفي يوم قال لها :

- يا خط الكحل في عينيك ..
- إنه يسكن فيها من أجلك ..
- من أين اشتريت الكحل؟

- من سوق الحب ..

- وهل هناك سوق للحب.. وأين؟ ..

- لقد أقمت سوقا للحب في قلبي.. ومن هـذا السـوق تكحلت.. ولولاك ما تكحلت..

- إنني لم أبع الكحل مرّة في حياتي.. فكيف يكون عنـدي سوقا للكحل..

- المرأة تتكحل للرجل الذي تحبه.. ولولا الحب ما كـان الكحل في عيون المرأة..

- منذ متى تكحلت ..

- منذ أن رأيتك بدأت أحب كل شيء في حياتي.. وبدأت في تكحيل نقطة من عيني وفي كل يوم أزيد نقطة بمقدار ما أراه كافيا لأن تلتفت إليّ.. ولما وجدتني أجدك ملىء قلبي تكحلت في كل عيوني وأصبحت عيوني كلها كحل..

- أنت يا ماريانا أريج العطور..

- وأنت ظلـّي وسماي ..

- أنت نسمات الطيب على قميص حريري..

- أنت تسحرني بكلماتك..

- ولولاكِ بدون ماريانا الحسناء ما كانت قصيدة حبي..

- وأنا لك..أقسم أن تكـون لي وحـدي.. عـدني يـا صبري .. .. .

وفي أول خميس بعد هذا الإطراء الذي منحه كل منهما للآخر.. ذهب صبري لزيارة ماريانا.. وعندما دخل بيتها شعر أنه يعبُر بوابة الأحزان إلى بوابة أخرى.. كان بيتها من طابقين تلفه حديقة صغيرة داخل سور عال يحضنها من الجهات الأربع.. حديقة شبه جرداء غير معتنى بها.. شجرة مانجو عتيقة يمينا وشجرة ليمون على اليسار غير أن النجيل الأخضر الكالح قد انتشر في أرجائها بدون تنسيق في أرض مشققة من شدة حاجتها إلى الماء.. باب الحديقة حديدي ثقيل مرتفع بارتفاع السياج زيّنت ضلفتاه بزجاج سميك في الجزء العلوي منه.. دفع الباب الثقيل ودخل ثم أعاده مقفلا كما كان.. دخل الباب الرئيسي للبيت وترك الطابق الأرضي المقفل وصعد للطابق الثاني فوجد بابا خشبيا كبيرا وعليه لافتة.. منزل السيدة ذكية الديب.. هذا هو.. كما وصفته ماريانا له كيف يدخل وكيف يصعد من الباب الرئيسي فيجد الطابق الأول مقفلا ثم يصعد إلى حيث باب البيت الذي تعيش فيه السيدة ذكية وابنتها ماريانا.. هكذا وصفت له وبكل دقة نفّذ ونجح حتى صعد إلى باب بيتها وطرق الباب..

وكأن شيئا يطرق رأسه ودقت نبضات قلبه كشاب في العقد الثالث يذهب إلى حبيبته.. احتضنت ضلفة الباب وهي تفتحه ووجدته أمامها كالصرح ومدّت له يدها مصافحة وشدت عليها بقوة فأمسك كل منهما كف الآخر وسكتا فرفع أناملها برقة إلى فمه وقبّلها وأسعدها ذلك وكادت تطير من

فرط سعادتها وقالت بصوت عال وكأنها تعلن نبأ وصـــوله إلى كل قطعة أثاث في البيت :

- ماما.. الأستاذ صبري وصل.. صـــبري يـــا مامـــا.. ..

تقدمت خطوة وأدخلته غرفة صالون فسيحة تكـــتظ بالمقاعـــد الفخمة المرصع جنباتها بمياه الذهب القديمة والتي كلما مرّ عليها الزمن لمعت وتلألأت .. جلس ورحّبت به وقعدت في مقابلـــه لحظة ثم دخلت إلى والدتها وهي تنادي بصوت خفيض مامـــا.. ماما .. وراح يتأمل أرجاء الغرفة الكبيرة والتي يمـــلأ حيطانهـــا لوحات لمناظر طبيعية وقصور وشوارع لمدن أوربيـــة قديمـــة.. وكان يتوسط اللوحات صورة لرجل مصري يرتـــدي جلبابـــا ويلف رأسه بشال عريض.. هو رجل ريفي أو صعيدي.. قـــد يكون والد ماريانا أو جدّها.. وكان وجه الرجل لما راح يدقق النظر إليه فيه شيئا استوقف صبرى فأخذ يتمعنه بـــين الفينـــة والأخرى وكأنه رأه من قبل، مرّت دقائق بعدها حملـــت إليـــه ماريانا صينية كبيرة امتلأت بثلاثة أطباق.. كيكة ومكـــسرات وثالثها تشكيلة من الحلوى.. ثم حملت إليه دورقا مـــن صـــاج يصعد منه دخان شراب ساخن يبدو أنه شايا وحوله جلاسات فارغة وملاعق وسكرية وصينية أخرى يتنوع فيهـــا البـــارد.. بيبسي.. ميراندا.. سفن.. وقال لها صبرى وهي تروح وتجـــيء وهو مندهش :

- أليس لك أن تهدأي .. ماهذا الذي أتيت به..إنه يكفي لأكثر من عيد ميلاد.. أرجوك .. كفي لا تأتي بشيء آخر.. أين ماما؟..

.. ولما دخلت عليه كان صوتها وعبارات الترحيب قد سبقتها قبل أن يراها أمامه..

- أهلا أهلا.. أهلا بالغالي.. نوّرت بيتنا يا غالي..

.. ونوّرت فقام إليها وانحنى قليلا وصافحها وانحنى ثانية ليقبّل يدها واستطاعت أن تأخذها من يده وهي تردد.. أستغفر الله يا بني..أستغفر الله.. كما قالت ماريانا أكثر :

- راجل أد الدنيا.. وزي الفل.. أنا مش مصدّقة إن النور كله في بيتنا..

صبري - لأ والله.. إنت كل النور ..

- ربنا يبارك لك يا حبيبي.. ماريانا حكت لي كل حاجة..إنت أكثر من كل حاجة.. وربنا بيختبرك وها يجيبلك ابنك.. منهم لله ..

.. سيدة تقترب من نهاية العقد السابع - عينان واسعتان بهما بقايا كحل ولكن تحت رموشها ذبول ويبدو أنها قد حزنت على زوجها كثيرا لّما مات وتركها في عمر الزهور وكانت ماريانا وقتها في الخامسة.. وراحت السيدة تقطع من

قرص الكيكة في طبق صغير لتضعه في يـده وتنتقـي مـن المكسرات خلاصتها في صحن آخر وتضعه في يـده و.. و .. حتى شعر بأنه لا يستطيع واستحلفها بالكفاية وراحوا جميعـا يحتسون البارد.. ولم يكن يشد انتباه صبرى أي لوحة بقدر ما كان يبحلق ويمعن النظر إلى صورة الرجل الذي يرتدي جلبابا ويلف رأسه بشال عريض وكان شاربه كثيفا ومطويا حـول شفتيه كأنه شارب ديك بربري.. ولّما لاحظت السيدة الكبيرة ذلك على صبرى قالت مشيرة باصبعها نحوه:

- هذا أبي..
- راجل أد الدنيا..كأني رأيته من قبل..
- إذا كنت قد رأيته فهو رآك..
- من أي بلد أنتم ياسيدتي
- من بلد قريبة من بلدكم ..
- يا سيدتي .. هذا جد..
- يا أستاذ صبرى أنا رأيتك وانت صغير..
- كيف .. وتلـفّت حوله وكبرت الصورة للرجل وتذكر الماضي قليلا.. ألبس هذا هو.. هل تعرفين يا سيدتي أن هـذا الرجل بالتمام والكمال يشبه رجلا كان صديقا لكل أهلـي.. إنه شبيه برجل يدعي الديب عطية إبراهيم ..

.. وضحكت السيدة بقوة وراحت في نوبات من الضحك العالي.. ولّما هدأت قليلا قالت وهي تهز رأسها وكأنها وجدت ماضيا عزيزا عليها في وجود صبري :

- قبل أن تأتينا عرفتك من أنت ومن أبـــوك وأعمامـــك.. وكل عائلتك .. يا صبري أنت الماضي الذي حضر ولن نفرّط فيه.. إن أحدا في هذه المدينة كلها لم يدخل بيتنا ولـــيس مـــن السهل علينا أن يدخل بيتنا أي أحد..

- ياه يا سيدتي .. وهل قمت بكافة التحريات عني قبل أن آتيك..

- نعم .. كانت ماريانا تحكي معك وعندما تعود تقـــول حديثك معها بالحرف والنص.. ولما تأكدت أنك صبري درديز أبو وافية.. كان لابد أن تأتيني .. وأن تأتي ماريانا بك..

- معنى هذا يا سيدتي أنك تعرفين أهلي جميعا..

- وأعرف أمك وأعرف أمك لبيبة وخالتك مجيدة وخالتك منصورة..

- ليس معقولا يا سيدتي وتعرفين زوجات أعمامي..

- وتضحك إذا قلت لك وأعرف الحاج حسين وعبدالعال والحاجة أم سلامة.. والحاج محمود..

- إذا يا سيدتي .. عمي الدين عطية إبراهيم .. من يكـــون لك..

- أبي.. أبي..

وقام إليها صبرى يضحك وكأنه يبكي وأمسك بكفي يديها وراح يقبلهما بينما راحت هي في بكاء شديد.

* * * * *

- أنا من شنشور من حارة توفيق سيد أحمد..وكان بيت أبي من أكبر بيوت الناحية القبلية .. حتى أن عمي درديـر وحداد كانا يستقبلان المسلمين والنصارى مع أبي..كان أبي يحل مشاكل المسلمين مع أعمامي ومشاكل المسيحيين مع بعضهم البعض مع أعمامي.. خاصة إذا كان كل من المتخاصمين يسكنان في الناحية القبلية قرب بيتنا..

- أشعر وكأنني وجدت بلدي كلها في بيتك..

.. وكانت السيدة تتناول طعامها وابتسامة ممتدة على وجهها وماريانا جد سعيدة بالتاريخ الذي لم تكن عاصرته.. وكنت أشعر وأنا أتناول الطعام الفخم معهما أنسي في ملأه: مريان.. وراحت تنثر ذكرياتها :

- في مرّة ذهبت إلى الحقل مع أبي.. فحملني أهل الملأة على أكتافهم وأرسلوا معي كل أنواع الفاكهة والخضروات من عمي دردير البطيخ وعمي حداد الذرة المشوية والعنب من الحاج حسين الجوافة والكمثرى ومن عبد العال السمك والخيار.. لكن الشيء الغريب والجميل الذي رأيته بعيني هو سنابل ..

- سنابل القمح..

- سنابل ابن الحاج أبو شاطية.. شاب يرتدي قميص الفلاحين المزّهر ويربط وسطه بحزام من التيل، كان له وجه يشبه حبة تين الجميز المستوية.

- ماذا فعل سنابل ..

- انني لم أكن حتى أتصور أن الريف به من الرجال مثله.

- أحاول أن أفهم يا سيدتي..

- لقد أخذني في قاربه ليعرّفني على أسرار البحر وكيف يصيدون السمك وكان يريد أن يوقع بي في غرفة على شاطيء البحر ولكنني هربت منه علنا حيث كنت أجري قاصدة البيوت وهو يجري خلفي يريد أن يجرني إلى عشة أخرى وسط الحقول ويغتصبني.. لكنني فلحت ووصلت إلى حيث يجلس أبي بين الرجالة.

- هناك رجال طيبون غيره.. للأسف سنابل هذا كان خطيرا لم يترك امرأة صياد جميلة إلا ونالها..

- انني لم أرَ رجالا آخرين..

- صاحب كازينو الشجرة سيد محمود، وأبو العز عبدالمنعم حداد، وحمدي مرعب الصيادين وثروت تاجر المواشي ومحمد

عبدالرسول شاعر الفسفية، واسحق تاجر اللبن وسيد حسين صاحب المقاهي وعبد العزيزالقذافي، ونساء كثيرات ساقطات، هذه الملأة مليئة بالحكايات والنوادر.. هذه الملأة كانت مسقط رأسي..

- وهذه الملأة فيها أرض أبي وفيها أحب الناس أبي وأحبهم..

- في زمان هذا العقد الذي بدأ من عام ١٩٥٢.. كان لوجه الحياة صفة واحدة والناس يعيشون في أمان على غذائهم وحياتهم.. وبعد عام ١٩٥٢ بدأت الأوراق تسقط في زيف مجموعة من العسكر سرقوا البلاد ونهبوها وبعد أكثر من خمسين عاما وصلنا إلى الصفر في كل شيء وأصبحنا بلدا بلا إيراد لا صناعة ولا زراعة ولا إنسانية..

- وفي وسط هذا الجو اختفينا من القرية وهربنا إلى هنا وسط مدينة كبيرة.. مات أبي وأمي من قبله بكثير.. ولمّا كان كل شيء حولنا مخيفا انكمشنا وقفلنا بابنا علينا إلى أن يرسل الله لنا مخرجا لنعيش حياة أفضل.. وكنت دائما أبحث عن الجذور لنحتمي فيها أنا وابنتي.. حتى الرجل الذي وجدنا ونشعر الآن أننا سنحصل على الأمان في كنفه اعتقلوا طفله.. لقد فهمت منذ أن علمت من ماريانا عن حكايتك أنه لا يوجد خرم إبرة واحد يلجأ الناس إليه ليحصلوا على أي أمان.. والآن

السؤال في كل البيوت وماذا بعد؟.. ألا يتوقفوا قليلا عن الظلم والبطش حتى يجد الناس مساحة ولو كانت ضيقة جدا ليروا منها بعض الضياء..

- آه يا سيدتي كل ما لديك من مشاعر وألم تجاه هؤلاء هو عندي وعند كل الناس وكلما أفكر فيه الآن أن أجد واسطة لنقل الطفل مع صغار مثله..

- فكرّت مثلك.. لي صديقة لها ابن برتبة عميد في مصلحة السجون سوف أكلمها بهذا الشأن والآن.. وقامت إلى الهاتف.. .. ..

- إزيك يا حبيبتي .. عاملة إيه في الدنيا.. من زمان ما سمعتش صوتك..

- إحنا كويسين..ماريانا كويسة..وأنتم وبنتك وابنك.

- أنا ليّ عندك طلب مهم.. ولد صغير خدوه اللي ينتصّوا في نظرهم.. مش عارفة مين؟ أمن الدولة.. يا ريت مرّة يكونوا أمن دولة بصحيح..شوف يا حبة عيني ستاشر سنة خدوه من حضن أبوه وعذبوه في السلام وبعدين خدوه لاظوغلي قعد فيها شوية.. وبقاله شهر في طرة..

- بتهمة إيه.. التهم عندهم مرصوصة وجاهزة.. آل تهمة محاولة الانتماء لجماعات إسلامية..

- إنت عارفة كل اللـي عمله الواد إنه قعد شهر يصلـي الفجر في الجامع دا كل تاريخه مع الدين.. والولد عمل كده علشان يسد الفراغ زي أي شاب صغير.. كان عـايز يـروح نادي الشمس أبوه ما قدرش يدفع أربعين ألف جنيه للنـادي.. الولد راح يلعب في التراك اللـي جنب فندق السلام العـرب كل يوم يجروا وراهم بالطوب.. وهكذا..

الولد لقي الحاجة الوحيدة المفتوحة مسجد صـغيّر جنـب البيت راحه.. سمع كلام جديد عليه لأول مرّة في الدين اللـي بيتجول بين أصحاب الدقون.. خلاصة الحكاية مرشد في الحتة عمل شغل على العيال معاه خمسة زيّه بلـّغ الرائد المسئول عن أمن الدولة في السلام بأن العيال دي بدأوا يحترفـوا الجـامع وبيقعدوا حوالين الشيخ بعد الصلاة.. آدي كل الحكاية كـان فيه شعار في الوزارة بتحققه أمن الدولة وهو القـضاء علـى المنابت ويجب تبليغ الرسالة لكل بيـت وحـارة وشـارع في مصر..

بدأوا في حملات كثيفة ورهيبة وعشوائية في لمْ العيال الصغيّرة اللـي تروح الجوامع.. يعني الـسواد راح في الـرجلين.. هـمّ نفسهم ضباط أمن الدولة قالوا دي هوجة علشان تحقيق سياسة معينة وهي القضاء على المنابت.. آدي كل الحكاية..

- اللـي عايزاه منك إنك تكلمي ابنك العميد منير ينقـل الولد مع عيال صغـيرين زيّه..

- أيوه قاعد مع ناس كبار في السن وذقنهم تبلط الأرض.. الولد ها يتلوث من الناس دي.. أبوه نفسه لو حطّوه معاهم ها يلطّوه ومش ها يقدر عليهم..

- يعني ها تكلّميه.. يارب ينجيك.. اسمه محمود صبري دردير.. سجن استقبال طرة.. كفاية.. طيب ها تردّي عليا إمتي.. يومين تلاتة..ربنا يخليك ليّا.. مع السلامة يا حبيبتي.

* * * * *

وجلست السيدة مرّة أخرى بيننا وهي جد سعيدة بعد انتهاء مكالمتها مع صديقتها.. هدّجت أنفاسها قليلا وهزّت رأسها وهي تجيل بصرها نحو صبري وقالت:

- إن شاء الله ها تعمل حاجة.. يا رب..

وكانت ماريانا تروح وتجيء وهي تحمل الأطباق الفارغة إلى مطبخها وابتسامة عريضة كست وجهها بالرضا والسعادة اللتان لم تشعر بهما من قبل.. وكان صبري يثني عليها بأرق كلمات الشكر والثناء على واجب الضيافة الذي قامت به نحوه والحفاوة البالغة التي نالها من هذا البيت الكريم.. وفي رقة بالغة استأذنت السيدة الكبيرة صبري في أن تدخل إلى غرفتها لتستريح قليلا؟

- شوية يا ابني العزيز..ادخل أرتاح كأنك في بيتك.. خليك مع ماريانا ما تمشيش.

.. وارتدت ماريانا ثوبا رقيقا شفافا، وجاءت إليه تجلس في مقابلته ولّما وضعت ساقا على ساق كان الثوب يـزداد جمـالا وهو يكشف قليلا من ساقيها ولولا جمال جسدها مـا كـان للثوب معنى أن ترتديه.. فإذا ارتدت ماريانا ثوبا مـن خـيش تبّدل الثوب وأصبح من حرير..هكذا كان الجمال ينطق مـن كل شيء فيها.. وجهها الملائكي أشنودة جميلة وثغرها سـحر وجميلة وصوتها في الحديث سلاسل من ذهب ورضا بها شـهد في قصور العجم وعيناها النجلاوان قمر يـنير الليـل وفجـر وعجب.. وشعرها المنثور على كتفيها.. لولاه ما كان للعشاق طريق وجسد وماكان لليل ضياء من قمر.. آه يا ماريانا ما أنت إلا سحر وصخب..آه يا ماريانا هل أنت خيال جاءني لأعـبر أحزاني على ولدي أم أنت واقع جميع قد وقع..

هكذا حلـّت به وحلّ بها.. أرخت بجسدها فوق المقعـد فاهتز كأن سـلاما لامـسه فاستـسلم واكتظـت أسـنانها وارتعشت..تفسّخ شيء في كيانه لّما وجد نفسه يرتمـي عـى صفحة وجهها وقالت في همس بالغ الرقة :

- تعال يا صبري.. قبـّـني..ضمّني..

وشعر برغبة جامحة نحوها كمن يريد أن يجفف أحزانه بريقها أو يبلـل شجنه برضابها..

قام إليها وجثا بركبتيه واحتضن ساقيها بجسده وانحنى قليلاً وقبّل يدها ثم احتضنها بكلتا يديه فاستسلمت لحضنه وانكشف قميصها عن جسدها وتسللت يده برشاقة تحت شعرها المنثور على كتفيها وراح يدغدغ جيدها بلهفة ورقة كأنــه يـدخل بستان زهر، ولم تنظر إليه ودعته وهمست مرّة أخرى :

- خذني إلى الأرض .

وحملها كما دعته فانكشف الجسد المثير كله أمامه.. كــان الحريق في جسده شديداً وهي الفرسة الجامحــة عــادت عامــة مستسلمة له وبين ذراعيه تدعوه أن يشعل حريقــه ويطفــئ حريقها وتفتح فيها ما كان مغلقاً وارتعشت ساقيها بين يديــه، ودعته صــامتة.. دعتــه بطاعــة كــل جــزء في جــسدها لجسده..وكانت ترمقه في إندهاش بعيون ناعسة حالمة مناديــة كأن موسيقى تعزف من بين رموشها تـدعوه أن يــستمر في عزفه.. تدعوه أن يعزف أكثر مما يعزفه العازف بجيتار..

كمن تقول له..هذا جيتاري بين يــديك فــأين عزفــك.. تبعثرت أوراقها وساعدته بأناملها الرقيقة في خلعهــا.. ومــن يكتب الأوراق ثم يعيدها ومن يمرر القــبلات علــى أســرار الجسد.. ولمّا طبع قبلاته هنا وهناك فوق أسرارها همست للمرة الثالثة: أنت الرجل الذي عرف أسرار جسدي .. كنت أشــعر أنك ستكتشف أسراره فساعدتك وخلعت أوراقي..

أدركت أنها أمام رجل حقيقي فتركته يعزف ألحانه، وفتحت له كل أسباب وينابيع الحب في أعماق قلبها وصرخات جسدها الذي بات يصرخ منذ سنين يبحث عن رجل..ولم يكن في المدينة إلا قليل يعرفون العزف..المدينة كلها مدينة تكتظ بالرجال والنساء.. ولكن إذا كان شغلنا الشاغل هو البحث عن رغيف وغموس للعيش..الناس فيها يطفحون جهدًا ويشبعون ذلا حتى تصل اللقمة إلى أفواههم.. فكيف لهؤلاء الذين يعيشون في شقاء..كيف لأي واحد منهم والهم قد اعتراه أن يغرف وأن يخترق جسد أمرأة كعازف يهنأ بالعيش ولا يشغله البحث عن رغيف للعيش.. ولهذا كوّن الأشقياء والفقراء حبا خاصا بهم تحفه جدران التوتر والخوف من كل جانب فكيف يكون هذا حبا.. إن مدينة عازفة بالحب ولا يشغل أهلها نكد الحياة تختلف تماما عن مدينة مثل مدينتي ينهار فيها كل شيء.. فكيف لمدينة تحيا بدون حب.. وكيف لمدينة تحيا بحب مريض.. الحب في مدينتي يخاف أن يولد.. الحب في مدينتي حب موتور خائف جائع وإن عاش يُعتقل..

..ولم ينتهي العزف طول الليل حتى بزغ الفجر وكان يشعر بكثير من الخجل عندما انتهي معها ولكنها كسرت خجله وقالت وهي تأخذه إلى حمام البيت :

- خذ حمّامك وتعال إلى غرفتي..

- أليس لي أن أذهب؟!

- لا تخرج من بيتي اليوم.. لن تخرج إلى مدينة يخلوا النـــاس فيها من أي شيء.. أخاف أن تصبح مثل أهل المدينـــة.. إن في بيتي مدينة جميلة لن تتركها أبدا ..

* * * * *

ولأول مرة تدخل عليه عارية تماما إلا من قميص شـــفاف قصير، استلقت بجانبه في دلال وراح يقبّل يدها ونفير جـــسدها ينادي نفير جسده فخلعت قميصها لتحصد جـــسده بـــدون موانع، وشعر بأنه في جزيرة بعيدة عن العالم لا يسكنها إلا هو، وماريانا.. وتعلقت عيناه برموش عينيها التي راحت تناديه بقوة فراح يقبّل جبينها وشعرها وأهدابها حتى لقى شفتيها وكانـــت تتلوى وهي تعصر شفتيه وتكوّرت من تحته كنحلة تمصّ العسل من زهرة لاتنضب،وكانت تتلوى كالفراشة ويقبض جـــسدها على جسده و لم يكن يستطيع أن يبتعد من إعـــصار جـــسدها المذهل.. عود قصب ينثني وغصن بان يطقطق..تـــارة تنفـــرد وأخرى تنكمش وثالثة تقفز..ربيع يتفتح وأرض تنـــشق عـــن الخصب ورياح العشق تطير..الورد لا ينتحر مع الذين يعرفـــون الحب،ولكنه يذبل في أيدي العابثين، ونعومة الأنامل تعزف على أوتارها فينبعث اللحن الجميل وأشواك الزهور لاتجرح من يروى أغصانها.. كان يشمّ أريج البنفسج في همسها ويـــسمع أنـــين

السواقي التي كان ينام عليها وهو طفل فيحلم بأن عالمنا مسن الحب ينتظره في مدينة كبيرة لكنه لم ير أبدا أنها ستكون شديدة الفقر..

وعند الظهر تيقظا قليلا من سكرات الحب فقالت وهي تمسك يده وتقبلها:

- كم أنت بديعة يا ملأة مريان.. أحبتك.. أنت يا صبرى منك الحب.

- هل كان أحد يتصور أن من ظهر جدك الرجل الذي كان يرتدي جلبابا ويمتطي حمارا أن يكون له حفيدة مثلك.. إنني لو ذهبت إلى كل العالم فلن أجد امرأة في جمال فتنتك.. والله إنني اندهش كيف لكفر مريان يشنشور أن تكون له حفيدة بديعة.. رحم الله عمي الديب عطية إبراهيم..

- رحم الله عمي دردير أبو وافية لأنه أنجب رجلا مثلك.. إن رجلا بهذه الرقة يكون له مثل هذه الفحولة..إنه سر من أسرار الله أن يكون هناك رجل هكذا. لو كان في كل قرية رجل مثل صبرى دردير لذهب الفقر والجهل والمرض عن كل أرجاء القرية.. ولو كان في كل بيت رجل فيه نسبة فنية في فن حبك مع المرأة لما كانت هناك دعارة في أي قرية..

- إنك تبالغين يا جميلتي.. إن الحب موجود في كل مكان وليس كل الرجال والنساء من مريان و لو كان الفقر يذهب

بوجود رجال مثلي كما قلت لاستعانت كل دول العالم الفقيرة برجال.. المشكلة أن الرجـــال موجـــودون في كـــل أنحـــاء العالم..ولكن المشكلة في سر الحب وسر الجسد.

- إنني لا أستطيع أن التقي بكل امرأة في قريتي حتى أخرج الفقر من دارها..

- أنا أعرف أنك لن تستطيع ذلك..ولكنك تـــستطيع أن تمشي في القرية وتدعو الرجال لفن الحب، وفن الجمال وفـــن اللقاء وفن...

- إن الفقر لا يخرج أبدا من ديار فيها رجـــال ونـــساء في غيبوبة.. لابد لأهل الديار من يقظة، وأن تعود القـــرى كمـــا كانت تزرع القمح والقطن والذرة فوق قباب الأفران ولابد أن تعود أعواد الحطب والقطن والقصب إلى حيث كانت في كـــل دار، وأن يخرج الفلاح إلى حقله بعد صلاة الفجر..

- هذه دعوة يعرفها الناس جميعا ويدعون لها.. لكن هـــل هناك سر لفحولة الرجال..

- ما أستطيع أن أقوله أن أمي كانت تطعمني من المحمـــة.. بطاطا مشوية من المحمة وبطاطس وكعك من المحمة ناهيك عن الفطير والمخروطة وحليب الدست والقشطة وربما يكون الـــسر

الكبير كامن في أن أمي وأبي أرضعوني لبن حمار مخلّطاً بلبن فرس بجانب لبن أمي،وهذه كانت وصفة أهل القرية لأبي كي أعيش..يا سيدتي ربما يكون السر في كل هذه الأشياء أو بعضها..

قليل من الوقت وراحت ماريانا في نوم عميق واستطاع صبرى أن يذهب إلى بيت أبنائه في هدوء بعد أن قفل الباب عليها ولا يعرف ماذا يقول لهم عن الليلة البارحة أين كان؟..

* * * * *

ولما دخل بيته وجد زوجته نائمة ومحمد يأخذ درساً في الإنجليزية عند زميل له، وبسنت في فراشها يقظة تحاول أن تنام..دخلت غرفتي ونمت نوما عميقا. وعندما استيقظت لم يسألني أحد أين كنت الليلة البارحة، وعندما كنت أستعد للذهاب إلى عملي قبل المغرب أخبرت زوجتي وأولادي بأنني مسافر الليلة إلى البلد في أمر ضروري وكان رد زوجتي دائماً بعد أن أصبحت شبه قعيدة في البيت تجيب على كل شيء..طيب.. طيب.. فلم يعد يشغلها أي شيء في الدنيا مهما كانت أهميته غير التفكير في ابنها والدعاء له والدعاء عليهم.

في العمل وجدت حبيبتي ماريانا تنكفيء على الحاسب وتؤدى عملها برحابة وسعة، واستقبلتني بابتسامة ظلت تكسو

وجهها طيلة وقت العمل هذا المساء .. وانـشغلت بترتيـب وتنظيم التقارير، والتحاليل المالية التي أقوم بإعدادها والتعليـق عليها لتقوم ماريانا بكتابتها على الحاسب في شـكل خـرائط ودوائر وخطوط بيانية تظهر مدى نجاح أو إنكسار في فـروع الشركات المختلفة.. لكن بعد أن قطعنا وقتا طويلا في ذلـك أدارت ماريانا حديثا متقطعا بيني وبينها حتى انتهينا من عملنـا في الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل..

- هربت مني وأنا نائمة.. هل أنا مزعجة إلى هذا الحد؟؟

- أنت تعرفين أنك أغلى وأحلى ما في حياتي.. لكنني بعد أن اطمأننت عليك ووجدتك في نوم عميق كان عليّ أن أذهب إلى بيت الأبناء لاطمئن عليهم وأعود..

- هل سألتك زوجتك أين كنت؟

- لم تسألني عن شيء إنها غارقة في أحزانها ويبدو أنهـا لا تدري بشيء حولها..

- كيف ؟

- كلما قلت لها شيئا.. تقول.. طيب.. طيب وخلاص..

- أخاف أن تلقاها وأن تعود علاقتك بها قبل أن يـذهب ولدك..

- ألم أخبرك أنها اتخذت قرارا بعدم معاشرتي أبدا حتى لا تلد ولدا يُعتقل.

- النساء تتغير أحوالهن من حين إلى حين.

- ياماريانا بعد أن ذقت شراب المانجو هل أذهب لأشرب الخروب.

- أرجوك..أنت لي وحدي وإذا ذهبت مني إلى أي امرأة في الدنيا سوف أقتل نفسي.. فأرجوك أن تكون حريصا على حياتي.

- سوف يبدأ يومنا بعد الانتهاء من العمل.. إننا جهزنا لك اليوم غداءً طيبا.

- وهل ستأخذيني كل ليلة إلى بيتك.

- إنك لن تذهب إلى بيت آخر غير بيتي بعد اليوم.. لقد حجزتك لنفسي ولن تستطيع أي قوة في الوجود أن تأخذك مني..ولن تكون حرا بعد اليوم في أن تذهب هنا أوهناك إلا بأمر مني..

وراح صبرى يقهقه.

وبعد منتصف الليل نزلا من السنتر واتجهت ماريانا لعربتها وهو يتبعها من بعد.. وبعيدا عن شارع متحف المطرية ركبت عند ناصية شارع مظلم ولما لحقت بها ودلفت بجانبها انطلقت

ماريانا بسرعة مجتازة ميدان الحلمية حتى إذا بلغت الميدان الصغير قبل كوبرى المطرية دخلت المركبة يسارا متجهة إلى البيت الجديد في حدائق الزيتون،ونزل صبرى ليدفع لها الباب الحديدي الثقيل فدخلت بالسيارة حتى قرب باب البيت الداخلي ونزلت وقفلت أبوابها ثم انقلبت لتقفل الباب الحديدى مع صبرى ولفت حول ضلفتيه الجنزير وأدخلت في حلقاته القفل وأحكمت قفله.. وهرولت وكانت تضحك وفتحت الباب وخلفها صبرى وهي تقول تعال..تعال.. لقد قفلت عليك كل الأبواب ولن تستطيع القفز من السور.. لقد سيّجه أبي بالزجاج المكسور حتى لا يستطيع حرامي محترف اجتيازه.. تعال.. لقد دخلت ولن تخرج.. سوف يتم القبض عليك..وراح يقهقه مرة أخرى وهو يصعد خلفها الدرج وقال وهي تطرق الباب:

- ألا يكفي القبض على ولدي..

- باسم الحب قبضت عليك.. لا تحزني الآن.. ليتني ما نطقت بالكلمة التي تعني الكثير.. بالابتسامة العريضة والكلمات الحلوة والأحضان استقبلته السيدة الكبيرة وقالت بعد أن جلست بجانبه:

- في لهفة أنتظركما..حمدا لله على سلامتك..على سلامتكم.. أيوجد محاسب في مدينتي ومديرة تعمل بعد منتصف الليل ؟

- اتفقت مع صاحب العمل يا سيدتي الفاضلة أن أنجز عمله بلا تأخير.. شركات كثيرة وتقارير مالية مهمة يجب انجازهــا يوميا حتى يمكن اتخاذ القرارات الإدارية الصائبة وفي الوقــت المناسب.. وهذا ما يرضي الطرفين ويكفي أنه وافق علــى أن أعمل في أي وقت تقديرا لظروف ابني..

هزّت السيدة رأسها دلالة على صحة كلام صبرى وقالــت وهي تشير إلى المنضدة:

- هذا خروف مشوي وأرز جاءني به عامل المطعم.. أظنك ترغب في مثل هذا الطعام الدسم..

- ياه يا سيدتي ولماذا كل هذه التكلفة..يكفيني قطعتان من اللحم..

- لا..لا.. لسنا بخلاء..أريدك أن تتذكر أيام أمك عنــدما كنت صبيا.. كان الناس في القرية من بحري لقبلي يقولــون .. سيدتان في القرية خير من يقدّم الطعام لأبنائهما... أكيد أنــت تعرف من هما :

- أريدك أن تقولي أنت يا سيدتي كلماتك مثل الــشهد في طبق شفاف..

- أمك الست حميدة فودة والست ستيتة الصاوي..كلاهما كانتا من أكرم نساء القرية وكانتا أشهر سيدتان تشتريان طيور سوق الخميس من الفلاحات..

كان الطعام شهيا وبقي منه الكثير فحملته السيدة الكبيرة إلى المطبخ وكانت الساعة الثانية والنصف فانتقلنا إلى غرفة الصالون وجلسنا ثلاثتنا نتحدث ونتسامر حتى بلغ الوقت الرابعة، بعد ذلك أخذ الحديث مأخذ الجد حين بادرتنا السيدة قائلة :

- أظن يا بني أن العلاقة بينك وبين ماريانا أصبحت حميمة جدا وأنه عليك..

- وسكتت وهي تبتسم إلى صبرى فقال :

- إنني دائما يا سيدتي أهوى أن تكملي كلامك.. وخير لي دائما أن تقولي ما تريه خيرا لي.. فإنني لن أجد في مدينتي كلها من يحبني أكثر منكما..

- وعليه يا صبرى فإنت تثق فيما أقوله والمهم أن تعمل ما أراه صحيحا لك ولمارينا ..

- نعم يا سيدتي ..إن ما تحكمي به أنفذه فورا..

- طالما تستطيع وأن يكون في تنفيذ هذا الشيء خير لكلانا..

- أكيد .. أكيد يا سيدتي ..

وصمتت برهة .. ثم قالت وهي تنظر إلى كل وجهه :

- تزوج ماريانا يا صبري..

- آه يا سيدتي لقد نزعتِ مني ما كان يتعلق داخلي وما كنت أنوي مفاتحتك فيه.. وكنت أظن أن أطلب ذلك فيكون لك رأيا آخر... .

- كيف يا صبرى وهذا مطلب كل أم.. أنا وابنتي في حاجة إلى رجل مثلك.. لقد جمعتنا الأرض كما كانت تجمع أبي وأبيك .. ولو تتأمل قليلا كيف أراد الله أن يجمعنا بك.. وكيف أن عملك في هذه الشركات وعمل ابنتي فيها.. كيف لكل هذه الأقدار أن تجمع من كانوا في ملأة مريان منذ عقود طويلة أن تجمع الأبناء والأحفاد في كيان واحد مرة أخرى ،أن تكون الصدفة وحدها في مدينة يتوه فيها الناس أن تجمع بينك وبين ابنتي بهذا الحظ الجميل من القدر.. لو تأملنا قليلا كيف جمعتنا دروب الحياة ووفقت بيننا أكيد هذا من رضاء الله علينا..

- كلام كبير وحديث هائل يا سيدتي.. وأنا أتفق معك في كل كلمة فيه.. أيرضيك يا سيدتي أن نتزوج الآن..

وضحكت السيدة ملأ فيها وقالت :

- وكيف لأحد أن يتزوج في مثل هذه الساعة من الصباح الباكر؟

- غدا بعد الظهر يا سيدتي..

- هذا مناسب لكلينا.. هل تدعو أحدا..

- لا ..يكفيني نحن وبعض الناس اللازمين لإتمام مراسم الزواج..

- افعل ما تريد.. ونحن لن ندعو أحدا..لا نعرف أحدا حتى يحضر معنا.. يكفينا أن يكون الله معنا.

.. وتم الزواج بلا مراسم.. وتم الزواج بما يرضي الله..

وبدأت أتحرر من أحزاني..كان ألمي على ولدي يقبض على قلبي ويكاد يشطر شيئا من عقلي .. لكنني وبمرور الأيام بعد الزواج من ماريانا شعرت بأنني حرا حتى من قيود تلك الأيام..وأن الله جعل لكل إنسان في بأس رحمة تنقذه من بأسه ولكن ليس كل الناس يرون هذه الرحمة..

وفي يوم كنا نجلس ثلاثتنا في المساء ورّن جرس الهاتف وكان المتحدث السيدة أم العميد الذي يعمل في مصلحة السجون وتحدثت مع أم ماريانا كثيرا وفجأة نادتني السيدة الكبيرة وهي تمسك بسماعة الهاتف قائلة ؟

- السيدة عزيزة تريد أن تقول شيئا ..

وتناولت الهاتف من يدها قائلا في رقة:

- آلو.. أهلا ياسيدتي..

- أهلا يا حبيبي.. كان الله في عونك.. ابني سأل عن كمل حاجة عن ابنك.. لكن هوّ دلوقتي هايقدر يجيب زيارة وبعدين حكاية نقله في زنزانة مع صغار مثله.. ها يعملها بس شوية ..

- ياه إلى هذه الدرجة ..

- إنت فاكر إيه.. على فكرة إوعى تفكّر إن ضابط الشرطة يقدر يعمل كل حاجة.. ياعزيزي يا بني.. إن ضابط الشرطة يخاف من فوق ومن تحت.. يخاف من النقل ومن العقاب من رؤسائه ومن أي خطأ حوله حتى لا يتحمله في آخر الأمر.. لا تصدّق إن قلت لك أنه خائف على زوجته وعلى أولاده وعلى مرتبه الذي لا يكفيه.. كل شيء حول ابني يخافه، وهذا حال أي ضابط فكيف يحقق لنا أمانا وذلك ناتج عن الإدارات المرتعشة والمرتبكة وعن السياسيات.. لا تظلم ضابط الشرطة إنه يعيش حياة متوترة غير مستقرة وهذه طبيعة أعمالهم.. وحينما تكون هناك قسوة في تصرفاته ذلك ناتج عن القسوة التي تدفعه لهذه القسوة..

- يا سيدتي الفاضلة ربما أنت تتعاطفين مع ضابط الشرطة لتعاطفك مع إبنك..

- صدّقني يا أستاذ صبري هذا هو الحاصل..

- أفهم من هذا أن ابنك العزيز سوف يأتي لنا بزيارة..

- في خلال أيام..

- وموضوع نقله إلى زنزانة أخرى صعب عليه..

- ليس ذلك تماما.. ولكن ربما يكون ذلك سياسة لأمن الدولة في المعتقل..ولكن سوف يأتي بها..وعليناأن ننتظره بعض الوقت ليفعل هذا..

- يا سيدتي لك مني جزيل الشكر وهذا كثير عليّ..هـل تريدين السيدة زكية ..

- نعم اعطها لي..

* * * * *

في الأيام التي مضت منذ اعتقال ولدي ترسخت العبودية في داخلي وبدأت أخاف من كل شيء وملأني إحساس بأن كـل واحد في بلدي وحش وأن الناس جميعا حتى الفقـراء بـدأوا يعتدون على بعض بأشكال متعددة لم تكن موجودة من قبل.. وتركوا المجتمع يأكل بعضه بعضا.. وإذا كان هذا شعور يحتوى داخلي وأنا إسمحوا لي في وظيفة مرموقة كمحاسب ومدير مالي معروف في معظم شركات القطاع الخاص بكفـاءتي وكنـت مرشحا لأن أكون عضوا في مجلس الشعب عام ١٩٨٤ والذي رشحني لخوض هذه الانتخابات من خيرة النـاس في محـافظتي وهم الدكتور محمد أبو الغار وسعد عطية وتوفيق محاريق عمدة فيشا وهم جميعا من الناس الذين يملكون نفـوذا اجتماعيـا في بلادهم ونواحيهم.. نفوذ اجتماعي طبيعي بمعنى أنهم يملكـون حبا طبيعيا من جماهير عريضة في المجتمع المصري.. ناهيك عـن أني عضو في اتحاد كتاب مصر منذ عام ١٩٩١وعـضو نـادي القصة المصري.. وخضت تاريخا مشرفا عندما كنـت أعمـل

محاسبا بالعراق في أوائل الثمانينيات مع المخـــابرات العراقيـــة وأشاوس حزب البعث العراقي.. حينما كانوا يدعونني للعمـــل في مخابراتهم بإغراءاتهم،وكم كنت أتمنى أن أتعـــاون معهـــم إذا كان عملي هذا ضد عدو حقيقي للإنسانية واسمحوا لي مـــرّة ثانية أن أسرد باختصار الحوار الذي دار مرارا وتكـــرارا مـــع ضباط المخابرات العراقية في مدينة الموصل:

الضابط : نحن نعرف أنك محبوب في الدائرة وأنـــك تقـــيم علاقات اجتماعية طيبة مع معظم العاملين في خـــدمات بـــرق وهاتف الموصل..

صبري : هذا صحيح إنني أحب الناس لأنهم زملائي وعلاقتي بهم جميعا من أجل إنجاز عمل مالي قوي ومن المعروف أنـــه لا يمكن لأي جماعة أن تنجح في عملها دون أن يكـــون هنـــاك بعض من الحب والمودة بينهم.. أنا من أشـــد النـــاس الـــذين يؤيدون إقامة علاقات طيبة بين الناس..

الضابط: من أجل هذا جئنا لك نحن نعرف أنك محبوب بين العاملين في الدائرة.. وعليه فإننا نريد أن تتعاون معنا.

صبري : كيف.. لا أفهم؟

الضابط: أنت تعرف أن الشعب العراقي فيـــه أكثـــر مـــن عشرين قومية ومذهب.. الشيعة والسنة واليزيديـــة والأكـــراد والتركمان وأحفاد النمرود و.. و.. إنك الوحيد الممكـــن أن

تعرف اتجاهاتهم وأسرارهم حتى نستطيع أن نحكم قبضتنا على هذا المجتمع المختلف..

صبري : ما المطلوب مني بالضبط؟

الضابط: أن تكتب لنا تقارير عن هؤلاء الناس واتجاهاتهم وآرائهم خاصة تجاه قائد القومية العربية سيّدي الرئيس صدام حسين ..

وقلت منافقا لأدراي الحقيقة بداخلي :

- هذا الرئيس الفذ هو حقا القائد والبطل ونحن جميعا نحبه وأنا مستعد للتعاون من أجله..ولكن صدقني يا عزيزي أن كل الناس بمختلف إتجاهاتهم يحبونه.. وفي أي وقت وجدت أي اتجاه ضده سوف أبلغكم..

وكانت الحقيقة غير ذلك ..أن الجميع بكل اختلافاتهم يكرهونه كرها شديدا وأن الظاهر يحبونه من أجل أن يعيشوا وأن يستمروا في وظائفهم وحياتهم..لأن الجميع في شعب الموصل يعرف تماما أنه لو قال رأيا حرا بسيطا أو حتى كلمة ولا تعجب النظام فإنهم يأخذونه من بيته في وضح النهار ولا يعود أبدا.. كان حكم المقصلة والقهروالاستبداد في أشد صوره.

..وظلّوا في هذه الحوارات والضغوط حتى استحلفوا بي بأن يوقعوني في فخ نصبوه لي..وذلك لتأكدهم تماما بأنني أراوغ

وأرفض التعاون معهم.. وأحلف بالله بأنني لو كنت إنسانا وضيعا وحقيرا ولم أتربى في بيت لتعاونت معهم ولطارت عشرات الرقاب معي في الدائرة رجالا ونساءً حيث إنهم كانوا جميعا يثقون بي ويحبونني ويبيحون لي بما في نفوسهم وكرههم الشديد للنظام..

وفي يوم من الأيام شعر بي صديق موصلي بأن هناك شيئا يدور حولي وفاتحني في الموضوع:

- ياعزيزي صبري.. من هوالشاب الطويل الأنيق الذي يأتيك ويجالسك في العمل ويحكي معك في همس وزياراته لك شبه منتظمة..

- والله ياعزيزي أبو ذكرى..إنه ضابط مخابرات..

- وماذا يريد منك..

- يريدني أن أتعاون معهم..

- على من؟

- أن أكتب لهم عن اتجاهات الناس في الدائرة نحو القائد وحزب البعث و..

- هذه مصيبة بلادنا.. إنه لأسف شديد على العصابة التي تحكم بلادنا..

- لا تخف عليّ يا عزيزي إنني أراوغهم منذ أكثر من أربع سنوات..

- إذا طلبت مني أن أبعدهم عنك من الآن أبعدهم..

- كيف يا عزيزي وهل لك مثل هذه القوة في بلد عـــرّاه صدام حسين ونكّل به..

- نعم.. سوف أفضيك سرا.. ابن خالي لزم.. العميد خليل شاكر يعمل أمين سر المخابرات العراقية..

- والله.. صحيح..

- آي والله.. دعني أبعدهم عنك..

- لا تخف يا عزيزي عليّ إنني ناجح في مراوغتهم حـــتى الآن..

* * * * *

.. ومرت الأيام بعدها حتى أوقعوا بي وأثاروني في الحديث وسجّلوا حديثي معهم.. وتم اعتقالي في يوم ١٩٨٣/٩/٥ مـــن عملي.. ما هي التهم التي دخلت بها المعتقل.. وكيف كنـــت جاسوسا للمخابرات النمساوية وكيف كان حال أســـرتي في مدينة غريبة وكيف نقلوني من معتقـــل الموصـــل إلى معتقـــل بغداد.. هذا موضوع كبير ومهول في أحداثه ربما أتطرق إليـــه عندما أتأمل الحياة حولي في بلادي وتسرح ذاكرتي فيما مضى.

.. لكن لماذا تذكرت وسردت تلك الأحداث.. هل ورث إبني الاعتقال عنّي..ولماذا أنا دون أحد من أقراني وأهل بلـــدي

الذي يعتقل في بلد غريب.. ولماذا يعتقل نظام صدام حسين الشرفاء ومن لهم مبادىء..وكيف أكون جاسوسا على شعب العراق.. هل هذا نظام الشرفاء الذين يحكمون بلادهم بالحديد والنار..إن أجهزة الأمن المصري بكل تنوعاتها لم تعرف هذه التفاصيل وماذا يحدث للمصريين في بلاد العرب أو أنها تعرف ولا تفعل شيئا.. وهل لو كانت أجهزة الأمن هذه تعرف قصتي ونضالي في مقاومة المخابرات العراقية وحتى لا أضر بأحد من شرفاء الموصل.. هل يميز النظام المصري بين مواطن هو خير عنوان لمصر والمصريين ما كانت تعتقل ابني البريء.. وهل نصيب الشرفاء في بلاد العرب جميعا أن يتم اعتقالهم واعتقال أبنائهم لأنهم أصحاب مبادىء ولا يقومون بأعمال تساعد وترضى النظام..

وبكيت على حال بلادي وحال بلاد العرب لأن المواطن فيها ملطشة لا أمان ولا حياة ولا حرية ولا ديمقراطية ولا عدل..وكان عليّ أن أعبر تلك الأحداث المؤلمة التي كانت قدري في مدينة الموصل وأن أعيش واقعي المؤلم في بلادي.. ورحت أفكّر وأقول لنفسي.. كما زرع الله واحدا مهما يعمل في المخابرات العراقية وساعدني من خرم إبرة في أن يتم الإفراج عني من هذا المعتقل الرهيب.. لكنت واحدا من الموتى الذين يعودون في صناديق إلى مصر.. إن الله قادر على أن يسبّب الأسباب لانتزاع ابني الطفل البري من براثن معتقل الظلام في طرة ..

وأقول للذين قاموا باعتقال إبني إن أي واحد منكم لو ذهب إلى مدينة الموصل وتحدث مع شعبها الطيب.. لتركوا حكايات المصريين جميعا في مدينتهم وحكوا له حكايـة البطـل كمـا يطلقون عليه خاصة بعد خروجه سليما من أغلال وقيود صدام حسين..سوف يقولون لكم جميعا.. إن المحاسب صبرى دردير المصري الذي كان يعمل مسئول التدقيق الـداخلي والميزانيـة لخدمات برق وهاتف الموصل منذ عام١٩٧٩وحتى نهاية عـام ١٩٨٣..كان بطلا وكان الله معه حينما رفض كل إغـراءات المخابرات لكي يكون جاسوسا على الشعب الموصلي.. لقـد فدى رؤوس كل أصدقائه في الموصـل مـن المقـصلة وراوغ وتصادم حتى تم اعتقاله.. ولولا أنه راعى الله في حياته وخـاف على كل أصدقائه الأبرياء من الذبح.. ولأنه ناضل وراعـى الله لما أنقذه الله بالعناية الإلهية من ظلمات معتقل بغداد ولعـاد إلى بلاده في صندوق كما كان يعود أهل بلـده كـل يـوم إلى القاهرة..عادي جدا أن يتوه الشرفاء.. وعادي جدا أن يـساق كل من له تاريخ مشرّف إلى التيه والظلام..

ولأول مرة أحكي عن أحداثي المؤلمة في العراق بعد ربع قرن من مغادرة أهل الموصل، وليتني ما حكيت ولو حكيت لمـلأت مجلدات عن أحوال القهر والسفالة والانحطاط التي كان يمارسها نظام صدام حسين مع الشعب العراقي..أشعر أنني خـسرت

كثيرا عندما تكلمت لأن كلامي لن يكسر جناح القهر الـــذي ينتشر.. وكان خير لي أن أصمت لأن الـــصمت خـــير مـــن الكلام..وأن يذهب الإنسان في غيبوبة ليتجنب جـــو الحيـــاة المعتمة خير من الحياة في زمن رديء..

٤

كلمة الله الأولى هي الإنسان.. عزة الفرد وكرامته وعدلـه وحريته.. ولقد خلقنا الله فرادي ليكون كل منا مسئولا عـن نفسه في دنياه وآخرته.. وجئتمونا فرادى كما خلقنـاكم أول مرة.. القرآن الكريم.. فليجتمع الناس جميعا من أجـل رفعـة بعضهم البعض وعلى الإنسان أن يرتقي بنفسه وأن يخترق بمـا استطاع ظلام تلك الحياة للوصول إلى بصيص من النور ينقذ بها حياته، وعليه كانت قيمة الولي أو المسئول تجاه الأفراد الـذين يتولى أمورهم.. ولكن في مجتمع يحشدون فيه الناس إلى الظـلام وأن يكون صراط الناس الزور والبهتان فهذه هي الطامة الكبرى التي ابتلي بها مجتمعات كثيرة.

عندما يأخذ الجند ولدي من أحضاني وهو بريء ويـدخلوه في ظلمات لا تنتهي فإنه الظلم قد حلّ كظلمات الليل البهيم.. انفصل عن أهله وناسه.. طغى وتكبّر واستبد.. إنـه إن كـان يدري بالقمع والقهر الذي يحدث وساكت عليه فهذه مـصيبة وإن كان لا يدري بشيء وفي غيبوبة فهذه مصيبة أكبر وعليـه أن يذهب.. وإذا طال الوقت والظلام ينتشر والطغيان يتفشى والناس تائهون.. فإن الله ينهي هذا المشهد الأليم بكـوارث.. حدث في زمان مضى في مصر..

تحولت مياه النيل إلى دم لمدة ثلاثة أيام وانتشرت الضفادع والحشرات في كل الأراضي وهجم البعوض.. ماتت كل مواشي البلاد وانتشرت بقع النار الكبيرة في كل مكان ومات الزرع واجتاح الجراد كل ناحية وهبط ظلام كثيف غطى الأرض كلها.. وبدأ الصراخ والعويل والندب والبكاء والألم في كل بيت في مصر.. كل هذا أنزله الله في بلاد كان العدل والحب والحرية والحياة معدوم فيها.. فنحن لا نريد أن تنزل بنا كوارث أخرى من الله لينتقم من الظالمين.. فليكف الظالمين عن ظلمهم وقهرهم وقمعهم واعتقالهم الأبرياء والأطفال.. ونحن جميعا ننتظر بزوغ الشمس التي فيها يخرج ابني من ظلماته وكل الأبرياء.

* * * * *

كان الليل الطويل في بيتها عمر مديد وأضواء غرفتها ساحر وكانت تجلس أمام البيانو وتلامس بأصابعها الرقيقة تقسيماته فتنبعث النغمات التي تريح نفسي وتأخذني بعيدا عن أي ألم.. كانت النغمات تأخذني إلى حياة أخرى فيها أري أنفاس صدرها ربيع وصوتها برنينه العميق يجعلني أنظر إلى الدنيا بكل شئونها دون أية عقد.. وشعرت بالتعب بعد وقت طويل من القرف.. وقمت وحملتها إلى الفراش ومسحت على جنبيها وكتفيها ثم رحت أقبّلها حتى نامت..

وفي ضحى اليوم التالي ذهبت ماريانا إلى الشركة علـــى أن الحق بها بعد الظهر.. ولّما دخلت بيت الأبناء وجدت جـــدتهم من أمهم وهي سيدة طيبة من ميت غمر.. جـــاءت إلى ابنتـــها صباح اليوم بعد أن علمت بدخول محمود المعتقـــل فجـــاءت بصدقها لتكون بجوار ابنتها في نكبتها، وكان الجميع حريصون منذ دخول محمود في قدره الجديد على ألا يخبرها حتى لا تحدث مضاعفات لصحتها.. لكنها أخيرا علمت من ابنتها فجـــاءت إليها جد محزونة وهي تضرب بيديها فوق صدرها :

- ياويلك ياخراب بيتك.. ياروح ستو يا حبيب قلـــبي.. وتبكي ..

وليتني ما جئت، فماإن دخلت عليهم قالت السيدة :

- هوّ إنت دعيت عليه..دعيت عليه..

- ليه أدعي عليه..

- سمعت إنك دعيت عليه مرّة ..

- مش مشكلة مرّة غلبني فيها وانتـــهي الموضـــوع مـــن ساعتها..

- ليه يا صبرى أهو دخل السجن.

- يا ريت نتكلـــّم كلام أحسن من كده..خلـــّينا نقـــوّل نطلـــّع الولد إزاي..

- خلاص .. طيب إدعيله.. أنا عايزه أشوفه..

- عن قريب فيه زيارة..

- إعمل حسابي فيها وتبقه قوللي قبلـها علـشان اجهّـز حاجات ليه..

- ضروري..

- لو فيه فلوس عايزها ومحمود يطلع بلـّغني..

- إنت أميرة يا حاجة..

- هاقعد معاك يا بنتي يومين وهسافر ميت غمر..

- ليه يا ماما خلـّيك معانا..

- فيه عضو مجلس شعب مجدي أخوك عارفه من بلد جنب ميت غمر.. نروح له ماحدش عارف وأسأل قرايبي هناك عـن سكة ممكن نطلـع محمود وارجع على طول..

- يا ريت يا ماما آهو مجدي تاجر يمكن يعرف حد، بـس ارجعي على طول واقعدي معايا..

- يومين تلاتة بالكتير وآجي مش ها سيبك لغاية ابنك مـا يطلع..

* * * * *

ومضى يومان بعدها سافرت جدة محمود إلى ميـت غمـر لتبحث عن طاقة نور مع أقاربها وأهلها هناك وقابلت عضوا في مجلس الشعب والذي أخذ بيانات حفيدها ووعدها بأن يعمـل

أي شيء من أجله، ثم عادت مرة أخرى إلى القاهرة ولكن إلى بيتها في حي الحسين بجانب البناية التي فيها مصلحة الموازين والدمغة.. قابلت في يوم سيدة من حي الجمالية كانت عضوا في مجلس الشعب وسألتها ماذا تفعل، وصلّتها السيدة وهي من عائلة القاضي بالجمالية إلى أحد أعضاء مجلس الشعب والذي كان تاجرا مشهورا للفحم قبل أن يدخل المجلس.. ولما ذهبت إليه وعدها الرجل بقوة بأنه في خلال يومين سوف يأتي لها بزيارة.. ..

وفي اليوم التالي جاءها بزيارة لعدد خمسة أفراد وأعطاها كارت باسم العميد/ م.ح ويعمل في مصلحة السجون.. طارت السيدة من الفرح وحملت معها كمية من اللحم والفراخ وغادرت بيتها فرحة سعيدة إلى بيت ابنتها في جسر السويس.. وهّللت السيدة وهي تدخل البيت قائلة :

- ما يجيبها إلا نسوانها.. ما يجيبها إلا نسوانها.. وكادت تزغرد..

وهرولت إليها إبنتها :

- خير يا ماما .. خير..جبتي إيه..

- زيارة..زيارة كلنا هانروح بكرة.. بكرة..

- صحيح يا ماما.. من مين ..

- عارفة الحاج الباجوري تاجر الفحم..

- أسمع عليه يا ماما.. بقه تاجر الفحم هايجيب زيارة..

- يا بنتي إنت في نومة دا عضو مجلس الشعب من مدة..

- بقه ده عضو مجلس شعب..

- بفلوسه يا بنتي تبقه كل حاجة.. يا بنتي إحنا مالنا.. المهم خدمنا وآدي الكرت أهه اللّي ها ندخل بيه..

- خلاص ياماما خلاص.. ربنا يخليك يا ماما..

.. ولظروف عملي في هذا اليوم تطوع ممدوح خال محمود في الذهاب معهم للزيارة.. وكان الفوج الصغير مكوّن من الأم وبسنت ومحمد والجدة وخال الأبناء.. وفي المساء حكسوا لي كيف دخلوا.. وشعر جميعهم بأن صاحب الزيارة كوسة كبيرة في مصلحة السجون..أجلسوهم في غرفة وحدهم وفرشوا لهم حصيرة كبيرة وكان المرشدون والمرشدات منبهرين لمظهر أصحاب الزيارة.. ولم يخفي أحد منهم إندهاشه بأنهم بدأوا يعتقلون أولاد ناس.. أولاد ناس غير غالبية الناس أهل المعتقلين الآخرين حيث المستوى الاجتماعي الضحل والفقر المدقع.. ووصل بالمخبرين والمخبرات الذين يرتدون ملابس مدنية أن كل واحد منهم دخل وحده على أهل محمود ليقول كل منهم نص كلمة واحدة مفادها :

- أي خدمة ..احنا تحت أمركم.. إحنا تحت أمـــرك يـــا محمود.. اقعدوا براحتكم .. وما كان من جدة محمـــود إلا أن تضع في يد كل منهم مخبر أو مخبرة عشرة جنيهات حتى وصـــل مجموع ما وزعته في هذه الزيارة أكثر من مائة وخمسين جنيها..

وكم كانت حكاوي الأم والجدة والخال وبسنت ومحمـــد الصغير عن كيف لقوا محمود وكم كان البكاء واللقاء شـــديد الأثر في نفوسهم وفي نفس وليدهم الذي أخذته نوبات البكـــاء الشديدة على فترات وكيف كانت أمه تحضنه وتضع رأسه على صدرها وتقبّل يده.. كثير من الأسئلة والتساؤلات والـــدموع والإنفعال جمع بينهم جميعا حتى وصل وقت الزيارة أكثر مـــن ساعتين وكله بالفلوس والكوسة..حتى أن مأمور السجن جـــاء إليهم ليلمح كوسة العميد/ م.ح صديقه وكذلك المقدم مسئول أمن الدولة.. وكان أشد الحوارات واقعية مع محمود وأهله :

- قاعد مع مين

- مع سبعة كبار عني بكتير..

- بتعرف تنام..

- من الزحمة بنام على جنبي والبلاط سقعة أوي والبطاطين قليلة ومتقطعة.. فيه ناس وسايط بيجيبوا لأولادهـــم مراتـــب سفنج.

- بسيطة ما حنا واسطة برضه وهانجيب لك اللـــّي انـــت عايزه..

- الأكل زبالة..

- يعني بتجوعوا..

- الأكل الملكي متوفّر من يوم للتاني فيه زيارة لواحد في الزنزانة، فيه واحد من المترلة بيجيله أحلى سمك..

- يعني ماشية..

- يانهار يا ستو إنت جايبه ثلاث شوله..

- كل حاجة في الدنيا فيها.. كل يابني وحاول تنسى وربنا كريم انتقامه عزيز.

- عايز فلوس ..

وفي لحظة أخرجت أمه وجدته وخاله مجموع خمسمائة جنيه..

- لأ مش عايزها كده.. ابعتوها بحوالة باسمي تبقه رصيد ليّ في الكانتين بكفاية ميتين..

- خدها كده أحسن وأسهل..

- ممنوع الفلوس معايا.. لمايفتشوا بياخدوا الفلوس..

- ليه مش قاعد مع العيال اللّي كانوا معاك..

- تقريبا عايزين العيال يتأثروا بكلام الشيوخ علشان يقولوا في الآخر.. بص شوف العيال تستاهل.. شوفوا أفكارهم.. إحنا ماظلمناش حد..

- والشيوخ بيقولوا إيه ..

- أشعر أنه كلام مش فاهم فيه حاجة وأنا مـــالي ومـــال الكلام ده..جهاد إيه هوّ أنا أد كل ده.. هوّ بـــالزور بيرمـــوا الناس.. هوّ بالعافية وأنا طفل بقيت مجاهد.. دانا معـــرفش أي حاجة لا أد السجن ولا أد الحبس ولا أد ضفر الشيوخ ولا في حاجة لأن أكون نبت خطير هااعمل لما أكبر.. أكيد الناس دي إتجننت.. أعتقد أنه ها يبقة خطير هاته ربيه وهو صغير وطلـّعه حطام.. طيب دا كله لما تقتل البراءة وزرع الحـــب والخـــير في قلوب الأطفال انت كده تبقه جدع أدّام أمريكا يقولوا عليـــك حتى الأطفال دخلوهم المعتقلات علشان حتى يقضوا على النبت اللـــّي ممكن يكون خطير بعد كده.. صحيح سياسة صـــديق أحل صديق وأوفى صديق..

- مين قال لك الكلام دا كله يا محمود..

- هوّ دا بالضبط يا خالي.. إنت عارف دلوقتي أنا بكـــره تلات حاجات.. وسكت..

- إيه همّه يا محمود..

- بكره شريف اللي قبض عليّ وبكره الشيوخ اللـــّي معايا كره العمى وبكره الضلمة اللـــّي اتقفلت عليـــه إلى أجـــل لا يعرفه إلا الله.

- وبتحب إيه يا محمود بعد ما دخلت..

- ما بقتش أحب أي حاجة.. بحب أهلي بس بحب أشوف أهلي كل يوم.. لكن قبل كده كنتب بحب كل اللـّي حواليه وكل الشوارع وكل الناس بحب كل بلدي..

- ولّما تطلع من هنا تحب مين..

- مش هاحب أي حد.. ومش هاقعد مع أهلي تاني لأن بابا وماما سابوهم ياخدوني.. هاروح بلد بعيدة فيها ما حدّش يدخل عليّ يخدني بهذه الفوضى وهذه الغطرسة وهذا القهر والظلم..هاروح بلد فيها الأمان..

- ياه أد كده وصلت نفسيتك يامحمود..

- ما عدش أي حاجة في نفسيتي يا خالي .. هوّ إنت فين علشان تتكلم عن النفسية.. علم النفس والنفسية والإنسانية والذوق والاحترام والحب والعدل دي حاجات مش في بلادنا نهائي.. بعد كل اللـّي حصل ده لطفل زيّي وتقوللّي نفسيتي.. نفسيتي اتحطمت كلها خلاص وأراهن لو لقيت حاجة جوايه حلوة.. إنها الإبادة يا خالي.. لقد أبادوا طفلا مثلي.. وشوف كام طفل زيي وكان برئ.. أبادوا آلاف الأبرياء آلاف الأطفال وبالتالي أبادوا كل أهل وأصدقاء وأحباب هؤلاء الأبرياء.. إن الإبادة بكل معانيها دخلت بيوت غالبية هذا المجتمع.. والمشكلة أنهم لا يتوقفون..

- طيب ماتزعلش أوي كده..طوّل بالـك والله هـاتخرج وتبقة زي الفل.. هدّي يا محمود هدّي.. هاييجي يوم يعرفـوا فيه إلهم غلطانين ويدوا للناس كرامتهم ويعيدو بنـاء اللـي إتهد..

- إن هؤلاء لا يعرفون البناء.. إلهم يحترفون القمع..إسـأل اللـي وقع واللـي اعتقل واللـي اتاخد من بيت أبوه وأمـه وأخواته بكل سفالة وانحطاط.. مين يجيب حقي وحـق أبويـا وأمي من الناس دي.. يعني انتوا ما حدّش قـادر يـوقفكم ولا يقول لكم عيب كفاية..

- ما حدّش يا محمود.. همّ اتسّيبوا على البلد وخلاص..

- تصدّقي يا ماما أنا متهيأ لي إن البلد كلها في الـسجن.. وتقريبا همّ هايدخلوا البلد كلها.. وانتم جايين بـين الإدارات القديمة للسجون شفتوا المسلح والطوب الأحمر شـفتوا أد إيـه بيبنوا سجون جديدة..

- وش عرّفك يا محمود.. إنت جوّه شايف حاجة..

- الزوّار بيقولوا كل حاجة بيـشوفوها وهـمّ جـايين أو خارجين..

- ما فيش تحقيقات معاك يا محمود..

- لأ يا ستو.. العملية مرسومة وسياسة مخطّط لهـا المهـم يجيبو عدد من الأطفال..

- تهمتك إيه؟

- محاولة الانتماء لجماعات إسلامية.

- وليه محاولتك ما نجحتش

- أصلى اتزحلقت عا السلم..

- وكل الناس دي اتزحلقت..

- أيوه.. يا ماما الظلم واسع وتفانيده وأساليبه وأباطيله سهلة أوي.. وسهل علي كل واحد في الدنيا يظلم ويفتري.. حاولنا ولّما فشلنا خدونا برضه لأن عندنا تطلعات جامدة أوي.. والله يا ستو عمري ما رحت ميدان الألف مسكن اللّي جنبنا وفي مرّة قلت لإيهاب تعال نتمشى لغاية الميدان حتى نشوفه قاللّي يا لهوي نتوه لأ يا محمود ولو بابا عرف هايضربني..

- إيهاب مين..

- ماهو جه معايا ياستو.. واد من دوري وطول عمرنا من إبتدائية بناخد دروس مع بعض..

- العملية عيال في عيال.. تهريج مسخرة حاجات زي كده..

- إوعي يسمعوك يا ستي..

- يا ريت ياخدوني بدالك يا بني.. تعال شوف الكلام والله لو خدوا الناس على كلامهم لكل الشعب المصرى يدخل السجن.. الناس خلاص فاض بيها..

- إنت ياستي عارفه كل حاجة..

- يعني إيه جماعات إسلامية يا محمود..

- الناس اللّي بتلبس جلاليب بيضه..

- وليه لبست جلابية بيضه..

- في مرّة خالي إداني جلابية وقال حلوة في صلاة الجمعة لقيتها خفيفه واشتريت جلابية تانية..

- البس زي أبوك يا محمود..

- يا ريت كنت زي أبويا وما رحتش الجامع إلا كل جمعه زيّه..

- طيّب إيه اللّي خلاك تروح تصلي على طول في الجامع..

- مالقتش أي حاجة تانية مفتوحة غيره..

- روح نادي ..

- بابا مش بتاع نوادي ولا جوامع..

- ما هو بابا مش ها يجيب أربعين ألف جنيه علشان يشترك في نادى الشمس..

- دا فعلا حصل طلبت منه كده.. قال لي ما قدرش بعد كده انحرفت ورحت الجامع..

- كل حاجة أتقلبت.. يعني المشكلة كلها كنت عايز حتة واسعة تلعب فيها..

- هيّ دي كانت المشكلة.. لكن والله لو كنت أعرفَ إنهم ها يفغشوا اللـّي بيروحوا الجوامع وها يحصل لي ده عمري ما كنت أروح أصللي في الجامع حتى صلاة الجمعة أصليها في البيت.. مين كان يعرف المصيبة دي مستخبية لي فين..

- خليّهم يروحوا آخرِ الدنيا هانشوف مين اللـّي ها يكسب.. روحوا بحق اللـّي إحنا فيه الله يبتليكم بمصيبة..

- معلهش يا ستي يا حبيبتي.. أد كده بتحبيني..

- أمّال أحب مين يا ضنا قلبي..

وراحت تبكي وتبعتها أمه وكانت تتشنج في بكائها.. حتى الصغير محمد بكي وبسنت الطالبة في كلية آداب عين شمس قسم عبري.. راحت تبكي ولكن بالعبري..

إلى أن جاء المخبر الأزعر معلنا انتهاء الزيارة والتي استمرت لأكثر من ساعتين.. وقام الجميع يحتضن ضناه مودعا ..

* * * * *

وهكذا بدأت الصورة تتضح فكل واحد يكسربج للآخر دون أن يدري وفي لحظة واحدة يجد الإنسان نفسه في ظلمة، فلا كرامة لمواطن إذا خاف الضابط من الكربجة فراح يكسربج للمواطنين.. الكل يضرب بعضه فكان السقوط وانهيار المجتمع..

لقد أصبح كل إنسان يشعر أنه في محيط يغرق فيه حتى يـصل لإنقاذ حياته فهل الجميع عادوا غرقى.. وفي أي نوع من الغرق نغرق.. إن الوطنية وحب الوطن ليس شعارات وأناشيد حماسية وهتافات.. عندما كبرت شعرت بأنني كنت طفلا غبيا وغلاما مغفلا وهي فترة التلمذة في المدرسة الإبتدائية والإعدادية وكأي تلميذ في بلدي في هاتين المرحلتين يكون التلميذ مغيبا ولـيس عنده إلا قليل من الوعي وأكبر شيء يستوعبه هو مايملي عليـه من المدرسين.. صور للوطنية جوفـاء لا تكـون إلا في بـلاد يحكمها العسكر لأنه من أين يأتي العسكري بأي جوهر.. هل يستطيع الجبان الذي يحيا في دائرة الخوف أن يتولد عنه أمن أو عدل.. هل يستطيع ضباط دولة العـسكر أن يعتقلـوا كـل الشعب.. هل تخرجت من كليتك أيها الضباط لتعتقل الأبريـاء وتنتهك حرمات البيوت وبأي قانون تعمل.. أنت في جانـب وكل من تخرجوا في كليات مدنية أو كل المدنيين على اختلاف ثقافاتهم وتعليمهم ودرجة وعيهم وجهلهم في جانب آخر.. هل تخرجت أيها الضابط لتقطـع أواصل الحياة بين أفراد المجتمع.. لتشوه الحياة.. وهل الأمن عندكم إعتقال وتنكيـل وعنـف.. ومن أين يأتي المجتمع المدني بالإمان.. وإذا كان المجتمع المـدني مهدّد كل يوم بكل بواعث الخوف فكيف لمجتمع مثل هذا يحب وطنه.. وكيف لمجتمع مثل هذا يدافع عن وطنه.. هـل أنـتم كفيلين بالدفاع عن الوطن وهل تحبون أوطانكم بترهيب الناس وتخويفهم وانتهاك حرمات منازلهم والسطو على أموالهم.. متى

تتوقفوا ومتى يكون لك استراتيجية أمن حقيقي ومـــتى يكـــون لكم حدود لا تتعدوها وكيف تحافظون علـــى أمـــن الـــوطن الحقيقي.. وكيف ومتى تحترمون حقوق المجتمع المدني وحقـــوق الإنسان..

.. هكذا رحت في غيبوبة التفكير العميق عنـــدما سمعـــت منهم الحوارات الكثيفة والعميقة والمحزنة التي دارت بـــين ابـــني محمود وأفراد أسرته.. ولّما شعرت بأنني لا أستطيع أن أفعل أي شيء سوى أن أكلّم نفسي وأبعث بهذه الرسالة إلى الجميـــع.. وأيقنت أن هذه الرسالة هي رسالة ذاتية لا تخرج عن إطار كون النفس تكلـــّم نفسها شعرت بأنني أضعف من الضعف..

* * * * *

.. نزلت من بيتي في جسر السويس متوجها إلى بـــيتي في حدائق الزيتون.. بيت ماريانا الحب والنور الذي يرحمني مـــن قيودي وكلامي في سجن حياتي الكبير.. وكعادتهـــا قـــابلتني بالبهجة ولّما استرحت في فراشها كنت أشعر بأن قلبي ينقـــبض وأن وجعًا في صدري جعلني أقول:

- إنني أشعر بأن أنفاسي تختنق في داخلي..

.. وضعت رأسها على صدري وراحت تنتحب.. ورحت أربت بأناملي فوق شعرها الأسود المنسدل على ظهرها وأقول هامسا :

- لماذا هذه الدموع.. لماذا البكاء الآن..

- لا شيء.. ولكنني بدأت أضيق من جو العمل..

- كيف.. هل حدث شيء..

- أحداث تخص جماعتكم..

- وهل لنا جماعة..أي جماعةتقصدين..

- الجماعة التي يتزعمها محمد عبدالعزيز محاريق..

- محاريق مسئول الأرشيف..

- نعم ..

- ما الذي حدث ..؟

- افترض أنك صاحب شركة.. هل ترضى وتقبل نفسيا لجماعة من الموظفين المسيحيين أن يقيموا طقوس دينهم كل يوم من ثلاث إلى خمس مرّات في شكل جماعي وبصوت جهوري..

- العبادة شيء خاص بالعبد وربه وليس لأحد أن يقيمها بشكل جماعي وجهوري لأننا لسنا في دار عبادة نحن في شركة..

- محاريق بشكل علني يجمّع كل العاملين المسلمين في كافة الأدوار ويؤمّهم كأنهم في مسجد وبصوت عال مما إستفزّ بعض

الأخوة المسيحيين الذين ذهبوا إلى الخواجة معترضين بأننا لسنا في مسجد حتى يحدث هذا في اليوم عدة مرات.. وأبلغوه أنهم يشعرون أنه يعيشون في شكل دعوة وليس جو شركة..

- وماذا فعل الخواجه..

- طلبني في مكتبه وذهبت إليه اليوم في الموسكى وأبلغني بكل هدوء بأن أبلغك وعليك أن تتصرف في الموضوع بالشكل الذي يرضى الجميع..

- يا للأسف.. العبادة ليست جمهرة ولا إثارة وإذا كان يعتقد ذلك فليس هذا مكانها وكل واحد له بيت يفعل فيه ما يشاء ودور العبادة موجودة..

- انتوي صبري أن يخلّص الموضوع في صباح اليوم التالي، ولقد نغّص عليه الموضوع ليلته وقضى وقته حتى الصباح مهموما قلقا، ولأول مرّة منذ مدة طويلة يذهب إلى عمله في العاشرة صباحا وتبعته ماريانا وجلس إلى مكتبه يفضّ بعض أوراقه وتقاريره حتى تكتبها ماريانا على الحاسب في شكل أجمل كما تعوّد منها.. وبعد ان انتهت جولة من العمل في الحادية عشرة والنصف هاتفت ماريانا محاريق مسئول الأرشيف للحضور إلى مكتب المدير المالي..

ودخل عليه مرتبكا حتى أصبح يقف أمام مكتب المدير وقال وهو ينحني مظهرا طاعته:

- تحت أمرك يا بيه..

- أمري إيه إنت خلـّيت حاجة..

وأخذ صبري يجول ببصره في وجهه يتفـرّسه شذرًا ثم قال وهو يكظم غيظه :

- شوف بقه أنا خدمتك في شركة باور عـشان خـاطر حسن محاريق..ولما جيت هنا جبتك برضـه علـشان حـسن ونجيتك من فريد السبكي صاحب شركة باور ومـن إذلالـه ليك..

- أي والله صحيح عارف يا بيه إنت مغرّقني بجمايلك بس هوّ فيه إيه ..

- هاجيب لك من الآخر.. وقت الجد جد.. إنـت ليـه بتصللـّي جماعة وبصوت عالي .. مش ده بيثير الناس هو إحنا في جامع.. وقلت قبل كده بلاش كده من نفسي لحد ما الناس إشتكت ليه بس المشاكل..

- هيّ صلاة ربنا يا بيه فيها حاجة دول ناس بيتلككوا..

- يخرب بيت فيشا وحسن وانت هيّ كلمـة واحـدة.. تصلّي لوحدك وفي هدوء ولو كورت تاني هامشيّك من هنا لأن إنت زعيم الناس دي واحنا هنا في شغل وبس..

- يعنى ها يحوشونا عن الصلاة!!

- برضه غشيم وحمار إفهم.. صلّي وخلّي عنـــدك دم دي شركتهم إصحى.. صلي لوحدك مش بالشكل المثير ده .. يـــا محمد إحنا في بيتهم فاهم.. وصاحب الشركة فوّض الأمــر ليّ أعالجه.. إحمدوا ربنا إنه ما طردكش مرّة واحدة..

- طيب حاضر خلاص.. خلاص يا بيه..

- كل ده يتم من النهاردة كل واحد في حاله ويصللي مــع نفسه..

- حاضر يا بيه حاضر.. وراح يرجع بظهره حتى ارتطــم بالباب الزجاجي وكاد يكسره وكررّت ماريانا عليه الكلام..

- خلاص الموضوع إنتهي..

ورفع كف يده إلى جبينه كأنه يضرب تعظيم سلام لقائـــده فابتسمت ماريانا وكررت ثانية :

- المهم دا ما يحصلش تاني..

وانصرف محاريق وانهمك صبرى وماريانا بعض الوقـــت في أوراقهما ثم أخبر صبرى ماريانا بأن تبلـّـغ الخواجه بأن كـــل شيء على ما يرام وأن صبرى قد فعـــل كـــل شـــيء وأنهـــى الموضوع.. ورد الخواجه عليها بكلمة واحدة كررها كـــثيرا.. أتمنـــّى .. أتمنـــى.. ..

وجاء يوم بعد أيام كثيرة مضت أتانا العميد الذي يعمل في مصلحة السجون بزيارة لمحمود، وكان لذلك أثر بالغ في إسعاد

السيدة زكية أم ماريانا لأنها كانت تريد أن تقوم بأي عمل طيب نحو صبري وابنه محمود، ومنذ يومين والسيدة الفاضلة تعدّ من الطعام والحلوى والفاكهة التي ستحملها للصبي ما يكفي لإطعام فصيلة من العسكر.. وقمت بتعبئته في أربعة أجونة ولمّا حان وقت أن نذهب في الصباح إلى طرة البلد كانت الساعة تقترب من الثامنة والنصف، وناديت أحد حرّاس العمارات المجاورة لحمل هذه المؤن إلى سيارة ماريانا، ولمّا بدأت المركبة تنطلق مخترقة شارع العزيز بالله إلى شارع جسر السويس كانت السيدة الكبيرة ترد على تليفونها المحمول :

- أيوه يا بني يا حبيبي.. إحنا طلعنا ..

- عسكري عند الباب منتظرنا وها يعرفنا إزاي.. لمّا نوصل أرن له إسمه.. دقيقة أسجل نمرته إسمه دسوقي.. يعني إحنا طلعنا على ميدان روكسي أهه.. دقيقة ها نكون في صلاح سالم.. فيها نص ساعة لو الطريق فاضي.. هاندخل من الباب الكبير ها يشيل كل حاجة معانا شيل كتير.. طيب الحمد الله معاه عربية من جوّه ها يشيل فيها كل حاجة ويدخل بينا.. ربنا يخليك يا بني كل ده عملته.. هانقعد معاه لوحدنا الزيارة ساعتين وأكثر.. دا كتير أوي علينا يا حبيبي.. أدعيلك طول عمري مع السلامة يا روح قلبي..

.. وتنفست في ارتياح وهي تقول :

- عملنا أدّ ا منا ..

- يعني إيه يا ماما..

- كل حاجة متسهلة يا ماريانا..

وابتسمت ماريا وقالت وهي تضع كف يدها علــى بطــن صبرى وقالت :

- حبيبي مبسوط.. مبسوط أوي..

- الله إيدك حلوه خلـــّيها ..

- الله يا صبرى عيب أوي ماما موجودة..

وقهقهت السيدة.. ملأ فيها لسعادتها بمداعبة ابنتها لزوجها وقالت :

- خلاص يا ماريانا هيّ حبكت دلوقتي.. لما ترجعوا ..

- طبعا يا ماما بحبه يا ماماقي أي وقت أداعبه وألاعبه أنـــا عايزاه بس يخرج من المود اللّي فيه واحـــدة واحـــدة دا دوري ياماما ويسيب شأن محمود على الله وبس..

وقال صبرى وابتسامته تفترش وجهه كله :

- أنا كنت من غيركم هاروح فين كان مين هايــسعدني.. مليتوا عليّ كل حياتي.. إنتو أكثر من أهل..

- أنا وبنتي بالنيابة عن كل أهل البلد..

- والله ياسيدتي لا شك أن كل أهل القرى في الأصل لهم قلوب طيبة ولكنها قلوب مسدودة.

- هل تعرف لماذا.. لأن أهل القرى عاشوا عقودا طويلة والقرية مقفلة عليهم وإذا خرجوا منها سرعان ما عادوا إليها يرتادون جلبابها.. إن عقودا طويلة من زراعات فاشلة وقروض من بنك القرية ومشاريع علف وهمية جعل أهل القرى يخرجون من فشل ليعيشوا في فشل آخر.. وفي كل هذه السنين الطويلة لم يصل الفلاح إلى شيء لأنه لم ينجح في يوم من الأيام لأنهم كانوا يسوقون إليه بمشاريع تتبع سياسات فاشلة و لم يحدث أي تنمية زراعية أو حيوانية ولكن الحدث الفاعل والسلبي أن الفلاح انفصل عن مهنته وهدّمت البيوت القديمة وأفران الخبز التي كانت تكفي كل بيت من كل أنواع الخبز.. عيش، بتاو، فطير، كعك..

كل هذا تهدّم وتعالى روح القرية.. ماذا ترى.. ترى ما لا يسر عيني .. طوابير العيش أمام الطابونة..يتقاتل الفلاح والفلاحة من أجل الحصول على رغيف خبز هزيل..

- من أجل هذا أقول لم يعد في قلوب أهل القرى شيء طيب يناصرون فيه أي عدل أو يدفعون الظلم عن أي أحد من قريتهم..تفتّت القلوب و لم تعد بيضاء ولذلك فإنك تجدين الآن الحقد ينتشر بينهم ومجموعات كثيفة من الناس تعيش في رقعة ضيقة من الأرض وضاقت الأرزاق بهم..فكيف تطلبين من ناس

يتقاتلون من أجل بلغة خبز أي عون..إن الشيء الوحيد الباقي في كل قرية هو واجب دفن الميت والعزاء فيه وذلك لأننا تقريبا ندمن أن ندفن أنفسنا في أحزاننا أو أحزان غيرنا..

.. ولّما وجدت ماريانا أن صبري ووالدها قد استغرقا بعيدا في موضوع لا يمت بأي صلة لما نحن ثلاثتنا ذاهبون إليه قالت :

- أنبه أننا ذاهبون إلى محمود.. نحن الآن يا سادة نقترب من سور السجن الكبير.. علينا أن نفكر الآن في محمود وليس لنا شأن بأهل القرى.. عندما نفيق نذهب إلى مكاتب التوثيق لنسجل هذا الكلام في تاريخ أهل الريف.

- صحيح ما لنا بهم هل نحن فلاسفة لأحوال الدنيا..إننا في حاجة لمن يتكلم عنا..

وقالت الأم لابنتها :

- لك حق يا ابنتي ولكن الروح بتسرح..

.. وكان دخولهم سهلا والعسكري دسوقي خادم أمين كأن مجموعة من العسكر تساعده حتى دخلت بنا العربة التي يقودها الجندي إلى باب سجن الاستقبال..

***

.. كان محمود في صبيحة هذا اليوم ترتجف أوصاله فلما اختلى بنفسه وأخذ ركنا مع زملائه الجدد صعبت عليه نفسه أن يحدث له ما يكون طبيعيا بيد أطفال الشوارع، وتأكد أن ما

جرى في الهزيع الأخير من ليلة أمس جرح تبقى في نفسه ما عاش ولكن إلى من يذهب في وسط هذا الظلام داخل هذه الحيطان.. إنها موجات من الظلام الدامس الذي لا ينقشع إلا بقوة إله جبّار ويدربكها ويهدها كما دك قرى وبيوت وعمار أهل الظالمين والمارقين والفاسقين من قبل.. وتساءل الطفل قائلا في براءة :

- لماذا يسكت الله على هؤلاء..لما يتركهم يعتقلون الأطفال والأبرياء وينتهكون حرمات البيوت.. لماذا كل هذا التاريخ الأسود لهؤلاء الظلمة ولا ينتقم منهم الله حتى الآن.. وقال بصوت مسموع :

- ألا تكفي حكايتي يا ربي العظيم.. حكاية طفل لا يعرف حتى الآن ما لون الأبيض والأسود في هذه الدنيا.. أسألك الانتقام.. الانتقام لي..وأكيد هناك أطفال مثلي بالمئات بين هذه الحيطان العفنة في بلادي هنا غير الأبرياء .. أكلّ هذا الظلم البائن لأبرياء بلادي المساكين بعد أحداث ١١ سبتمبر لتكون الرسالة قوية وواضحة لأميركا.. نحن هنا نضرب بيد من حديد على كل بواطن الإرهاب في البلاد حتى الأطفال جئنا بهم من أحضان أمهاتهم حتى لا يكونوا إرهابيين عندما يكبروا.. هكذا يكون الإخلاص والوفاء.. هكذا تكون العمالة لأمريكا.. أدركت الآن أنني ضحية ضعف سياسي مهين وضعف أخلاقي وإداري فظيع في إدارة بلادي ..وكان شيء طبيعي أن تقول لي يا أبي.. شيء طبيعي انهيار سياسي أدى إلى انهيار اقتصادي

مدّمر وبالتالي كان الانهيار الاجتماعي.. نبت في بلادي الخوف
وزرعه الوهن الشديد في قلوب كل الأطفال والرجال والنساء
حتى الوليد الصغير من الحيوانات والطيور والحشرات.. إذا
أردت شتلة خوف تعال أيها العالم خذها من بلادي.. إذا أردتم
الضعف والفقر والحرمان والعوز والعرى تعال خذها من
بلادي.. إذا أردت نساءً عاهرات رخيصات تعال خذها من
بلادي.. كل ما هو مهين وحقير ونذل وسافر ومنحط تعال
واغرف منها في بلادي .. لم يذكر محمود في حديثه الخطير
الهامس أي كلمة عن الشرع أو الجماعات الإسلامية التي كان
يحاول الانتماء إليها و لم ينجح وبانيته نجح حتى يكون هناك
مبرر وحيد لوجوده بين هذه الحيطان، أقسم لكم يا سادة أن
محمود الذي مازال يصلى بين هذه القيود والأغلال لم يحفظ من
القرآن العظيم غير سورة الفاتحة والمعوذتين والنصر وقل هو الله
أحد..وهي السور التي حفظها من أمه قبل أن يدخل الحضانة..
هو يعرف فقط الآن لماذا يصر على الصلاة هنا ولماذا يصر على
مناجاة الله هنا.. هو شيء وحيد أن ينقذه الله في يوم ويعود إلى
بيت أبيه وأمه.. هذه هي أمنيته وحلمه وطموحه أن يكون حرا
وأن يحاسب على شيء اقترفه وأن يعود إلى أمه ليكون رضيعا
من جديد والشيء الغريب الذي يراود خيال محمود منذ أن
عذبوه في مدينة السلام أن ينقذه الله من هذا الظلام وعندما
يعود إلى أمه يعرّي صدرها ويمسك بثديها ويرضع حليبها.. هل
حدث في عقله خلل أم أن هذه أمنية طفل حقيقية وطبيعية

وليس فيها من العيب شيء وعلينا أن نحترمها.. إلى من يبعث محمود بهذه الرسالة .. من يحقق لمحمود هذه الأمنية.. إن كل حقوق الإنسان وأصول القانون الدولي وكل الدساتير المحترمة في العالم لا تستطيع أن تحقق لمحمودأية أمنية..إن كل هذه الحقوق الإنسانية العظيمة تصل إلى أعتاب بلادي وتقف ويصيبها الشلل التام.. إن أقوى شيء في بلادي هو الكرباج هو حيطان المعتقلات والسجون ولايستطيع أي شيء إنساني أوأخلاقي أو يدعو إلى أي قيمة حقيقية أن يكون له أي وجود في بلادي .. على عتبتها ينكسر الحق ويذهب النور ليصبح ظلام.. على عتبتها يبدأ الانحطاط الإنساني في العصر الحديث..

كاد محمود يجن وانفلج من نومه القلق وهو يجد كف يد الشيخ عبدالجليل الذي يبلغ من العمر الخامسة والأربعين عاما وذقنه تكاد تلامس أصابع قدميه وهو يجلس..كف يده يتحرك بحنان بالغ ورقة ترتعش بالشهوة الجامحة فوق إليته وبدأ يفيق..يا لهوتي.. وشدّ الولد جسده قليلا في محاولة منه عسى أن يبتعد الرجل.. لكن فجأة ارتمى الرجل فوق الصبي وكأنه يحلم أو يمثّل بأن وقع عليه فجأة وليعرف مرّة واحدة مدى مقاومة الولد.. تأكد الطفل أن مقصد الشيخ حقيقي وأنه فعلا بدأ في إستدراجه ثم بدأ معه أول حركات العنف..وبقوة رجل كبير تمكن محمود من قبضته لحظة وتجنب جسده ثم قفز فوق الشيخ بعد أن لكمه قبضة قوية بقبضته الصغيرة فوق رأسه وتلاهما

بثانية وثالثة فتأوه الشيخ وانبري تحته خائفا وعمل كأنه يحمي نفسه من الصبي قائلا :

- مالك فيه إيه يا محمود إنت بتحلم..حوش الولد يا عبدالعظيم..

.. وزعق الصغير وهويهرس الشيخ تحته بقدميه وبدأ يبصق على وجهه وصوته يعلو حتى استيقظ أفراد الزنزانة وراحو يمسكون بالصبي متسائلين :

- فيه إيه يا عبدالجليل.. فيه إيه يامحمود..

.. سكت عبدالجليل وانزوى وزعق محمود : هوّ أنا مومس يا كلب.. يا راجل يا وسخ يا شرموط.. أنا راجل من ضهر راجل يا جرجارة الناس..

هزّ شيخ عبدالنعيم رأسه في أسف وقال وهو حزين :

- برضه تاني مرّة تعملها يا عبدالجليل قبل كده سترها المولى عليك.. لكن مش كل ولد صغيرها يسيبك وها يخاف منك.. والله تستاهل اللي يجري عليك وأنا أول واحد شاهد عليك فضحتنا وفضحت الزنزانة وكل الشيوخ..

.. ولم يكن لدى عبدالجليل سوى أنه انزوى في الركن بعيدا عن متناول ضربات الصبي وراح يتمتم.. كنت باطمئن عليك.. أصل سمعته بينازع فكرّت إنه بيه حاجة.. كنت باطمئن عليه.. وانهار الولد وكأنه في شارع وشلح سرواله عنه ووقف فوق

الشيخ وراح يتبول على وجهه وعبدالجليل يستسلم قائلا وكأنه غلبان يستغيث.. شايفين شايفين أنا سايبه يعمل إيه..

.. وكانت كل الذقون في الزنزانة تهتـز تحـت وجـوه أصحابها أنهم جميعا فرحين في خبث و لم يحاول أحد منهم منـع محمود بقوة.. كانوا جميعا يكرهون عبدالجليل فتركوا الـصبي ينكلّ به..وكانت كلماتهم وكأنهم يحتمون في الدين.. أسـتغفر الله.. أستغفر الله .. كان خزيا وعارا وضعفا واختباءً يـسري بينهم جميعا وكان الوحيد الشجاع هو ذلك الطفل الذي ناضل عن شرفه في قوة دون النظر ما جزاء فعلـه هـذا مـن إدارة السجون.. لم يكن يعرف غير دين اللحظة فدافع عن نفسه به.. وتهدّجت أنفاس الصبي ووقـع علـى الأرض منـهارا وراح يصرخ ..

- ياولاد الكلب طلعوني من هنا .. أنا مش من هنا.. أنـا غير دول..

- أنا راجل أنا ماليش في كل الكلام ده.. إنتوا حاطنـيّ هنا وجنب للشيوخ..

- إنتو بتصبروا الشيوخ وتعملوا نفسكم مش شايفين.. هوّ إنتو هنا عايزين الناس تخلـص على بعض.. سؤال مين يجاوبني عليه برّه أو جوّه مين يجاوب إنتوا بتحطوا أطفال زيّي مع ولاد دين الكلب دول ليه.. نفسي حد يرد عليّ ..نفسي حد يقول

الحقيقية.. نفسي حديقول لي أي حاجة.. أنا عايز حقي ياولاد دين الكلب.. الدين منكم كلكم بريء.. أنتوا كلكم ظلام العصر دا كله من أوله لآخره.. وتشنجّ الصبي وراح يهزي بالكثير الذي لم يعرف أحد له معنى وكأنه انجذب..

.. استيقظ الجميع وراحت جنبات السجن في كل زنزانة تتناقل ما حدث في الزنزانة رقم ١١ وما فعله الطفل البطل بالشيخ وكان آخر من علم بالأمر الضابط النوبتجي الذي إستيقظ من نومه على مهل ولّما فتح حرس السجن زنزانة الحدث للنقيب..كان محمود قد جلس وهدأ قليلا وكل شيخ إنزوى في ركنه وعبدالجليل لابد في الجدران وكأنه يريد أن يكون طوبة فيه..وقال النقيب زاعقا:

- فيه إيه..إيه اللّي حصل ؟

وفي صوت بعد الآخر:

- عبد النعيم كان عايز يخربط الولد..
- هوّ فاضحنا.. ما كلنا من غير نسوان بقالنا سنين..
- دا راجل عايز قطع الرقبة.. ما عملها قبل كده..
- لكن الولد دا راجل من ضهر راجل..
- محمود ده خد حق العيال اللّي عملهم قبل كده وسابوه خوف منه أوخوف من السجن الله أعلم ..
- الواد ده أشجع راجل في السجن كله..

- والنبي كلهم بيعملوا بلاوي وما فيش حد شايف حاجة..

وزعق الضابط ثانية :

- بس خلاص.. إطلع يا عبدا الجليل..

تلكأ واصفر وجهه..

الضابط : اطلع يا بن الوســـ

- حاضر

الضابط للعسكري : خد ابن الوســـ وحطة في الإنفرادية.

.. وانحنى الضابط على محمود في رفق وأخذه من ذراعه حتى مكتبه وأجلسه على مقعد خشبي وربت على كتفه-وقال:

- ولد صغير بس راجل..أحلى حاجة إنك شلفطته.. أبوك بيشتغل إيه يا محمود

- محاسب ..

- جابوك ليه يا محمود

- إسألهم.. أكيد إنت عارف

- والله مانا عارف حاجة أهو ملف مكتوب زي كل الملفات..

.. وكان الضابط ينظر إلى محمود في تقدير وأسعده أكثر أن الولد يتكلم في شجاعة معه دون أن يقول باشا أو بيه وكان يهز رأسه يمنة ويسرة وأخرى يقلب في أوراق الملف وثالثة

يتأمل الغلام..وفي محاولة أنه يريد أن يضع يده على ما حـــدث فكان عليه أن يسمع من محمود فقال لمحمود :

- بدون زعل ولا ضيق قل لي عملك إيه ابن القـــ ؟

- كنت أذهب في النوم فشعرت بيد تملـّـس على طيـــــ..

إندهشت وسكت شوية للتأكد مما يفعل.. ظن أنني مبسوط من تمليسه فأدخل أصابعه بين الفلكتين وراح يغرزها و لم أتمالــك نفسي وصحوت وقفزت عليه وبــصقت في وجهـــه كــثيرا ودهست وجهه وجسده بقدمي بما أوتيت من قوة ثم تبولـــت عليه.. يا ريتني كنت أقدر أقتله.. على فكرة أنا راجل من ضهر راجل إحنا عيلتنا كلها تاجها الرجولة..

- إنت منين يا محمود؟
- من شنشور
- يا نهار اسود..
- ليه اسود هوّ أنا عملت حاجة ؟
- أبقه مش راجل لو ما جبتش حقـّك ..
- يا ريت ..
- إنت بتروح البلد
- بروح مع بابا لستو..
- ستك الحاجة حميدة ..

- يا نهار اسود وش عرّفك ..

- أهو إنت قلتها..إسمك محمود صبرى دردير أبو وافية..إبن حيرة الناس في شنشور.. انا عارف كل عيلتك وكل أهلــك.. عرفت أبوك كويس أوي دلوقت.. أبوك كان مرشح لعــضوية مجلس الشعب سنة ١٩٨٤ عن دائرة البــاجور ممــثلا لحــزب الوفد .. يا ترى أبوك لو كان عضو مجلس شعب وأنت عملت البدع أكيد ما كانش حد يلاقيك هنا.. يا نهارإسود يا محمود.. إنت عارف أنا مين ..

- طالما عارف أبويا كويس كده تبقه من شنشور..

- أيوه من شنشور للأسف من شنشور بس بقى لنا ســنين ما بنروحش البلد.. إحنا كنا ناس على أدّنا من قبلــى البلــد وستي أم أبويا كانت بتشتغل في بيتكم.. ستي كانت مــرات راجل مشهور أوي..

- كان عمده ..

- أبدا.. كان قتــّال قتلة .. كان الناس بتــأجره يقتــل الناس.

- كان خطير..

- كان راجل بيحب الحق بطريقته وكان فقير وكان بيقتل على حق وفي نفس الوقت ياخد أجره على القتــل.. مقـــدّم

الأول وبعد ما يخلّص ياخد الباقي.. كان بيقول أنا راجل كسيب وحقاني لأني باقتل الظلمة.. لكن ستي هربت منه ومارضيتش بحياته وراحت تشتغل في البيوت كمربية وطباخة واستقرت في بيت جدك لأن ستك عاملتهاكويس وكأنها من أهل البيت وساعدت ولادها الصبيان لما سابوا البلد وأوجدت ليهم شغل في مصر عند قرايبها.. أنا واحد من تلاتين حفيد للست دي.. على فكرة كل اللّي أعرفه عن البلد هيّ الحتة دي.. أكبر خير حصل لنا في حياتنا إن ستي وجدت كل الخير والمساعدة والحب في بيتكم وستّك الحاجة حميدة شغلت أبويا وأعمامي كلهم في مصر بمساعدة ناس قرايب.. ستك ..

- ويلف الزمن يا بيه وتبقه إنت ضابط وأنا مسجون..

- ويلف الزمن يا محمود ويجي دوري.. إزاي أرد الجميل.. يا ريتني أقدر أطلعك من هنا..

وراح الضابط يبكي حتى أبكى محمود وكان يريد أن يقوم ويحتضنه بقوة ويهتف يسقط الظلم.. يسقط الظلم.. لكنه تدارى خاصة أن معه مخبر مخضرم يرافقه أينما ذهب وهذا المخبر يعمل منذ فترة في هذا السجن ويقولون عنه أنه خبّاص مأمور السجن وكان الضابط هذا يتبع إدارة السجن وليس أمن الدولة.. وبأقصى مجهود كان محمود في زنزانة صغار مثله تم هذا قبل ظهر هذا اليوم وكم كان محمود سعيدا بقصة هذا الضابط معه، وقبل أن يبدأ عمل السجن في الثامنة صباحا..

.. كان الشيخ عبدالجليل قد نال علقة ساخنة في زنزانته الإنفرادية كادت تفضي به إلى الموت بواسطة هذا الضابط وبعض المخبرين.. ومرّت ثلاثة أيام وتم نقل عبدالجليل إلى سجن الوادي الجديد.. ومرّت أيام أخرى والضابط يوالي محمود باهتمامه وخدماته حتى أفشى هذا المخبر القديم بكل ما سمعه من حديث مع محمود والضابط إلى مأمور السجن العميد.. أ.م ولم ينقض على ما حدث شهر حتى تم نقل الضابط إلى سجن وادي النطرون..

***

وجد محمود كل الصغار الذي اعتقلوا معه.. وجدهم في زنزانته فشعر برحمة تزيح عن نفسه كثيرا من الكرب، وأعربوا له جميعا عن سعادتهم به لما فعله مع الشيخ الحقير، ومرّت الليالي المظلمة عليهم ولكن بروح ساخرة عما كان من قبل وكان كل منهم يشجع الآخر ويأخذ بأزره بالكلام رغم أنه في حاجة لمن يأخذ بأزره، وكان محمود الخطيب أكبرهم سنا وكان يحكي لهم كثيرا عن أي شيء حتى يقوّي عزيمتهم.. ونقل لهم أخبارا عن أبيه وكأنه يعّرفهم بنفسه :

- أبويا كان ضابط وحارب في حرب أكتوبر في قلب سينا يأخدوا إبنه بدون ذنب.. أبويا كان راجل مكافح أوي خد الإعدادية وهرب من قريته في سوهاج.. زي ما كل الناس بتهرب من الفقر في بلادها ما صدّق خد الإعدادية وجه مصر

إتطوع في الجيش كان كل هدفه ياكل عيش ويقبض فلوس ينقذ نفسه ويساعد أبوه على عياله الكثيرة.. جابها من تحت وذاق الويل في الجبال إلى أن طلع برتبة رائد.. شوف الراجل شريف إزاي ومن ما فيش بني لنا بيت في عين شمس وربّانا كلنا تعليم عال وجوّز إخواتي البنات وأحلى حاجة إنه اتجوز بنت عمه بنت معاه الدنيا طوبة طوبة.. ناس أشراف جايينها من تحت.. كل اللّي عملته لّما دخلت معهد الحاسب الآلي إني ربيت ذقني ربيتها وخلاص وعرف شوية عن الدين علشان أتسلّح بالصبر والكفاح وأبقة بعيد عن الإنحراف ومشيت في حالي.. وفجأة خدوني لقيت نفسي معاكم.. المهم نرجع لأبويا.. إتحسر وأصيب بجلطة ثم شلل من الحسرة عليّ .. وقبل ما تجيله الجلطة كان يردّد في الليل والنهار :

- بقه أنا اللّي خضت حروب كثيرة على راسي يعملوا فيّه كده.. ييجي واحد ضابط عيّل كان بيعملها على نفسه لّما كنت شايف االذل في الحرب قبل ١٩٧٣.. دا إحنا قعدنا من ١٩٦٧ وحتى ١٩٧٣ كل يوم وحدتنا العسكرية في حتة وكل واحد راح الجيش يعرف إد إيه صعوبة النقل من مكان لمكان.. طيب يدوني فرصة ويقولوا ابنك انحرف وأنا هاعرف إزّاي أمنعه، طيّب شوفوا أبوه خدم فين وسجله كان إيه.. أد إيه إحنا ناس أشراف طول عمرنا.. هيّ دي المكافأة اللّي باخدها منكم بعدما طلعت على المعاش.. راح أبويا يقول ويعيد ويتحسّر إلى أن تم إصابته بالشلل التام.. أصبحت أمي وأخواتي

عندهم مصيبتين مصيبة جوّه البيت في أبويا ومصيبة برّه فيّه أنا..
والعمل إيه شوفوا الظلم والبطش والتنكيل بيعمل إيه في الناس..
أكيد آلاف البيوت البرئية والمظلومة في البلد فيها يمكن أكتر من

- كده.. همّا عايزين إيه.. والله ما حد عارف واخدنا ورايحين على فين..

.. واتفقنا جميعا وعلى سبيل التسلية أن يحكي كل منا حكايته ويقول لنا تفاصيل عن أسرته على سبيل الروايات التي كان يحكيها الشيخ علام.. وفي الليلة الثانية حكى لنا إيهاب:

- أنا سني ستاشر سنة بالضبط.. ساكن في شارع خالد بن الوليد من يوم ما وعيت على الدنيا وأنا عارف محمود صبرى.. كنا مع بعض في الحضانة والابتدائي والإعدادي في مدرسة الخطيب الخاصة في نفس الحتة، وكان أول إحتكاكي بمحمود إن إحنا في يوم ضربنا بعض ضرب مبرح في المدرسة.. إتعاقبنا في المدرسة على مرأى من التلاميذ، بعد كده واحدة واحدة اتصاحبنا، أكبر حاجة عملناها كنا بنعدّي أنا ومحمود شارع جسر السويس ونروح نلعب في التراك ودي حتة واسعة فضاء جنب سور فندق السلام ما تعرفنش بتاعة مين.. أبويا راجل موظف.. مهندس زراعي.. مدير في وزارة الزراعة وأمي معاه موظفة في الوزارة برضه.. أبويا زي أي موظف ما يقدرشي يدخلني نادي الشمس اللي قصاد بيتنا على طول ها يجيب الألفات دي كلها منين.. وكل مانروح حتة نلعب فيها الناس

تجرى ورانا وهاتك يا طوب.. سبحان الله.. هانروح فين.. في يوم اتفقت أنا ومحمود أن نروح الجامع فيه الشيخ خالد بيقول كلام حلو أوي عن الدين والرسول طيّب نروح الزاوية دى الناس بتقول إن الدين كويس ويمكن يهدينا شوية ويمص طاقتنا. رحت الجامع..جامع صغيّر وسمعنا الشيخ خالد..والله كلام حلو ولذيذ.. الشيخ أثّر فينا وبقينا نسمعه بعد الفجر شوية وبعد العشاء شوية.. وكان فيه واحد أعرج يقعد يسمع الشيخ يقول إيه.. بس كان يقعد بعيد شوية ويعمل إنه نايم.. أتاري رمضان ده مخبر وبيدخل علشان يعمل شغل كما تمليه عليه إدارة أمن الدولة في قسم السلام.. وفي يوم الشيخ .. قعد يقول اللّي عايشين فيه دا ظلم واحنا عايزين عدل.. بلادنا عايزة واحد يحكمها بما أنزل الله.. اللّي يحكم بغير شرع الله يبقة كافر..صح ولا لأ.. والشيخ حمّانا أوي وكل ما يقول كلمة نقول وراه أيوه صح.. أيوه كلام صحيح وحكم يرضي الله كنا لقينا حتة نلعب فيها وكنا دخلنا نادي الشمس.. أيوه صحيح.. قلت له صح يا محمود.. صحيح لو فيه عدل كنا دخلنا النادي.. ورحنا نبكي.. أي والله بكيت أنا ومحمود من كلام الشيخ وتحميسه لينا، وكانت ظروف حياتي مع ظروف حياة محمود ومش عارفين نلعب في حتة.. حسينا إننا عايشين في بلد ما فيها حتة أرض نجري عليها ونلعب ويبدو أن كل واحد إفتكر ظلم حصل له وراح يبكي والشيخ يحمّي.. ودخل في وسطنا رمضان الأعرج مخبر الحتة وبلّغ عننا.. دا الكلام

اللّـي حصل.. حصل لمدة شهر معايا ومع محمود وعرفنا بعـد كده من أهالينا أن رمضان الأعرج دا هوّ مخبر أمن الدولـة في الحتة.. ولا انتقلنا من الشارع يعني راجل بيهتف واحنا كننـا وراه لّما كل واحد افتكر حرمانه من حاجة حصلت له.. يعـني لو لقينا حتة نلعب فيها عمرنا ما كنا عرفنا الشيخ خالـد ولا دخلنا جامع.. المشكلة كانت عندي وعند محمـود إن كنـّـا عايزين نفجّر الطاقة اللّـي جوانا.. للأسف.. رحنا في لعبـة واحنا لسه عيال ما نعرفش القمحة من كوز الذرة.. وبيقولـوا إن تهمتنا هي محاولة الانتمـاء لجماعـات إسـلامية.. يعـني إيه..ويعني إيه جماعات وهيّ فين الجماعات دي.. هـوّ فيـه جماعات إسلامية وجماعات تانية.. تعالى يا أمي صوّتي عليـه.. رحنا في شربة ميّة.. إحنا ضحية.. ضحية.. ضحية مين.. حد يقولّـي إحنا الأطفال ضحية مين ..

* * * * *

.. لم نكن ندافع عن أنفسنا فلم نكن أمام محكمة ولكننـا في ظلام زنزانة مخيفة، و لم نكن نبرّر شيئا خطأ اقترفناه فـنحن جميعا لم نقترف أي شيء، كنا نبحث في ذواتنا ربما يكون هناك شيء مخيف فيها، لم يكن لدي أي منا معرفة عميقة بالحياة لأننا كنا في داخل الحياة الأولية بطفولة أي إنسان، ربما كنا كالقطط أو كالكلاب التي تهز ذيلها لكل من ابتسم لها أو داعبها، كيف تأتي أي تجربة في الحياة لأولاد لم يخرجوا عن نطاق شـارعهم،

وكيف تتزن أي نازلة بأطفال يبحثون عن مكان يلعبون فيـــه.. إننا نعيش جميعا حياة يتولاها الأب والأم ولم يكن لأي منا رأي في شيء، إن الحياة تأتي بتجاربها حين يقذف بالإنسان خـــارج نطاقها، نتكلم كثيرا عن حالنا ونعتبر الذي حدث لنا شيء من الخيال المخيف الذي صنعه عمل الآخرين لنا وهم يتسابقون من أجل النجاح في وظائفهم وإثبات ذواقم المجنونة وليس مهما أن يكون على حساب الأبرياء.. وكأن العنف والبطش والتنكيــل في تفكيرهم هو الذي يصنع حالات خوف عامة تولد الأمـــان والاستقرار والأمن لهم.. وكنا نقول إلى من نـــذهب بقـــضيتنا ليحكم العدل لنا.. وللأسف عندما دخل كل منـــا في دوامـــة عمل التظلمات وتحدّد لنا الجلسات لكي تحكم المحكمة.. كنـــا جميعا واحدا بعد الأخر يحكم له بالإفراج.. هو إفـــراج علـــى الورق.. إفراجات مزّيفه لأنها لا تنفذ.. إن وزير الداخلية يقف على باب كل إفراج ليكتب كلمة واحدة.. يعاد اعتقالـــه.. إلى هذه الدرجة بلغ الظلم وبلغ التنكيل والاستهتار بالبشر.. بـــدأ ياسر كلامه بكل هذه الفلسفة وهذه التساؤلات وهذا الفكـــر والذي ليس غريبا أن يصل إليه طالب في السنة الثانيـــة بكليـــة الهندسة وقد بلغ من العمر واحدا وعشرين عاما.. وبدأ بعـــد ذلك يتكلم عن صلب حاله قائلا :

- أنا على فكرة أغلب واحد فيكم.. ساكنين في حارة ميّة المجاري ضاربة فيها على طول شقتنا ما فيهاش كرسى حد يقعد عليه.. أبويا من المنيا طلع من بلده وجه مصر.. كـــان قـــالع

وحاف مامعهوش اللـــّضة.. اشتغل في قهوة وبعدين مرّت الأيام
بيه إشترى حمار وعربية وراح يلف في الشوارع يبيع الخضار..
حاله اتحسن شويه سافر واتجوز أمي من نفس بلده وكان عنده
نص قيراط باعه لأخوه وجه دفع مقدّم شقة أي كـــلام يمكـــن
لغاية دلوقتي تربط الحمار فيها يفك ويقطع.. بعـــدين القـــرش
جري معاه اتجوز واحدة تانية كانت عايشة في خص مع ولادها
في المرج.. مشيت الأيام وطلـــّق أمي وســـابها مـــن غـــير أي
مصروف وكنا عيال صغيّرة قطط عمي.. خمـــس عيـــال أنـــا
وأخويا وتلات بنات، تعمل إيه أمي.. ربنا كرمهـــا وراحـــت
اشتغلت شغالة في بيت وكنا بنفرح لّما ترجع البيت.. كل يـــوم
تيجي بشنطة فيها بواقي عيش ورز وطبيخ وعضم.. المهم والله
لولا الشنطة دي كنا هانعمل إيه.. ومشي الحال ناس غلابه ما
لهمش أب وأم شقيانة في البيوت وعيال عايشة على رزق يـــوم
بيوم بواقي كل بيت كريم.. وطبعا لا أخفي عليكم كان كـــل
الناس اللـــي في الحتة تساعد أمي في المواسم وشـــهر رمـــضان
وكان ليها عند كتير من الناس نصيب من زكاة المال وزكـــاة
رمضان.. وفي يوم سافرت صاحبة البيت بلـــدها.. صـــاحب
البيت طمع في أمي واستطاعت في هذا اليوم أن تنجـــو منـــه
بأعجوبة.. سابت الشغل في البيت ده وقعدت شهر في البيـــت
بدون شغل.. شفنا في الشهر ده الجوع والذل والحرمان.. بعد
كده ربنا كرمها واشتغلت في بيت في مصر الجديدة.. معلهش
كل حكايتي دي مع الزمن.. لكن الحكاية اللـــّي جابتني هنـــا

زي كل واحد فيكم .. سمعت الشيخ خالد وقلت له كلامك صح لو فيه عدل ما كنتش أمي شافت اللّي شافته وماكناش شفنا الفقر ده.. وأنا من يومي من سن عشر سنين وأنا باشتغل مرّة في محل أحذية ومرّة عند بقال ومرّة عامل نظافة في صالون حلاقة.. بعد كده ضربت معايا في بيت أقوم بأعمال النظافة فيه وأودّي الأطفال المدرسة وأجيبهم.. وفي يوم صاحب البيت مات في حادثة وساب مراته شابة أربعين سنة.. في يوم قالت لي سيدة البيت أنا عايزاك تنضّف نفسك شوية.. بعد ما وديت الأولاد المدرسة في يوم ورجعت أنضّف البيت قالت إعمل سنانك بالمعجون وخش إستحمة كويس.. وكنت خادم مطيع لها قعدت شهر أنضف نفسي وأدخل استحمة لغاية ما بقيت نضيف أوي.. راحت تغدق عليّ بالفلوس وطعام أخده لاخواتي.. إلى أن جاء يوم أخبرتني فيه بأنها تشعر بآلام في ظهرها وساقيها وأنها في حاجة إلى علاج طبيعي وبدلا من الذهاب للطبيب عليّ أنا أقوم به مقابل أجر.. ووافقت على الفور وقلت لها تحت أمرك.. أنا خدّامك .. وكدت أجن وأنا أري لأول مرّة في حياتي جسد امرأة.. وقمت بتدليك كل مكان في جسدها إلى أن شعرت بانهيار تام لجسدي.. وشعرت بأقصى درجات الجنون عندما قالت لي.. إنت تعبت.. قلت لها تعبت.. فقالت إعمل ما تريده.. فقلت لها أنا مكسوف يا ستي.. فقالت وهي تضحك ضحكة ماجنة.. لأ يا سيدي أنا مش ستك .. إنت اللّي سيدي.. هوّ إنت مش راجل.. قلت

لها راجل أوي.. قالت طيب وربّي.. قعدت معاها سنة وبعدين تعبت نفسيا..حكيت لراجل طيب موضوعي معاهـا قـال لي عيشتك كلها حرام في حرام وامشي فورا من البيت ده.. قلت له والشغل والفلوس .. الراجل دا جاب لي شغله كويـسة في محل ملابس جاهزة بس على شرط أربّي دقني.. ربيـت دقـني وكنت حاسس إني عملت ذنوب كتيرة، تاني شرط أفتح المحل بعد صلاة الفجر أجهّزه واشتغل في توضيب الفاترينات وأمشي الضهر.. قلت أصلـّي الفجر الأول واسمع شوية كـلام مـن الشيخ يغسلوا ذنوبي ويقويني كلام ربنا علشان مارجعش تـاني للمعصية.. آدي كل الحكاية.. من عاشق للـست دي لمحـل الملابس فين بقة محاولتي للإنتماء لجماعات إسلامية.. بـصراحة أنا لغاية دلوقتي بقول لنفسي يا ريتني ما سـبت الـست دي ويمكن أرجع ليها تاني بعدما طلع.. أنا أصلا شاب طـايش في الأول والآخر.. يعني سبت الهنا كله وفي محاولتي للانتقال مـن الخطيئة للتوبة حت لي مصيبة أنا مش عارف أي حاجة في أي حاجة..

* * * * *

أما محمد كمال سائق التاكسي أكبرهم سنا.. سنه خمـسة وتلاتين سنة متجوز واحدة منتقبّة من باب الشعرية أبوه مـات وأمه ست كبيرة.. جه خد شقة إيجار جديد في جسر السويس وكل دخله على الإيجار والعيشة وليه ولدين صغيّرين.. لمّا دخل

السجن وقف التاكسي ما عدشي فيه أي دخل.. وفي آخر مرّة قال لمراته بيعي التاكسي واصرفي منه.. كل أهله وأهلها فقـــراء أعطوها مرّة واثنين وخمسة فلوس علشان تعمل زيارة وبعـــدين هربوا منها وأهلها قالوا لها من النهاردة مالناش دعـــوة بيكـــي جوزك إرهابي ما تشبهناش.. كان كل زملاؤه عارفين حكايته دي لأنه كان حكاها قبل ما حد يحكي.. لكنه أضاف قائلا :

- الجديد أقول سبب دخولي هنا.. أنا كنت بتـــاع قهـــوة وشيشة وما فيش مانع لو حاجة على الريحة في ســـيجارة أو في كرسي الجوزة.. لكن لّما اتجوزت كانت المسئولية جامدة عليّـــة كان لازم أغير من كل شيء جددت التاكسي ونصحني واحد صاحبي بأن أحسن شغل للتاكسي من بعد صلاة الفجر حـــتى الضهر في الرواقة والطراوة وزبون بدري أحلى وقبل الدنيا مـــا تتزحم.. قلت أحسن حاجة أمشي عدل أوي علشان العيال.. مراتي في يوم قالت لي.. إلتزم.. يعني إنه التزم.. قالـــت ربّـــي ذقنك وروح صلّي الفجر كل يوم وبعد الصلاة اشـــتغل زي ماقالك صاحبك.. خلـيّها صفحة جديدة مـــن الاســـتقامة.. عملت زي ما قالت لي.. وفي اليوم المشئوم لّما الشيخ خالد قعد يزعّق.. الحاكم ظالم وكافر اللـــي ما يحكمش بشرع الله وقلنا كلـــنا وراه أيوه صح.. أيوه صح والله يومها كان رمضان لابد في العامود وعامل نفسه نام بس ما خدتش فيها ولا إديت.. لّما دخلت هنا ربطت الأحداث وعرفت إحنا ليه جينا هنا.. إحنـــا

كنـّا في رأيهم بؤرة كان لازم تصفيتها.. بس بالشكل ده..
كان ممكن يومين في قسم السلام أو يومين في لاظوغلي كان
كفاية أوي.. لكن المصيبة إن العملية سودة تعرفوا أنا باحمد
ربّنا إن مراتي لابسه النقاب علشان تداري وحاشتها زي ما فيه
نسوان كتير وحشة عاملة كده.. آهو منها تدين ومنها تداري
وحاشتها.. لأنها لو جميلة مع طول الوقت كانت هاتبقة مطمع
للناس خاصة لمّا يعرفوا إن جوزها معتقل..

* * * * *

ولما كان كل منهم يحكي حكايته كانوا جميعا ينصتون
ويشعرون بأن هناك غشاوة ثقيلة تقف فوق رأس كل منهم ..
وكان محمد رمضان الذي يبلغ من العمر تسعة عشرة عاما
فحكى قائلا :

- حصلت على دبلوم التجارة وتركت بيت أبي في بولاق
الدكرور لأعيش في بيت جدتي التي تسكن في حارة بجسر
السويس وكان هدف أهلي هو الحصول على فرصة عمل في
أي محل هناك وأن أفسح مكانا في بيتنا الصغير لغيري من
إخوتي.. وكان أبي صنايعي يعمل ميكانيكي في ورشة سيارات
وهو من قنا ويكبر أمي بأكثر من ربع قرن.. وهناك في جسر
السويس عملت بائعا للزبادي والألبان في محل للمواد الغذائية
وكانت تديره إمرأة منتقبة تبلغ من العمر قرابة الخمسين عاما
حيث مات عنها زوجها منذ أكثر من عشر سنوات، كانت

سيدة قوية الجسد هادئة لصوتها طراوة لم أتعوّد على سماعه من قبل.. وكنت في آخر الليل أحمل معها بعض الأكياس والمتاع وأوصّلها إلى بيتها الذي يقع في حارة تقع بين شارعين ناحية شارع أبو الفتوح.. وفي يوم بعد آخر كانت تحكي لي مشاكلها مع أولادها الصبيان الثلاثة الذين يتلقون تعليمهم في مراحل الدراسة المختلفة من ابتدائي وحتى الجامعة.. وكيف أن كل واحد منهم يطلب منها نقودا مغالى فيها كانت تقدر عليها بالعافية.. و لم يكن هناك واحد منهم يشاركها في أي عمل ولا يسأل عنها ولا يتودّد إليها وأخبرتني بأن والدهم كان هو الأخر قاسيا عليها.. عملت لدى هذه السيدة بجد وأخلصت في عملي معها.. وكنت ودودًا معها وحنونًا.. ويوما بعد يوم كانت تقترب مني بجسدها المثير وتأتي إلى مخزن المحل معي لنجهّز سويا أكياس البن التي ستباع في الصباح ونعد الزبادي وأشياء أخرى.. فإذا دخلت في مكان ضيق بين برميلين دخلت معي حتى جاء يوم وقالت لي.. لماذا لا تتزوج.. فأخبرتها بأنني صغير وأساعد أبي في تربية أخوتي السبعة وأساعدهم على التعليم.. وزادت من راتبي وراحت تعطيني كل يوم كيسا من اللبن وزبادي لي ولجدتي.. وفي يوم آخر زارنا في المحل أخوها الوحيد وهو رجل ملتح وطلب منها أنه يفضّل لها أن ألتحي حتى أكون ملتزما لأنه يجب أن تشغّل أخته واحدا متدينا وملتزما.. أخبرتني بذلك فأطلقت لحيتي.. وكلّما طلبت منّي طلبا أجبتها.. وقالت لي في يوم.. ما رأيك أن تأتي إلى المحل بعد صلاة الفجر مباشرة

ليكون المحل جاهزا تماما للعمل في السادسة صباحًا..أجبتـها..
ومرّت أيام قالت لي.. إذا كنت في حاجة لأن استريح خـلال
النهار خاصة عند الظهر فعليّ أن أصعد إلى الصندرة لأنام بعض
الوقت فوافقتها واشترت لي مرتبة ومخدة وغطاءً وأعدته فراشـا
نظيفا وجميلا ووافقتها.. وراحت توقظني كل يوم بعد أن آخذ
قسطا من النوم.. مرّة تمسك برأسي في حنان.. ومرّة تمـسك
بكتفي وتهزّني في دلال.. إصحى يامحمد.. اصحي يا حمـادة..
وتجرأت شيئا فشيئا وفي يوم وضـعت يـدها فـوق صـرّتي
وأمسكتني منها وراحت تقول.. إصحي يا أعز الناس.. إصحى
يا روح قلبي.. إصحي يانن عيوني.. أمسكت بأعصابي وقمت
وأنا في منتهى النشوة والإثارة وأمسكت بيدها في حنان بـالغ
ورحت أقبل كف يدها في حنان أشـد.. فراحـت تبكـي..
ووضعت رأسها فوق جسدي فوجدتني مثارًا وأمـسكت بـه
وراحت تعصره بأصابعها كأنها تدر ضرع بقرة.. فقلت لها هذا
كثير عليّ يا سيدتي.. فقالت وكثير عليّ.. إنك معي منذ عام..
إرتحت إليك وإلى إخلاصك ولا أستطيع أن أصبر.. ولكن لماذا
لا تتزوجني.. تزوجني يا محمد حتى لا نعصى الله.. إنـني لـو
طاوعت رغبتي الجامحة نحوك لأعطيتك بأي شكل.. ولكـن إذا
كان في امكاننا الحلال.. لماذا لا تتزوجني.. فقلت لهـا وهـل
يرضى أولادك.. فـأخبرتني بـالنفي.. إنهـم أولادا أشـداء
وسيسخرون مني.. فقلت لهـا وكيـف أتزوجـك وهـم لا
يوافقون.. وخلعت ملابسها بعصبية وهي ترتعش ونزعت عني

ملابسي وبكت بحرقة.. وطفقت.. كمّل .. كمله .. يكملك بعقلك..

.. وضحك محمود بصوت عال وتبعه إيهاب ثم قالا :

- كمّل .. كمّل . يا بختك..

- علشان كده رحت في داهية..

محمود : هيّ فين الست دي علشان أروح ليها لمّا أطلع..

إيهاب : وأنا كمان خدني معاك يا محمود..

محمود : بصراحة أنا نسيت السجن والظلم شوية من حكايتك وحكاية ياسر..

محمد رمضان: طيّب خلاص اكمّل ..

- كنت ألقاها كل يوم مرّة ومرتان.. و لم تتكلم معي عن الزواج بعد ذلك.. كانت جائعة وكنت أنا أيضا.. وشعرت مع الأيام بأنني في كابوس لا ينتهي.. وفي كل صباح أذهب لصلاة الفجر في مسجد الشيخ خالد في محاولات لأزيح عن نفسي ثم أذهب لأفتح المحل.. ولو كنت مستور الحال لما عملت عند هذه السيدة، وكنت أشعر دائما بأن فقرى وحاجتي للمال لمساعدة أهلي هي السبب الرئيسي لما وصلت إليه لأنني كنت أستغرق معها وأحاول دائما إسعادها لأحافظ على عملي معها.. ولمّا كنت أذهب إلى المسجد أشعر بأنني ضعيف وأنني على خطأ كبير.. كنت أريد أن أنفجر وكان حماس الشيخ خالد شديدا وكنت أندمج معه في حماسة ومن أجل ذلك زعقت بأعلى

صوتي.. نعم الحاكم ظالم.. نعم الحاكم كافر لأنه لـــو حكـــم بشرع الله لانتشر العدل وتوفرت الأعمال الشريفة لكل الناس.. نعم إنني في هذا اليوم بالذات رأيت رمضان وهو نائم خلفنا..

.. وهز إيهاب رأسه في أسف وقال :

- كل واحد فيكم ليه حكاية يستاهل فيها اللـــي جـــري له.. لكن أنا ومحمود ما عملناش حاجة .

محمد رمضان: كل اللـــي عملته بعيد عن همتي.. بعيد عن أي جماعات.. أنا همتي همة تانية خالص..

محمد كمال : علشان كلنا رحنا الجامع وأيدنا الشيخ خالد في كلامه.. وكل واحد فينا بيفك نفسه وخلاص.. وكل واحد جه لغرض في نفسه مش من أجل الله.. وفي كل الأحوال مـــا فيش واحد فينا وراه أي حاجة.. ما فيش حد فينـــا عنـــده أي فكر ولا أي تطرف ولا أي إتجاه.. كلنا ناس بتوع دنيا ومـــش بتوع دين ولا بتوع أي جماعات.. آهي هوجة والسلام وعملوا شغل علينا وخلاص..

محمود الخطيب : أنا ما عملتش أي حاجة أنا زي محمـــود وإيهاب.. يبقة الموضوع كله شغل..رمضان عمل شغل علينـــا بتوجيهات من ضابط السلام إن ما يبقاش فيه أي تجمعـــات في الجوامع..

* * * * *

لم يكن هناك أحد من هؤلاء المعتقلين أن يفعل شيئا من أجل إنقاذ نفسه، ولكن كان في مقدور أي منهم أن يحكي للآخر حكايات من حياته، وبدأوا بعد ذلك يحكون حكايات عن بلادهم وأهليهم وجيرانهم وكان ذلك أقصى ما يستطيعون فعله.. وفي مساء أحد الأيام قال ياسر :

- أين الزعيم.. وسكت.. وكرّر بعد هينهه.. أين الزعيم..

فقال بعضهم :

- أي زعيم

- في السلام وفي لاظوغلي أثناء التحقيقات سألونا جميعا.. ماذا كان يقول لكم أيمن.. ماذا كان يقول لكم أيمن.. ألم ينصّبوا عليها زعيما.. وكان أيمن هذا كان يقودنا بشكل منتظم إلى شيء ما.. وسكت ثانية..

وراح كل منهم يوشوش الآخر.. من هو أيمن.. ويبدو أن أحدا لا يعرفه.. وسكتوا فقال محمود الخطيب بعد أن لاحظ أن أحدا لا يعرفه :

- إيمن هذا أعرفه شكلا.. ولكن والله لم أكلّمه مرّة واحدة في حياتي ..

- هو شاب يقترب من الثلاثين عاما.. طوله متر وله وجه ضخم ووشه كله منغولي.. تحس كده لماتشوفه إنه مدروش أو

به شيئا من الهبل والعبط.. وهو ابن رجل صعيدى يلبس جلابية ويملك محلا لمرتجعات الجرايد والمجلات ويعمل في محله قرابة ستة أفراد أيمن واحد منهم.. وكانوا اعتقلوه مرّة قبل ذلك.. وكـــل ما يقوم به في حياته أنه مطلق اللحية ودائم علـــى الـــصلاة في المسجد كل وقت لأن المسجد أمام محل أبوه.. وســـاكت ولا يكلّم أحدا وعايش مع نفسه.. هوّ تقريبا عاجبـــهم فجـــابوه وعملوه زعيم لينا..

.. وقال كل منهم واحدا بعد الآخر.. بعضهم يعرف شكله وبعضهم لم يره أبدا.. وأجمعوا جميعا أنه لم يتكلم مع أي منهم مرّة واحدة.. وكذلك هم لم يتحدثوا معه قط..

.. ولكن يبدو أن نظام الشغل كي يكون محبوكا وصحيحا أن يكون لكل جماعة زعيم يقودهم، وليس مهما أنهم يعرفونـــه أو هو يعرفهم. هم أقوى الناس وأشطرهم في تلبيس الناس تهم وبالتعذيب يعترف أجدع واحد في أي جماعة بما يريدونـــه أن يعترف.. الموضوع في الأول والآخر سياسة لازم من تطبيقهـــا ولازم يعملوا شغل علشان يبقوا جديرين بشغلهم وأكفاء.. وفي الآخر مش مهم الناس.. يعني إيه ناس.. إضرب بالجزمة زي ما انت عايز.. ما فيش حاجة إسمها ناس..

بنفس إحساسه المتزايد كل يوم في أحزانه على ولده كـــان بنفس المقدار من السعادة يمر عليه في علاقته مع ماريانـــا، إنهـــا تمنحه قوة في بأسه وحنانا تجاه كل ملمـــح في تلـــك الحيـــاة حواليّه.. إنه الحب كله، المملوء بالود والحنان والدفء، وكانت السيدة زكية شديدة التأثر المؤلم بعد رؤيتها محمود الـــصغير في معتقله، وكثيرا ما كانت تتكلم مع نفسها :

- من يتحمل رؤية طفل مثله وقد خطفه الأقزام الـــذين لا يستحون..

إلى من يسمعني أو يستطيع أن يدخل في أعماق أحـــزاني.. لقد تم اعتقال مصر باعتقال أطفالها..

إن البلاد التي تعتقل الأبرياء تهدر من كرامتها مقـــدار بمـــا أصاب البريء من ألم ..

إن عليكم أن تستحوا.. هل تفحصتم صورتكم وســـفالتكم التي ألقيتم بها فوق كل بيت ودار.. إن كل الأفعال المهينة التي تقترفونها كل فجر وليل ونهار تستحي من الهـــواء والـــشمس والقمر وأنتم لا تستحون لأنكم أقزام..

قبل هذا الزمن الحقير الذي صنعتموه لم نكن نشعر أو نرى هذه البجاحة، إنه منذ قدومكم وأنتم تعربدون وتسرقون والآن

أنتم تعتقلون الأطفال من أحضان أمهاتهم.. أنتم وحل البـــهائم والخنازير والكلاب المسعورة..

إنني أخاف على الناس في بلادنا أن ينتهوا أو يذهبوا وتكون بلادنا أنتم فقط فعلى الله السلام..

إلى من أدعو.. إلى من أذهب بقضيتي وقضية كـــل أطفـــال وأبرياء مصر.. إنني تعبتُ لأنني لا أرى أحدا.. فهـــل ذهـــب الرجال..

.. وبدأت السيدة الكبيرة منذ عودتها من زيـــارة محمـــود تكتب مذكراتها الحزينة التي كانت ماريانا تأتيني بها كل يـــوم لأقرأها..

.. وفي يوم كان الليل ينتصف ولّما فتحت نافذة غرفة نومها وجدت أن سماء القاهرة تمتلىء بسحابات سوداء كأنها دخـــان فرن يعمل بالسولار قد صعد فوق رأسها وكان البرد شـــديدا فقفلت نافذتها، كانت تريد أن ترى السماء ومن فيها.. كانت تريد أن تبحث في بطن السحب إن كانت صافية عن شيء في السماء وكانت هذه عادتها عندما تشعر أن شيئا يضيق بهـــا.. لقد غاب عنها كل هذا الوقت في الليل.. تُرى هل معها؟ أدعته يعاشرها فلبّى.. إذا لماذا تأخر.. قلقها كان شديدا وحرصها ألا ينام ليلة واحدة في بيتها أشد.. إنها لن تقربه بعد وليتني أمنعهـــا أن ترى وجهه وتتمتع برؤية جسده الفارغ.. إنني فقط امرأتـــه

ولن تداعب شعر صدره غيري ولن تقبّله امرأة دوني، لقد أذاب جليد حياتي وحصلت عليه بصعوبة بالغة فكيف يكون لي أبدا أحبسه داخل مملكتي فلا يرى شيئا في الدنيا إلا أنا.. هو الرجل الذي جعل حياتها سعادة ووضعها في طريق الحب وأدخلها طريق الأنوثة الحقيقي.. عزف جيتارها أحلى الألحان وهو الذي عزف.. وتتفوه بأحلى الكلمات وهو الذي جعلها تنطق بها.. فكيف لها به.. وكيف لها أن تجعله ملكا وحيدا لها..

.. قرع الباب فجرت إليه وكادت تسقط من شدة لهفتها عليه.. وفتحت الباب وألقت بنفسها فوق صدره وراحت تبكي بحرقة فحملها بين يديه وهو يملأ وجهها الباكي بقبلاته ويمسح دموعها بشفتيه.. ولاذت به وأمسكت بقميصه وقد تعرت من تحته وكشفت عن ساقيها وجسدها كله الذي عاد بين يديه وقالت وقد هدأ نحيبها قليلا:

- لن تذهب ثانية إليها.

فتخلص من يديها ومن فوق جسدها في رفق وامتد بطوله بجانبها وهو يحتضنها وما زال يرتب عليها وقال في هدوء :

- إنني لم أذهب إليها.. إنني أذهب الى أبنائي..

- ومن يدريني .. ألم تغير كلامها في أنها لن تعطيك نفسها مادام ولدها في المعتقل.. ألم تتشوق إليك لحظة.. ألم يهدأ

حزنها بعد أن إطمأنت قليلا على ما ألم بها.. الست زوجها إلى الآن.. لماذا لا تطلقها.. طلـقها إن كنت تحبني حقا..

- هدئي من روعك.. ماذا أصابك إنك لم تتفوهي بـذلك من قبل.. لماذا الليلة ..

- لو كنت تحبني لطلـقتها.. ولكن يبدو أنني لا أكفيك..

- أنت بكل النساء.. لقد كفـيت حياتي بكل شيء.. إن حياتي غنية بك.. ولكن ألا ترين أنني لو طلـقتها الآن سأزيد من أحزانها.. وتصورى أن ولدى لو علم ربما يموت في سجنه..

- إذا هات أبنائك هنا في بيتي..

- أي أبناء يرتاحون ويسعدون وهم مع أمهاتهم..

- سوف أكون لهم كل شيء..

- هذا كلام نظري..ولو كان في البيت شقة جاهزة لكـان ذلك أقرب.. ولكن كيف سيعيش الأبناء معنا في بيت واحد.. أنت الآن حرة طليقة في بيتك.. فأنت تتحركين في بيتك مـع أمك وأنا وأنت بقميص أو عارية أو بالشورت.. لا إن ذلك لا ينفع..

- أجهز لهم الطابق الأرضي..

- حتى لو جهزت لهم قصرا.. إنهما لن يتركا أمهما..

- إذا لابد من حل آخر.. وسكتت..

- فقال :

- ما هو.. إذهب كل أسبوع وليس في أي وقت يحلو لك.. وإذا ذهبت فلك ساعتين فقط بعدها إذا تأخرت سأقتل نفسي..

- يا حبيبتي ليس بهذا يكون الحب.. إهدئي واطمئني فأنا لك.. وسوف أفعل كل ما تريدين بعد خروج ولدي من معتقله..

- المشكلة أنه حتى يخرج.. إنه لو قتل قتيلا سنعرف متى سيخرج.. ولكن المصيبة أنه لا أحد يعرف متى سيخرج هذا الطفل..

- إن ولدي ومن على شاكلته ارتكب خيانة كبرى حتى أنا لا أعرف ما هي هذه الخيانة وما حجمها.. كل ما أعرفه.. أن ابني كان سيعمل إذا تركوه.. إن طفلي كان يحاول الانتماء إلى جماعات إسلامية.. لكنه لم يفلح.. إنه لم يفعل أي شيء.. لكنه أصبح عبرة لكل أطفال الحي.. فلا يذهب أحد إلى جامع بشكل دائم وثانيا أن لا يلتف الأطفال حول شيخ.. وألا يوافقوه على شيء.. ألم يكن من الأجدى أن يقبضوا على هذا الشيخ.. إن هذا الشيخ ما زال حرا طليقا.. إنهم يريدونه كذلك حتى يجمع حوله أطفال آخرون.. هذا ما أظنه.. أو هذا الحاصل فعلا..

- أه لا تقلّب عليّ الأحزان العامة التي تعيشها البلـــد.. لا تحزني على ولدك أكثر مما أحزن ولكن في النهاية أنت هربـــت من كل اقتراحاتي..

- هل تثق فيّ ؟

- إنني لا أراك لّما تذهب إلى هناك..

- يا سيدتي الغالية.. إن هـــذه الأم عـــادت كتلـــة مـــن الأحزان.. إنها لا تستطيع الآن أن تعمل أي شيء لأبنائها.. إن أمها دائمة العيش معها لتقضي حاجـــات البيـــت وحاجياتهـــا وحاجات الأبناء.. إن هذه الزوجة لم تعد قادرة علـــى غـــسل ملابسها.. إن ابنتها تدخل معهـــا الحمـــام لتـــساعدها علـــى الاستحمام.. ماذا تريدين بعد.. لقد أصبحت قعيدة الفراش ولا تقدر على شيء فكيف لي أن ألقاها.. إطمئني..

.. غالبها النوم بعد ذلك.. فأخذها في أحضانه وناما حـــتى صباح اليوم التالي ..

* * * * *

بدأ المطر يهطل بغزارة في هذا الـــصباح وأغرقـــت الميـــاه شوارع حي حدائق الزيتون.. الزيتون التي شيّد فوق أرضـــها الكنائس القديمة والتي مازالت تهتف بأزمنة كثيرة مضت عليها.. والبيوت المتفرقة التي كانت قصور أزمنة كانت.. منها الكـــثير المقفل والذي إعتراه ترابا كأن أصحابها تركوها وهـــاجروا إلى

بلاد أخرى.. وهذه المساجد التي ارتفعت شاهقة في هذا الحـــي وانتشرت حولها أسواق صغيرة تبيع الكتب الدينيـــة والمـــسابح والعباءات النسائية والطرح.. أدخنة البخور تعبق في كل مكان خاصة في الليل والمقاهي تأخذ أمـــاكن متفرقـــة في الـــشوارع والميادين الكبيرة والحارات الضيقة.. كل شيء تجـــده في هـــذا الحي حتى الأسواق العامة ومحلات الذهب والملابـــس.. حـــي عامر بالناس من كل صنف وملة ودين والجميع قد انصهروا في بوتقة فيها تختلط كل الأجناس والأشباه والمستغيرات والقـــديم والحديث والعتيق وتفوح من الوعاء بل وفيه كل الأوعية عراقة وتاريخ شعب مازال باقيا وقويا ومنيعا رغم مراحـــل حكـــم العسكر المتردّية في الظلم وضرب العدالـــة والحريـــة وانتـــشار الفساد الذي نخر عظام الأمة.. وما زال الناس لا تعرف ما سر بقاء تماسك هذا الحي وأصالته مثل أحياء أخرى كثيرة في تلك القاهرة التي يوجعها أهلها حاكميها ومحكوميها وما زالت تنبض به الحياة.. فهل هو النفس الأخير أم أن هذه المدينة تتجدد مـــن تلقاء نفسها أو من تلقائية أهلها..

.. لا أحد يعرف سر البقاء كما لا يعرف أحد سر من يحيا وسر من يموت وخبايا الأمراض التي إنتشرت بـــين الأطفـــال والشباب والصبايا قبل الرجال الكبار والنساء والشيوخ.. لكن الجميع هم سر البقاء لو كان موجعًا أو مؤلمًا قبلوه ولو إنـــزاح

عنهم ودعوه لكنه سرعان ما يعود فلن يصبر ولن يقوى على الألم والوجع والآه غير هؤلاء القوم الذين صبروا على الصبر وزرعوه.. لكن إلى متى يزرعونه.. لما لا يزرعون نبتا صالحا.. لماذا عن القمح حرقوه وعن الذرة قطعوه وعن القطن نسوه.. لماذا وهم أهل الزرع والنبت والضرع.. لماذا ومياه النيل تشق الأراضي كلها وحتى البيوت..

.. عن كل هذا تحدثت السيدة زكية أم ماريانا وصبرى وماريانا التي أصرّت أن تدخل في أحضان صبرى تحت الغطاء وأمها التي جلبت كل طعام الفطور وحدها ووضعته في متناول أيديهم.. وجلست السيدة الكبيرة فوق شلتة على الأرض وهي تسخّن الخبز فوق قصعة نار من الخشب أشعلته بعيدا في مطبخ البيت القديم الذي يقع في طرف الطابق.. هذه السيدة تذكرت أيام طفولتها عندما يكون الجو باردا.. كيف كان أبوها وأمها يجلسون جميعا حول النار في غرفة النوم وفي متناول أيديهم جميعا الخبز الساخن والجبن والزبدة واللبن.. كيف كانوا جميعا يتناولون الطعام ويشّربون الشاي ويتدفأون ويتكلمون ويحكون ويسعدون حتى الضحى العالي .. أرادت السيدة أن تكرر هذا الجو الجميل من ذكريات الصبا.. حكت لهم عن كل شيء قديم وعن الأفران والحطب والدقيق الذي يملأ كل البيت عن غرفة المؤن التي كانت تكتظ بزلع الجبن القديم وأنواع المخلل وأدسات الزبدة والقشطة وأطباق الخوص التي تكتظ بكل أنواع الخبز من بتاو وعيش سن وعيش أبيض وكعك وبسكوت وبنين

وغريبة.. كل شيء من الطعام في كل دار حتى أفقرت البيوت وأقلها شأنا كان فيها ما يكفيها.. فكيف الآن ما فيها ما يكفيها.. كيف للبيوت وقد عادت خربة أو مهجورة أو مسروقة.. كيف للناس أن يعيشوا كما كانوا يعيشون.. كيف للناس أن تعيش واللصوص يسرقون ويبيعون ما كنا نملكه علنًا ولا نستطيع أن نقول لهم لماذا تفعلون هذا.. لأنه إذا تكلّم أحد فالنار والرصاص والاعتقال مثوى له.. .. إلى من نذهب لنشتكي .. إلى من نذهب ليعيد ما كنا نملكه.. إلى من نذهب لنزرع ما كنا نزرع ونصنع ما كنا نصنع إلى متى نذهب لنمسك باللصوص ونحاكم الخونة وبائعي الشعوب.. إلى من نذهب لنبيع الفقر والجوع والعري والمهانة.. لا أحد يشترى من أفقر نفسه أو عرّاها أو أهانها.. لأنه لاذ بالصمت وزرع الصبر وأدخل الخوف كل قلب.

* * * * *

لم يكن أحد يصدّق أن السيدة الكبيرة لها كل هذا الكلام وأن في دماغها ما تختزنه كل أدمغة الناس في هذه البلاد.. انعدلت في جلستي فوق الفراش وعدلت ماريانا في نومها وقلت للسيدة الكبيرة في تدبّر :

- ما هو المطلوب منا يا سيدتي.. أو بالأحرى ما هو المطلوب مني أن أفعل..

- الكثير.. مطلوب منك الكثير.. أنت والجميع تبحثون عن شيء واحد فقط.. المال والطعام والشراب والنساء.. الناس جميعا تبحث عن البطن والفرج..

- أليست هذه الدنيا منذ بدء الخليقة ..

- نعم ولكن بالحق وبالعدل..

- أنا لا أري أي حق وأي عدل..

- أين ذهبا..

- إبحث في داخلك وأنت تجدهما..

- إنني لا أجد شيئا مثل هذا.. إنني من الرعية والعدل والحق عند الحاكم..

- طبعا ولن تجدهما لقد ضاعا.. لأن كل منا يبحث عن نفسه فقط..

- أعود وأقول كل الناس هذه عادهما.. وأقول لك ثانية أنا من المحكومين..

- أقولها وتلك كلمتي ولا تضيق منّي ذرعا.. ولا نغضب ولا ننفعل..

- لا بالله لن يغضبني شيء منك..

- لو كنت شجاعا لكان على جثتك أن يأخذوا إبنك منك عنوة بدون وجه حق ..

- إنك وغيرك خفتم وأحنيتم رؤوسكم لكي يفعل من يحمل بندقية كل شيء وأي شيء.. لقد تساوى المثقف بالجاهل والمحاسب والمدير بالميكانيكي والبائع المتجول.. ولذلك فإن

عسكري واحد وبندقية واحدة في حركة واحدة أخافت الجميع.. إن الجميع تساوي في مقدار الخوف والجبن وذهبت الشجاعة والرجولة وضاع الحق.. لأن الجميع تساوى في صفة الخوف ومقداره لقد تعلّمنا الخوف في وقت واحد وتنازلنا عن الحق حتى قبل أن نخاف.. ضاعت قوة الحق وتساوى الرجال بالنساء.. إن كل ما يفعله الرجل الأن أنه يبكي مثل المرأة الضعيفة.. وضاع الحق عندما استنجدت المرأة بالرجل ليحميها فوجدته يبكي.. إذا كان شعب بأكمله يبكي فكيف يعطي من يحكم أي عدل لأناس تنازلوا جميعا عن حقوقهم.. يا صبري إن هذا الكلام للجميع لقد وصلنا جميعا إلى ذلك المنحدر المخيف من درك الحياة الاجتماعية المهينة.. والسؤال الآن .. هل سنظل هكذا نخاف.. هل سنظل طيلة حياتنا نبكي.. ما الفرق بين فئات الناس وما الفرق بين المرأة والرجل إذا كان الجميع يخاف ويبكي..

- وكيف لك يا سيدتي بهذه الفلسفة.. إنني لسن أغضب منك لأنك تقولين كلمة حق للجميع.. ولكن أنا لا أعرف كيف أبدأ لأعيد الحق إلى نفسي. وما الذي أفعله حتى لا أظل أبكي..

- مشوار طويل جدا ولا بد أن تضحّي بنفسك.. إن البكائين في بلادنا كل الناس.. حتى الأطفال الذين يولدون يبكون بحرقة لأنهم يريدون أن يعودوا إلى بطون أمهاتهم خير لهم من هذا المجتمع الحزين الضعيف.. إن دموع الناس في بلادي

تكفي لأن تقيم نهرا من الدموع.. ليتهم يقيمونه في الصحراء حتى ترتوي وتزخر بسنابل القمح والذرة على الأقل نقضي على أزمة الخبز.. إذا قضينا على أزمة الرغيف وفرّنا لكل فقير الحياة الكريمة.. أجمل شيء في بلادنا أن غالبية هذا الشعب إذا أكل رغيفا وطبقا من الفول شبع.. وإذا أكل رغيفا بحتة جبنة إمتلأ.. إننا بتوفير الدقيق حققنا الحياة الكريمة لشعب بسيط ..

- .. يا صبري اسأل أبوك عن فكرتي على الأقل تستفيد من الدموع..

- من أين آتي بأبي. إنك يا سيدتي جد ساخرة ولكنك تقدمين فكرة جديدة.. ولكن مهما بكينا فإن دموعنا فقط تغسل وجوهنا ولكنها لا تكفي لإقامة نهر.. إن نهر النيل يكفي..

- يكفي ولكن من يزرع.. إننا نعلن عن فشلنا دون حياء بأن نقول إن لدينا مخزونا من القمح يكفي ستة شهور.. ولماذا تستورد القمح؟ ولماذا لا تزرعه لنا ليكفينا وما يفيض نصدره لدولة أخرى فاشلة في الزراعة.. كيف يحدث لنا هذا ونحن جميعا فلاحون لم نتعلم مهنة أكثر من مهنة الزراعة..

- إنني أعتذر لك يا سيدتي عن كل هذا الفشل..

- يكفينا يا بني عسكرى وبندقية.. يكفينا أن نحكي كل يوم عن كتيبة مدججة بالسلاح تقتحم البيوت لتعتقل الأطفال من أحضان أمهاتهم.. يكفينا أن عسكرى ببندقية كفيل أن

يدخل شعبا بأكمله الجحور.. يكفينا هذا الجهل وهذا القهر إننا سنظل طيلة حياتنا نبكي ولن تغنينا دموعنا ولن تقيم قمرا..

- إنني أشعر أننا جميعا ارتكبنا أخطاءً كثيرة في حق بلادنا..

- كثيرة جدا..

* * * * *

.. ومن الأشياء التي كانت تسعد صبرى في عملــه أنــه لم يكن على صلة مباشرة بصاحب العمل، لقد كان الخواجة يجد أنه من السهل عليه أن يتصل بماريانا أولا ويطلب منها ما يريده من المالية.. كان يشخط وينطر ويتجبّر علــى العــاملين معــه ويعامل الجميع معاملة قاسية فيصيب كل من يقترب منه بتــوتر عصبي.. وكان الجميع يعمل على تجنبه أيضا.. إلا أن الوحيــد الذي يعمل على تجنبه هو المحاسب صــبري المــدير المــالي.. وكذلك كان يفعل صبرى ويعطي كافة التقارير المالية لماريانــا التي بدورها ترسلها إليه وتجيب له على كافــة الاستفــسارات الأخرى والتي كان يحيطها بها صبرى أيضا، وكانــت ماريانــا تحافظ على هذا الإطار لأنها في داخلها كانت تتمنى دائمــا ألا يحدث أي سوء تفاهم بينهما، ولولا أن صبري كان يحيطه علما بتقارير وبيانات ومعلومات مالية خطيرة عن شركته لم يكــن يعرفها من قبل لما حافظ الخواجه أبدا على أي إطــار.. فهــو

يدخل في الناس جميعا بما لا يليق بأقل قواعد وأصول التعامـل الإنساني، وهذا هو ما درج عليه معظم أصحاب الأمـوال في البلاد وتدرجت هذه المعاملة اللاإنسانية بين أصحاب الأعمال والعاملين حتى وصلت إلى درجة قطيعة بعد عام ١٩٩٠ ومـا بعدها، وكانت للتقارير المالية الخطيرة وبالأرقام أثر بالغ في اتخاذ القرارات الإدارية الجذرية في الإدارات والعاملين فيهـا حيـث بدأت الإدارة في معالجة أوجه البذخ والترشيد المالي ومراجعـة المشتريات ومحاسبة العاملين في كل الأقسام بشكل يـودي في النهاية إلى مقاومة السرقات المستترة ودفع الإكراميات المبـالغ فيها وذلك أدى في النهاية إلى تذمر شديد لكنه صامت لـدى كل ما كان ينتفع بالكثير قبل أن يكون هنـاك نظـام مـالي شديد.. وبدأ كثير من الناس يتربـصون بالمحاسـب صـبرى ويكيدون له كيدا ولكن الجميع كان يتوقـف عنـدما الـذي يمسكونه عليه حتى يقلقلوه أو يهزوه من مكانه، وكان يناصـر صبرى كل من المظلومين في الشركة مـن عمـال ومـوظفين وهؤلاء جميعا شعروا بأن هناك خطًا أخضرا يفيد الجميع وقاوم كل الذين يعملون في الظلام ويستفيدون من علاقاتهم المشبوهة مع الموردين والعملاء والتي من خلالها يحـصلون علـى آلاف الجنيهات شهريا وهي تمثـل مرتبات فوق مرتب شـهري في استمارة الرواتب وبلغ ما يحصل عليه مسئول أحد الأقسام وقوة

سيطرته وعلاقاته مع الموردين إلى أنه كان يبلغ دخله في الشهر من هذه العلاقات ما يزيد على خمسة عشر ألف جنيها.. وهذا واحد من عشر مسئولين يسيطرون على كل أمور الشركة .. وفي السوق كما يحدث للجميع أسرار.. أسرار لكل مهنة ولكل تجارة ولكل صنف من التجارة.. ولقد كان هذا الخواجة يكسب يوميا أموالا طائلة سائلة وآجلة حيث كانت مبيعاته اليومية في كافة محلاته وسناتره ومصانعه تزيد على ثلاثة مليون جنيه بمعدل ربح يومي يزيد على مائة وخمسين ألف جنيه، وكان لصاحب العمل هذا أسرار كثيرة جدا.. فهو متهرب من الضرائب لأن لديه محاسب قانوني حوت ولم يكن له أية دفاتر منتظمة.. فإذا حضر إليه مأمور ضرائب أو أي جهة تفتيشية كانت إدارية أو ضريبية أو.. الخ.. كان لديه موظف مسلكاتي يقابل هذا الذي جاء إلى الشركة لهذا الغرض التفتيش أو الإجرائي ويعميه بظرف محترم وكل واحد حسب وزنه.. وكانوا جميعا يتم مقابلتهم بشكل جميل ولائق ومحترم وبصفة دورية حسب أهمية كل واحد منهم.. ولم تكن هذه الإكراميات لهؤلاء المهمين تذهب هدرا.. كان هؤلاء المسئولين جميعا يقدمون التقارير والمعلومات بأن كل شيء على ما يرام وأن صاحب العمل صادق في كل تقاريره.. كل هذا كان يحصل عليه من كافة الجهات التفتيشية في مقابل إكراميات

وتفتيح مخ لا يزيد في الشهر عن عشرين ألف جنيه.. أي ربع مليون جنيه في مقابل حصوله على صافي ربح سنوي لا يقل عن ثلاثين مليون جنيه ليس للدولة والمجتمع حق فيها.. وكان يغطي نفسه من جميع الجهات.. فهو على علاقات طيبة جدا بكثير من ضباط الشرطة الذين يحمونه ويغطونه في حالة وجود أي مشكلة معه ومع كل المجتمع.. فهو الرجل الجميل صاحب الأظرف والإكراميات الأكثر جمالا في الأعياد والمواسم وأوقات دخول المدارس ورأس السنة ناهيك عن أحلى عزومات الكباب والسمك والجمبري في أشهر مطاعم المدينة مع هذه الرؤوس والشخصيات.. وهو في النهاية رجل بار وخيِّر وهو صاحب البر كله والفضل كله وهو رجل ليس له مثيل وهو على الراس دائما من الجميع وكله بالفلوس والعلاقات الجميلة، وليس جديدا أن كل أصحاب الأعمال في بلادي على هذه الشاكلة وكل واحد له درجة.. ولكن هذا الذي قابلته.. بل هو واحد من الذين عملت معهم كمدير مالي وكثيرين غيره هم العجب العجاب.. تُحف ولصوص وعصبجية هؤلاء الذين أطلق عليهم رجال أعمال في بلادي.. إنها رأسمالية العيال المارقة أو رأسمالية السفلة والانتهازيين الذين يتاجرون في أي شيء ويتعاملون مع المجتمع كله بالتعالى والجبروت ومص الدماء وتعالوا معي جميعا لنتفرج ونرى في أوربا الرأسمالية الحقيقية

والمحترمة التي تراعي حقوق الجميع.. إن ما يجري في بلادنا هو الفوضى هو الفساد الذي لا مثيل له في أي من بلاد العـــالم.. ولكن ما الذي فعله صاحب العمل هذا فيما بعد..

.. في يوم قرّر المحاسب القانوني الضليع أن يسيطر على هذا صاحب العمل..وصاحب هذه الــضيعة .. المحاســب علــى الكدواني كان يعمل مأمور ضـــرائب في مأموريـــات المدينـــة المختلفة، ظل يعمل في الضرائب لمدة أربعة وعـــشرين عامـــا.. عرف فيها من الخبايا والأسرار ما لا يعرفـــه الكـــثيرين مـــن مأموري الضرائب أنفسهم.. استقال بعد هذه الخدمة الطويلـــة وفتح مكتبا للعمل كمحاسب قانوني.. مكتبه في حـــي م. ج.. قام بتأثيثه أثاثا فخما وبدأ يعمل في عام ١٩٨٥.. طلب مـــن الخواجة في يوم أن يقابله لأمر هام.. كان لكل شيء ترتيـــب.. وعلى حسابه عزم الخواجة في مطعم صبحي للكباب في جـــسر السويس وبعد الغداء الشهي ذهبا ليتناولا مشروبا فخما أيـــضا في جروبي بشارع الأهرام وبدا على كـــل منـــهما الإنبـــساط والانشكاح وبدأ على الكدواني حديثه الجاد قائلا :

- إنت عارف يا خواجه إنت غال أد إيه.. وأنا باخـــدمك برقبتي..

- طبعا طبعا ربنا يخليك..

- إنت عندك مالية كبيرة أوي علشان إيه..

- التقارير والميزانية الحقيقية عايز أعرفها.. وبعدين أنا حاسس إن فيه ناس بتسرقني..

- صبرى دا مرتبه كام..

- خمسة

- ياه.. والمحاسبين في الإدارة والفروع ..

- خمستاشر في الإدارة وزيهم في الفروع ..

- يا نهار إسود.. وبياخدو كام كلهم كده..

- كل المحاسبين بمديرهم في حدود ثلاثين ألف ..

- وكل ده علشان الميزانية والتقارير..

- عايزين نعمل زي الناس.. أنا بعرف كل حاجة عن شركتي في خمس ورقات كل يوم..

- معلهش إنت ما حسبتهاش كويس..

- آدي أكثر من تلتميت ألف في السنة.. الناس اللي بيسرقوك جوّه مش ها ياخدو كده أبدا.. بالكتير يسرقوك في ميت ألف.. حتى لو سرقوك في ميتين في السنة.. مش مهم برضه.. لكن المهم والخطير.. وسكت ..

- إيه هوّ الخطير؟

- أسرارك.. صبرى دا لو مشي من عندك في أي وقت.. أو أي محاسب ماشي.. كـــل دول عـــارفين مـــصايبك كلـــها وأسرارك..

- يا نهار إسود آي صحيح..

- هوّ دا الخطير.. أنا عايز الخير ليك.. أنا خايف عليـــك.. عايزين نلحق الخطر بسرعة.. آدي كل كلامي.. وانت أغلـــى عندي من كل حاجة.. وأنت عارف أنا بخاف عليك إد إيه..

- والعمل.. كلامك والله صحيح..

- الحل موجود وبسيط وغير مكلـّـف ..

- الحقني بيه.. قول..

- محاسب واحد من عندي على الخزنة الرئيسية بس..

- بكام ..

- بتلاتة ..

- والتقارير ..

- تقارير إيه إنت ها تودّي نفـــسك في داهيـــة علـــشان التقارير.. إنت ليك فلوس ..

- إزاي..

- كل الفروع والمحلات تجيب إيرادها الصبح تاني يوم..

- وبعدين ..

- المحاسب أبو تلاته ده.. قاعد على الخزنـــة الرئيـــسية.. هايقولك بالتليفون الإيراد من كل فرع إيه والإجمالى كام..

- وبعدين ..

- ها يقو للـــّي زيا ما بيقولك..

- وبعدين ..

- أنا أقول لك حط في البنك كام.. وودّي البيت كام..

- يعني أحط فلوس في البيت؟

- أيوه ضروري.. إنت عارف إن اللـــّي ممكن يحـــصل في البلد.. الفلوس في البيت أأمن من البنك..

- خلاص إنت شايف كده أحسن..

- أحسن وأوفر لك.. خلـــّص يا خواجه بعد العيد علـــى طول..

- طيب وإنت عايز كام ..

- ما فيش مشكلة بيني وبينك..

- بس قول برضه..

- أتعابي خمسين بس.. ها تزيد عشرين في السنة وكل شهر إبعت لي عشرة علشان المحاسبين اللـــّي في مكتبي ها يـــشتغلوا شغلك طول السنة..

- يبقى كده أرخص كتير..

- وسرك يبقه في بير.. من غير كلمة ووجع قلب ومحاسبين ومدير مالي .. ما حدّش بيعمل كده دلوقتي وكتير من الناس خدها كده من الأخر..

- بس أنا خايف الفلوس ها تبقه كثيرة في البيت..

- إعمل خزنة تحت الأرض..

- يعني أخلّص المواضيع وعلى مسئوليتك..

- من بكرة خلّص وأنا رقبتي فداك ..

- طيب لّما كل الناس دى تمشي ويشتكوني في مكتب العمل..

- أنا عارف واحد في المكتب.. هاقوله يخلص معاهم إزاي.. ودي مسئوليتي..

- طيب والسكرتيرة التنفيذية " ماريانا"

- هيّ بتاعتك ولا بتاعة صبرى ..

- دى بتاعتي ..

- خلاص خلّيها زي ما هيّ وصلة بينك وبين المحاسبين بتوعك.. بس خلّيها بعيد عن الحسابات..

- هيّ سكرتيرة وبس..

* * * * *

ومرّت أيام شهر رمضان ولمّا اقترب عيد الفطر كانت محلات الخواجة تسهر حتى الفجر من كل ليلة.. لتحقيق حجم مبيعات كبير كالعادة في كل سنة.. ولمّا جاءت ليلة العيد تم توزيع المكافأة كعادة كل عيد، ولم يحصل أي محاسب في الإدارة أو الفروع على أي مكافأة على أساس أن المالية بكل أعضائها سوف تحصل على مكافأتها بعد العيد وأخبرت ماريانا صبرى بذلك رغم أنها كانت تتوجّس في الأمر.. ولماذا المحاسبين بالذات؟ ولم يكن صبرى يستطيع قضاء صباح يوم العيد إلا في بيت أبنائه، وجلس وسطهم ولاطفهم وعيّد عليهم إلا أن زوجته لم تستطع أن تكتم حزنها الشديد على محمود فراحت تولول على ضناها.. يرضي مين ابني يعيّد في السجن وعلشان إيه وعمل إيه يا حسرتي عليكم من دون البلاد.. عملتوا رجالة على العيال.. أطفال البلاد أعداء.. خيبة ما بعدها خيبة.. بلد مالهاش عدو يبقة مالهاش هدف تبقة بلد ضعيفة.. لكن كان لازم من عدو عملوا الأطفال والأبرياء عدو.. أد إيه الضعف وأد إيه الوهن يا بلد الندامة.. تقول هذا وهي تضرب رأسها بكفي يديها بعد أن تضرب بهما ساقيها وهي جالسة على سريرها وأمها تتبعها في الندب والتعديد والبكاء.. وكان لحزنهما الشديد في صباح يوم العيد أثر بالغ على محمد الصغير وبسنت وراحا يبكيان بشدة على شقيقهما محمود.. تذكرت عندما كنت صغيرا عندما رأيت أول دائرة ندب في قريتي.. مات عبد الحسيب الهلالي وكان وحيد أمه الأرملة على أربعة

بنات.. إنتصبت دائرة الندب أمام بيتهم تقودها أمه وإخوته البنات نصّبوا أنفسهم وسط الدائرة التي جمعت أكثر من عشرين امرأة يتلفحن جميعا بالسواد وقد وضعن الطين فوق رؤوسهن ووجوههن وهات يا صوات وندب.. وأمه المكلومة على ابنها تقول.. يا هوَّ يا مش هوَّ.. وتردد النساء خلفها.. لأ مش هوَّ.. تذكرت هذه المندبة التي لم أنسها في حياتي حيث اتخذت من شجرة ساترا لي بجوارهن..

وأنا جد منبهر ومندهش.. جد حزين ورحت أبكي بكاءً شديدا ولّما لمحني رجل من عائلتي يُدعي عبدالمحسن محروس أخذني من يدي حتى أوصلني إلى بيت أبي وأبلغ أمي بماحدث فسكرت الباب عليّ بالضبة والمفتاح "قائلة" لسه بدري عليك مالك ومال الأحزان..

.. لم تفارقني هذه المحزنة في حياتي فكلما وجدت نفسي في موقف شديد البأس رحت أبكي كما بكيت هذا اليوم في طفولتي.. بكيت بكاءً شديدا على ابني وسط هذه العائلة الصغيرة التي يقول لسان حالها.. العيد للعيال.. العيد للصغار.. أين يعيّد محمود.. ولماذا..

.. قبل الظهر بقليل هاتفت ماريانا صبري معاتبة.. بكفاية أوي كده عندك.. تعال عيّد معانا.. رقّ صبري لعتابها وقال.. يا روح قلبي حاضر.. حقك عندي،.. فقالت له في عشم :

- أرجوك تعال حالا .. أنا عايزاك جنبي في يوم زي ده..

أكل من الكعك والبسكوت مع أبنائه ثم انصرف ..

لّما دخل عليها ارتمت على صدره كعادتها فحملها إلى الفراش.. ولم يكن يكتسح الضباب الذي شعر به في بيته إلا أحضانها الدفيئة ولم يخترق جسده جسدها إلا بتلك اللهفة الجامحة التي قابلته بها ولم يعد لبكائه خلف الشجرة أثرا ونسى في فراشها الأحزان..

- وبعد مغرب يوم العيد دقّ جرس الهاتف طويلا فقامت إليه ماريانا :

- آلو ..

- كل سنة وانت طيبة أنا نبيل فتحي..

- أهلا وسهلا ..

- الساعي أحمد بيومي سوف يأتيني الآن لأرسل معه مكافأة العيد..

- علمت أن المحاسبين لم تصرف لهم أي مكافأة.

- ولماذا.. أليس هذا حق لكل العاملين.. سوف تصرفهم..

- علمي أنه سيتم صرف مكافآتهم بعد العيد..

- أكيد في الأمر شيء.. أليس هؤلاء ناس لهم حق أن يعيّدوا مثل باقي خلق الله..

- على العموم ليس هذا من شأني.. أنا واحد من ألف عامل وموظف في الشركة..

- لا ..إنني مش أي واحد في الشركة.. هوّ فيه واحد في أي شركة في مصر بيعمل مدير مشتريات يحصل على مكافأة عيد خمسون ألف جنيه.. يطلقون عليك أو يقولون أنك الساحر تضع يدك في تراب الخواجه يصير ذهبًا ..

- ولماذا هذا الحقد ياأستاذة.. إنني أعمل طيلة الليل والنهار وأسهر على تسيير مصلحة الشركة.. وهل هناك مدير مشتريات يعقد الصفقات التي أعقدها.. إن هذه المكافأة التي تحسدينني عليها هي مجرد رمز للتقدير ثم إنني أعمل مع الخواجة منذ خمسة عشر عاما و لم أتركه يوماواحدا..

- دعك من هذا الموضوع أين مكافأة الأستاذ صبرى..

- على حد علمي أنه سيأخذها بعد العيد..

- رجل كبير مثل هذا تعاملونه هذه المعاملة ..

- إسألي الخواجة.. من أي فريق أنت.. أنت مع الإدارة أم مع هذا الرجل..

- أنا مع الحق.. ولا تتجاوز معي.. إنه من خيرة المحاسبين في بلادك وهذه شهادة تاريخه العملي في أكثر من عشر شركات قبل أن يعمل معنا..

- هذا أيضا ليس من اختصاصي يا أستاذة ..

- اقسم بالله إنني أشعر بأن هناك شيئا يدّبر في الخفاء.. ماذا في الأمر..ألا يمكن أن تكون مخلصا مرة وتخبرني..

- في منتهى البساطة أنا مخلص لعملي فقط وللخواجة.. هكذا تعلمت .. ولماذا أكون مخلصا معك في أمر مثل هذا.. من الذي يعطيني مرتبي ومكافأة العيد.. قولي من.. يا أستاذه ماريانا أنا لا أتجاوز حدود عملي..

- إذا لا حق ولا أصول ..

- لا أعرف ما تقصدين بالحق والأصول.. أليس لكل صاحب مال أصوله.. ولماذا تفرضي عليّ أن أعرف أو أتبـع أصـولك أنت.. لا تنسى أنك موظفة مثلي في الشركة..

- لك الحق في أن تركع لسيّدك ..

- أركع لمن أريد..

- وهل يركع الإنسان لإنسان مثله..

- أنا لا أعرف أي معنى للركوع في حياتي إلا عندما عملـت في هذه الشركة وكنت من قبلها لا أجد قوت يومي وأنا مـن أسرة فقيرة.. جاءني المال في هذه الشركة وقـضيت حـاجتي وحاجات أسرتي وشبعت بالطعام ولأول مرّة في حياتي نعيش.. فلماذا لا أركع؟ وأين كان ركوعك أو ركوع غيرك عنـدما كان فقيرا..

- أنت للأسف عبد ذليل ولا تعرف من هو صاحب الفضل على الناس جميعا..

- اعرفي إنت.. أنا يكفيني هذه المعاني التي وصلت إليها ولا أريد أن أعرف شيئا مما تدعينه..

- هذا حال العبيد جميعا..

- لو كنت أملك منع إرسال مكافأتك لفعلت..ولكنها أوامر الخواجة لا أستطيع مخالفتها..

- افعل إذا كنت تستطيع.. أحمد الله أنكم تتحكمون في شركتكم فقط، وأن ألف من البشر يعملون تحت إدارتكم وليست كل نفوس البلاد تعمل معكم..

- على فكرة سوف أبلغ الخواجة بحديثك معي..

- ليتك تبلغه.. إذهب أنت وهو إلى الجحيم.. أبلغه أنني أقول هذا يا عبد.. وقفلت سماعة الهاتف في وجهه..

.. سمع صبرى كل كلمة قالتها وكان يهز رأسه سعيدا بكل حوارها مع خرتيت تلك الشركة.. وراح يفكر معها.. ترى ما الذي تخبئه الأحداث بعد العيد ..

* * * * *

.. ولما دخل المساء جاءهما الساعي أحمد بيومي يحمل عيدية ماريانا.. دق الباب وفتح له صبرى فرجع خطوتين للخلف وتلعثم قائلا :

- سلام عليكم يا بيه.. كل سنة وأنت طيب..

- أدخل ..

- يا بيه الشنطة دي بتاعت الست ماريانا مش هيّ هنـــا.. هو انت نقلت هنا يا بيه..

- يا أحمد هيّ كلمة واحدة إنت ما شفتنيش هنا خالص..

- طبعا يا بيه حاضر يا بيه أنا خدامك..

خارت قوى أحمد وارتبك فقال له صبري ..

- أقعد ..

تلفّـــت حواليه وقال :

- أقعد فين يا بيه..

- أقعد على أي كرسي..

- لأ يا بيه الكرسي يتوسخ.. أقعد على الأرض..

- أقعد ..

وطلعت ماريانا إليه ولمّا وجدته يفترش الأرض قالت :

- إقعد فوق قاعد تحت ليه ..

- دي راحتي يا ستي..

وقام وانحني وهو يقول كعادته دائما دي راحتي يا ستي.. الله يكرمك.. الله يخليك..

- أقعد يا أحمد.. وقوم حط الشنطة على الترابيزة..

- حاضر ..

ولاحقته ماريانا قبل أن يجلس :

- خدت عيدية كام ..

- متين جنيه..

- ها تعمل بيهم إيه..

- ها جيب هدوم للعيال

- كام عيّل ..

- أربعة ..

- إنت ساكن فين..

- ف شبرا الخيمة.. في حُق كان بتاع أبويا ..

- يعني إيه حُق .

- قوضة وصالة وحمام وكله راكب على بعضه..

- طيب أنت نفسك في إيه تجيبه في العيد..

- نفسي أجيب سرير..

- سرير للأولاد ..

- ما فيش سرير في البيت..

- إتجوزت إزاي ..

- على الأرض ..

- وصيف شتا بتنام على الأرض..

- ها أعمل إيه.. خدنا على كده..

- عندك تلاجة ..

- أمي عندها تلاجة.. لمّا ربنا بيرزقــني بحتــة لحمــة أروح أحطّــها عندها..

- أبوك عايش ..

- لأ ..

- أمك أرملة ..

- لأ.. متجوزة راجل من العنتبلي بتوع زمان..

- يعني إيه عنتبلي ..

- له شنب طويل ولابس لبدة طويلة وكل اللــــي لابـــسه صيف شتا صديري ولا مؤاخذه لباس طويل وواقف على ناصية الشارع ناصب ترابيزة عرقسوس وسوبيا..

- كويس حاله متحسّن..

- أوي عنده كل حاجة في بيته..

- عملت كحك لأولادك..

- أمي بتبعت لينا شوية..

- طيب بقضيك كام علشان العيد وأولادك وبيتك محتاج لإيه علشان يبقة بيت..

- نفسي أجيب سرير وطبلية خشب وثلاجة وبوتاجاز بفرن..

- وإيه كمان..

- هوّ فيه حد في الزمان بيدّي حاجة.. كل يوم صبّاحي مراتي بتجري ورايا بالشبشب علشان العيشة.. في يوم مراتي قالت لي لو كنت حلوة كنت شفت حالي..

- يعني إيه..

- ما هيّ نسوان الحارة كل يوم الصبح بعد ما جوازهم يطلعو من البيت كل واحده بتنزل تشوف سكتها ومن الفجر ضرب الشباشب شغّال علشان اللقمة..

- يا نهار إسود يا أحمد بيروحوا فين.. ومين يلم النسوان دي..

- فيه كتير يا ستي.. بيترلوا الخلفاوي وأغا خان وطوسون والخلوص.. اللي تطبخ واللّي بتغسل واللّي بتمرّض.. لازم تعمل أي حاجة في البيت ولو صاحب البيت أو عيّل من عياله عايز أي حاجة الست من دولت بتعمل كل حاجة.. المهم عندما ترجع آخر النهار معاها عشرين جنيه أو تلاتين كل واحدة برزقها وتدخل شايلة الشنط لولادها.. بالله عليك النسوان دي هاتروح فين والبيوت الخربانة دي هاتاكل إزاي.. وهوّ فين الأعمال الشريفة للناس دي.. تبّصي يا ستي تلاقي

الناس كلها سايبة على بعضها.. دا غير البيوت اللي فتحت ..

- فتحت إزاي ..

- لموآخذة يا ستي.. دعارة.. وأرخص حاجة عندنا في شبرا الخيمة..

- بكام ..

- بعشرة وأقصى حاجة عشرين.. تبّصي تلاقي الراجل قاعد في الصالة.. أبوها.. أخوها.. جوزها.. يقبض. ويخش الواحد يخلّص واللي بعده.. شغل علي..

- ودا كله من إيه يا أحمد.. رأيك إنت إيه..

- من الفقر..

- الناس دي كلها اللي في شبرا الخيمة أحفاد الناس الغلابة في البلاد اللّي جم بعد اتنين وخمسين يشتغلوا في المصانع اللّي عملها عبدالناصر.. عاشوا شوية كويس وبعد كده لّما المصانع خربت واتباعت الخلفة دي كلها ضاعت وهمّ أصلا ضايعين من الأول وهمّ في بلادهم.. الحاجة والفقر وضرب الشباشب خلّت الناس دي تعمل أي حاجة علشان تعيش.. هو فيه أكفر من الجوع.. الجوع يا ستي يخلّي الواحد يعمل أي حاجة علشان يعيش..

- وعلاج الناس دي إيه ..

- ولا أي علاج ينفع..دا كان من الأول.. العمل الشريف من الأول..

- كويس إن إنت لسه ماسك نفسك..

- أنا مراتي وحشه أوي..

- ولو كانت حلوة شوية

- ما كنتش أقدر أعمل ليها حاجة وكنت هاسيبها زي كـــل الناس.. النسوان يا ستي بقت قادرة وباتعة من الحاجة.. مـــن الغلاء.. الناس عايزة تسد الجوع ومفيش غير كده عندهم..

- أبوك جه مصر سنة كام..

- أبويا جه في الرفـــّاص..

- يعني إيه؟

- أبويا كان بيشتغل في البلد حمّار.. عنده حمـــارة تعبانـــة بيأجرها تشيل سباخ عند الفلاحين وهوّ معاها.. كان كل يوم دخله خمستاشر قرش هوّ وحمارته.. وكان ســـاكن في أحقـــر حارة في البلد.. حارة حسين حنضل.. وكانت كلـــها نـــاس غلابة.. باع الدار والحمارة وجه وجاب أمي معاه في الرفاص.. وصل مصر بقرش صاغ وهوّ عبارة عن مركب كـــبيرة مـــن دورين يوصلـــك مصر في يومين أوتلاتة وده كانت وســـيلة مواصلات رئيسية في فروع النهر من بحرى لقبلي..

- أبوك جه عمل إيه..

- اشتغل عامل نسيج وشاف الشقة دي دفع فيها عـــشرة جنيه بإيجار اتنين جنيه.. ولما كبرت اشتغلت معاه.. مات أبويا وماتت المصانع معاه ودي حكاية كل واحد في شبرا الخمية..

- طيّب كفاية البلاوي اللـــّي إنتا حكتها عرفنا حاجات ما كناش نعرفها.. خد يا أحمد..

وراحت تعد حتى قالت ألفين.. وقالت..

- ألفين كويس ..

- ألفين إيه يا ستي..

- ألفين كفاية تحل مشاكلك..

- يا نهار إسود.. الفين يا ستي ليه.. هوّ أنا عملت حاجـــة ياستي.. أنا عملت إيه.. دانا ما عرفش أشيلهم أعمل بيهم إيه.. ما عرفشي أصرفهم..

- بس خلاص بلاش كلام.. ها تدّيله كـــام يـــا أســـتاذ صبري..

صبرى وهو يبتسم إبتسامة عريضة :

- روح منّك لله يا أحمد كل دا عارفه وساكت..

- أول مرّة أقول الكلام ده.. لأني حبيت أقول حاجة غريبة للست..

- أنا عارف كل ده.. هيّ شبرا الخيمة بس الكلام دا منتشر في كل الحتت بس بدرجات..

وسكت هنية وطفق :

- أديله متين..

- لأ يا صبري..

- كويس كده أوي..

- آه يا منوفي.. خلاص خمسمية كويس.. ووقف أحمد وهو يرتجف ويقترب من سيدته..

فقالت :

- ألفين وخمسمية يا أحمد.. روح اتكل على الله.. يا رب تحل كل مشاكلك وتجيب السرير..

* * * * *

.. كانت ماريانا تستغرق في الأحداث التي حولها.. وكانت من قبل عندما يحدث لها هذا تتوه عن الدنيا وتلوذ بصدر أمها وتبدأ تحكي عما يجري حولها من أحوال الشركة والظلم في تصرفات الإدارة تجاه العاملين.. وفي آخر تلك الحكايات المحزنة على مجتمع يحارب بعضه ويتآكل من يوم لآخر والمشكلة أنه لا توجد هناك جهة تستطيع أن توفرّ العدل للناس.. كل الجهات الإدارية الحكومية ترتشي فتتخلى عن دورها بكل سهولة حتى

الجهات الدينية التي من الممكن لرجل صالح فيها يتدخل لعمل الحق حتى مثل هذا الرجل وصلته الرشوة من أكلة أو هدية أو ظرف.. فيذهب مثل هذا الرجل ويتخلّى عن دوره الأخلاقي في المجتمع ويطلق كما يطلقون عبارة وأنا مالي.. دع الخلق للخالق.. وهكذا تخلّي الجميع عن دوره الرقابي والأخلاقي فتركوا الحبل على الغارب لأصحاب أعمال لا خلاق لهم يظلمون ويتهربون ويفسقون وتحالف جميع الظالمين على هتك المجتمع وتخريب حياة الناس.. وأصبح الناس في ظل هذا الجو المفتوح من الأنانية والانحطاط واللصوصية في مهب الريح من تشريد وتجويع وانحراف فزادت الجرائم وامتلأت المقاهي والملاهي والشوارع بالناس الذين يهيمون على وجوههم فلا يعرفون إلى أين يذهبون ليحصلوا على قوت يومهم.. وفي نهاية كل أمر وحكاية تقول ماريانا لأمها :

- ما هو الحل يا أمي إن الناس يزيدون من ظلمهم والمظلومين يساقون كل يوم إلى الجحيم..

فتتنهد الأم وكأنها هي وابنتها يحملون هم الدنيا فوق صدورهم :

- وأين الرجال يا ابنتي.. هل تقوقع الرجال لتتقدم امرأة.. هل تعرفين يا ابنتي إن المواقع التي يجب أن يكون فيها رجال

أصحاب همة وشجاعة لم يعد فيها رجل واحد.. والله يا ابنتي أخبرني رجل عرفته بالصدفة وأنا في الصيدلية وهذا الرجل يعمل في جهاز مهم بالدولة.. إن البلد يا سيدتي لم يعد فيها رجال.. ومن يومها وأنا أقول على البلد السلام وبدأت أفكرّ في تفكير آخر لأنني كنت أعتقد أن البلد مليئة بالرجال.. إن هذا الرجل أنهى كل تصوري وأملي.. كنت أنتظر رجلا والآن ماذا أنتظر.. هل أنتظر امرأة.. إنني وصلت أنني لا أنتظر أحدًا وأنه لا فائدة في كل هؤلاء..

- وهل نذهب إلى المجهول يا أمي..

- لا أعرف.. إن كل ما نملكه الآن حتى نزيح همومنا أن نلجأ إلى الله تعالى.. نقوم ونصلّي ياابنتي..

أدت ماريانا صلاتها بمفردها وكذلك فعلت الأم وبعد انتهائهما من الصلاة نامت كل منهما في أرضية الغرفة وكأن شيئا من الراحة أخذ نفس كل منهما إلى التأمل بعض الوقت وترك الأمور للمولى، وقبل أن تغفل أي منهما في النوم قالت ماريانا لأمها :

- هل كان جدي الديب عطية متدينا..

فقالت الأم في ثبات :

- كان في أوقات كثيرة من الليل يدخل في غرفته ويقفل بابها عليه..

- لم أفهم شيئا..

- في مرّة سمعته يتكلّم وكأنه يحادث أحدا.. فطرقت عليه الباب متسائلة.. هل معك أحد يا أبي؟ فقال.. اذهبي ونامي.. اتركيني وشأني.. ذهبت ولم أطرق عليه الباب بعد ذلك احتراما لأبي..

- لماذا كنتم تقطنون في هذه الحارة الضيقة رغم أن بيت جدي كان كبيرا وكان له أن يبنيه في مكان واسع..

- إن جدّك كان يريد أن يعيش مع قومه..

- وهل كان في الحارة يتزاور مع قومه..

- كان فقط يصلح بينهم إذا قامت منازعة لكنه لم يكن يخالطهم.. كان أبي قلبه موزّع بين كثير من الناس، فهو في الحارة مع قومه وفي مريان مع أهلها.. لا يترك جنازة لمسلم إلا وتقدّم صفوفها ولم يترك جنازة لمسيحي إلا وتقدّم صفوفها.. لقد كان أبي في أفواه كل أهل البلدة مثلا وذلك عندما يتكلمون عن الحب والخير والحق.. إنه يتقدّم الناس جميعا في كل ما هو نافع للناس جميعا.. كان هناك شاب أهبل بريالة وهو فقير ليس له أهل فلما مات لم يجدوا من يمشي في جنازته.. حمله أربعة من الفقراء إلى القبر ومشى في جنازته فقط رجلان هما الحاج حداد والديب عطية وخمسة أطفال صغار.. وكان أبي

وعمي حداد طيلة سيرهما في الجنازة يبكيان.. ولما عاد عمي حداد إلى بيته أصيب بأمراض كثيرة لحزنه على أخلاق الناس.. ومات بعد أيام قليلة من وفاة عبده صديقه حسرة على أحوال العباد..

- من عبده صديقه..

- هو ذلك الأهبل الذي تخلّي أهل القرية عن دفنه لأنه فقير..

- وعاش جدي.. ولماذا لم يمت هو الآخر..

- مات بعد عمي حداد بشهور..

- وماذا فعلت بعد ذلك يا أمي..

- رحلنا أنا وأبي إلى القاهرة بعد أن بعنا كل ما نملك.. لم يكن أبي يستطيع أن يعيش في القرية بدون صديقه.. ومات أبي في القاهرة.. لكني قمت بدفنه في قريتنا وكان معي أهل مريان فقط.. أما قومه الذين كانوا يقطنون في تلك الحارة فلم يحضر منهم أحد.. لّما مات قالوا عنه كلاما كثيرا.. ولقد تبين أنهم كانوا يتكلمون عنه فيما بينهم وكانوا يحقدون عليه ولكن في الخفاء.. وظهر كل ذلك علنا بعد موته و لم أأسف علي ذلك لأني كنت أعرف لماذا يحقدون على أبي وكان يكفيني أن أهل مريان جميعا دفنوا أبي معي وبكوا عليه..

.. ولمّا كانت ماريانا قد علمت من أمها كل شـــيء عـــن جدها وبلدها وصديقه كانت تلوذ نفسيا في أحضان صـــبري وتطلب منه أن يحميها فيندهش كيف تطلب الحمايـــة وهـــي تعيش عيشة الأغنياء في بلد يغطّيه الفقر.. فتقول له لست أنـــا التي تشعر بالخوف على نفسها ولكني أشعر بالخوف على الناس وكادت تصرخ مرّة وهي في أحضانه وقالت وهي تبتعد عنـــه قليلا :

- لقد سقطت مقولة أن الرزق هو رغيف يأخذ منه كـــل إنسان في البلاد لقمة..

- ومازالت هذه المقولة يداولها الناس لكن بلا معنى وبـــلا حقيقة.

- هل تعرف أنه من العجب أن المصريين يذيقون المصريين الألم والحرمان من الحياة.. فهل تخلـّي هؤلاء عن أهليهم.. ألا يشعرون بالعار..

- لقد خرج هؤلاء أصحاب الأعمـــال مـــن جحـــورهم كالمسعورين.. إن الرأسمالية التي انتشرت في البلاد الآن.. ليست رأسمالية إن الرأسمالية الحقيقية ليست هنا اذهبي إلى بلاد أخـــرى فيها الرأسمالية تسيطر عليها أو يملكها قوم في الأصل ذاقوا كثيرا من المدنية والتحضر في بلادهم عقودا من الأزمنـــة.. تعلمـــوا وفهموا ووصلوا إلى أن الأخلاق الحقيقية لمن يملك المال لا بـــد أن يكون له صفتان..الأولى الابتكار والإبداع في الإنتاج لزيادة

الناتج القومي.. وثانيا هو إدراك معـــني كـــبيرا للعـــدل.. إن إنسانيتهم وصلت إلى درجة عالية من الرقي.. ومـــن أهـــداف حياتهم الرقي بالإنسان وأول إنسان يرتقوا به الكم الكبير مـــن العمالة التي تنتج في شركاتهم ومصانعهم.. إن هؤلاء الناس يـــا سيدتي يركبون السيارة لأنهم يصنعونها ويستخدمون الأجهـــزة الالكترونية لأنهم اخترعوها.. وكان أسهل عليه بعد ذلـــك أن يعرفوا العدل من أوسع أبوبه وعليه كانت الطبقة التي لا تملـــك وتعمل فقط تشعر وتعيش بكل أسباب الحياة الكريمة لأنهـــم في أيدي أمينة ويعملون لدى أصحاب أعمال لم يكونوا في الأصل لصوص أو جرابيع ولكنهم كانوا في الأساس أبنـــاء حـــضارة قدّمت وتقدّم الكثير لمعني كل من له قيمة.. إن المال لدى هؤلاء لا قيمة له بدون عمل.. وعليه كان تقديرهم للقوى العاملة في بلادهم فزاد إنتاج مصانعهم وأعمالهم وانتعشت حياة كل مـــن يملك حرفة أو مهنة في مجتمع الرأسمالية العادل.. إن عنـــدنا يـــا سيدتي فوضى اقتصادية يحركهـــا مجموعـــة مـــن اللـــصوص والمجرمين.. إنها رأسمالية المهزلة..

.. يبدو أن ماريانا قد نامت على صدره وهـــو يحتـــضنها بذراعه فقال وهو يعدلها.. تركتيني أكلّـــم نفـــسي وامتـــد في جوارها..

* * * * *

.. ومرت أيام العيد كان آخر أحداثها أن أصيبت ماريانا بنزلة برد شديدة أقعدتها في فراشها.. وفي صباح يوم العودة إلى العمل ذهب صبري إلى عمله مبكرا حتى أنه وصل قبل العاشرة.. ولمّا كان يقترب من المبنى وجد مجموعة كبيرة من العاملين يتجمعون حول مجموعة صغيرة منهم كأنهم يستمعون منهم أخبارا لحدث وقع.. فراح يرقبهم وتوقف في الناحية الأخرى من الشارع المقابلة للمبنى.. إنه لم ير أن باب السنتر وأن كل العاملين قد دخلوا المبنى فلما دقّق النظر ثانية في الاتجاه المقابل وجد أن الباب مفتوحا وأن المجموعة التي تلتف حول نفسها هي مجموعة المالية.. هذا خالد ووليم وناجي ويوسف وجريس ومحمد وأحمد.. و.. و.. لم يدخل أحد.. ليه.. فيه إيه.. لحظات ولمحه المحاسبون وسرعان ما كانوا جميعا حوله في الناحية الأخرى وانهالت ما سمعوه من مدير المبنى :

- ما فيش حد من المالية يطلع النهاردة..

- ليـه

- الخواجة قال كده..

- ليه فيه إيه..

- الخواجة لغى المالية ..

- يعني نقلنا إلى مبنى تاني..

- لأ ..

- أمّال إيه..

- هوّ كده وبس.. لما ييجي الأستاذ صبري هايعرف كل حاجة..

- إحنا مش عارفين يا بيه إيه الحكاية..

وحدّق صبري في وجه كل منهم وسمع منهم فرادى وجماعات حوارا واحدا.. فقال وهو يضع كف يديه في جيب معطفه :

- طيب خليكو هنا.. أنا هادخل أشوف إيه..

ولما كان صبرى يدخل من الباب الكبير ويتجه إلى حيث يجلس المدير في نهاية الطرقة التي تتوسط قسما للمبيعات.. قام إليه المدير لمّا لمحه يدخل وقابله في منتصف المدخل ومدّ إليه يده قائلا :

- صباح الخير يا أستاذ صبرى ..

- صباح الخير..

- فيه إيه.. المحاسبين مادخلوش ليه..

- يا بيه ما على الرسول إلا البلاغ ..

- إيه البلاغ..

- الخواجه لغى المالية وقال لي مـا فـيش حـد يطلـع فوق..وقال إدّي للأستاذ صبري الشنطة دي ومدّ حقيبة سوداء في يده إلى صبري قائلا :

- الخواجة بيشكرك على الوقت اللـّي قـضيته معانـا.. وبيقول لحضرتك متشكرين والشنطة دي فيهـا مكافأتـك.. إتفضّل ..

وأخذها منه صبري بيد مرتجفة وقال :

- طيب أحش أكلمه من تحت من مكتبك..

- قال لي متخليش حد يكلمني..

- خلاص.. لي أوراق في الأرشيف فوق.. أوراق تعيـيني عايزها.. وعلى فكرة حق المحاسبين كلهم ياخدوا أوراقهم..

- طيب.. ممكن حضرتك تنتظرني لحظات..

عاد إلى مكتبه مسرع الخطوات فهاتف الخواجة بأن الأستاذ صبري والمحاسبين يريدون أوراقهم فأخبره الخواجه بالموافقة ..

وعاد مدير المبنى ليبلغني بذلك وقال :

- طيب معلهش يا أستاذ صبرى ممكـن سـاعة وترجـع هايكون كل الأوراق جبتها من فوق وتكون جاهزة.. ممكن..

وانفلت صبري درديرِ إلى الشارع حيث أخـذ المحاسـبين وذهبوا إلى قهوة عماد على ناصية شـارع متحـف المطريـة

وجلسوا جميعا حوله كأنه سوف يلقي عليهم محاضرة.. ولكنه سكت.. وراح ينظر في وجه كل واحد منهم ويتأمله في حزن وغضب :

– طيب الناس دي ها تروح فين.. ها تروح فين دلوقتي.. تروح مكتب عمل الزيتون الصح نبلّغ عن الموضوع المؤسف ده.. دا فصل تعسفي علني.. حتى لّما نعمل محاضر وتتعمل قضية لكل واحد منهم دول إمتي تحكم.. مين دلوقتي يشغّل الناس دي.. ويلم الناس دي اللي ملهمش حد ولا يملكون متر واحد في البلد.. طيب كل واحد يقول لأهله إيه أنا انفصلت من الشغل.. يا ولداه على الدنيا البيوت أصلا مش ناقصة نكد ولا غم.. طيب أناهاروح لماريانا الغنية أو حتى بيت الأولاد.. طيب أنا معايا فلوس وحالي كله تمام بس دول يروحوا فين دا يادوبك أهاليهم فرحانة بالبكالوريوس اللي خدوه.. ويادوبك شغالين بقالهم سنة يعني الفرحة عمرها ما تكمل في البلد دي.. وبعدين.. دار ذلك في رأسي كمن كنت أكلّم نفسي ولم أكن أرى ما يعتري كل منهم من حزن وتوتر.. وكان الجميع يقول.. نروح فين يا أستاذ صبري.. دا احنا ما صدّقنا اشتغلنا..

دلوقتي نروح مكتب العمل نشتكي وبعدين ربنا كريم.. روح يا خالد هات الأوراق بتاعة الناس من مدير السنتر.. وافقوا جميعا.. وبعد حوالي الساعة ذهبنا في صمت وكأننا في زفة حزينة إلى مكتب العمل في شارع سليم الأول.. وفي لحظة

ما كنا ندخل باب المكتب كنا خمسة فلقد انسحب ثمانيـــة في يأس أو زهق من المشاكل وكان بينهم المحاسب محمد إبـــراهيم مدير عام في بنك مصر على المعاش والمحاسب سيد حبيب مدير عام مالي بالمعاش، قابلنا الجميع في المكتب بترحـــاب وسمعـــوا قصتنا مع صاحب العمل وتحمّس لنا جميع السيدات في المكتب ما عدا موظفان يعملان في المكتب ولكن لـــصالح أصـــحاب الشركات.. وفي وقت ما كنت أقدّم أوراقي للموظفة لتقـــوم بعمل محضر الفحص كان الموظفان قد سحبا أربعـــة محاســـبين خارج المكتب للتفاهم بأن يأخذ كل منهم خمـــسمائة جنيـــه وينصرف إلى حال سبيله مقابل أن يكتب طلب استقالة له بخط يده و لم تمض نصف ساعة حتى أخبرتني موظفة دخلت علينا من مكتب آخر بأنه لم يبق غيرنا فلقد ذهب الباقي من المحاسبين مع الموظف الذي يعمل في المكتب إلى شـــركة الخواجـــه لكتابـــة الاستقالة لظروف خاصة والتوقيع عليها مقابل المبلغ الذي طرح عليهم.. واستكملت أنا والمحاسب خالد إجراءات عمل محـــضر الفصل التعسفي وأخذ كل منا رقم المحضر لإقامة الدعوى..

ومشيت سيرا على الأقدام من شارع سليم إلى شارعي الذي تقطن فيه ماريانا عالمي.. إنها العالم الذي ينقذني دائما مما أنـــا فيه..وأنا في الطريق إليها رحت كالعادة أحدث نفسي محزونـــا على ما جري.. عندما تموت الشعوب ينسحب الناس إلى بيوتهم في نذالة أو في خوف أو في يأس تاركين حقـــوقهم وحقـــوق الفصل التعسفي هي حقوق أدبية قبل أن تكون حقوقا مادية..

الشعوب المتحضرة لا تخاف لا تترك أية حقوق لها وعلى ذلك فهي تعيش مرفوعة الرأس، إن الناس في بلادنا يتدينون تـــدينا شكليا لأنهم يتخلون عن حقوقهم وينسحبون إلى حيـــاتهم في خوف متخازلين وعليه فإن أي انتـــهازي أو مجـــرم يركبـــهم كالحمار ويسوقهم إلى زريبة البهائم.. ومن هنا ولدت العبودية الجديدة في بلادنا.. الناس توّطي وتخاف وتتنازل عن حقوقهـــا فيركب اللصوص وعديمي الأصل والـــذين كـــانوا جرابيـــع وجوعى يركبون الحمير ويسوقوهم إلى حظائرهم..

.. وصلت إلى بيت ماريانا وفتحت السيدة الكـــبيرة بـــاب البيت واستقبلتني وكأنها تستغيث :

- إنت فين يا بني.. ماريانا عمّاله تتأوه ومش دارية بحاجة.. وعمالة تقول فين صبري.. فين صبرى يا ماما.. خـــش يـــابني شوفها وخليك معاها علشان تخف.. وراحت السيدة تبكي..

.. كان عليّ أن أضمها إلى صدري وأن أقبلها بلا انقطاع.. لاذت بي وأمسكت بكتفي حتى لا أكون بعيدا عنها في حـــال مرضها.. ولم أتركها ونمت في جوارها حتى أيقظتنـــا الـــسيدة الكبيرة للغذاء.. وبعد الطعام أخبرتها بكل ما حدث صباح اليوم وتعبت نفسيتها .

* * * * *

ولمّا دخل المساء كانت ماريانا قد نالت منه جرعة حنــان أراحتها فغفيت قليلا وشعرت براحة نفسية لا تشعرها إلا وهو معها.. تأكدت أنها لو تعاطت كل الدواء في دنيا العلاج لــن تشفي إلا في جواره.. كانت كعود القصب تنثني من تحته ومن فوقه وكلما فعلت يرشح منها العسل.. وفي منتصف الليل شعر أن في عينيها فراغا وتيها رغم سعادتها في جواره فقال لها :

- ماذا بك إنني أشعر بأنك حزينة..

- كيف لا أحزن وأحداث هذا الحقير معكم صباح اليوم.. إنني مهما كنت سعيدة فلن أنسى أبدا أين يذهب هذا الجمــع من المحاسبين وهم بلا مورد أليس هذا تقطيعا في شريحة هامــة من شرائح المجتمع.. إننا نعيش في سوق فوضوي كبير أغلب ما فيه فقراء يبيعون كل شيء من أجــل اللقمــة.. وينــضربون بالصرمة وهم في سبيل العيش..

- ليست المشكلة في الفقراء المحتــاجين الآن ولكــن في أن عددهم يزداد يوما بعد يوم بشكل رهيب..

- هل نسمي ذلك إنهيارا..

- لسنا في حاجة إلى تسمية ولكن من يوقف هذا الانهيار..

- والله إني لأتعجب من بلد يحتكره الجوع والفقر وفيه كل أنواع الاحتكار الاقتصادي..

- هو احتكار إنساني قبل أي شيء.. لقمة في فمك وضربة على رأسك هذا هو المتوفر الآن..

- في بلد مثل بلادنا كيف نترك رجال أنـذال يحتكـرون السلع الأساسية لحياة الناس.. إنهم بذلك يحولون مجتمعا بأكمله إلى عبيد.. كيف نتاجر على الفقراء.. كيف نمنـع اللقمـة أن تدخل أفواههم.. كيف يكون هناك أغنياء بهذه الفظاعة وهـم قلـّة وتترك الشعب كله يضيع تحت أقـدامهم مـن الجـوع والعرى والحرمان.. إلى أين نحن ذاهبون..

- إلى الهاوية إلى الجنون إلى حريق يلتهم كل شيء..

- آه يا دنيا إلى أين.. الآن نترك هذا الحوار إننا لن نـصل إلى شيء..

- لا .. إننا في هذا الحوار نصل نحن إلى شيء.

- عليّ أن أحبك دائما وأن أبحث عن عمل آخر في شركة أخرى محترمة..

- أعتقد أنه لا يوجد في القاهرة كلها شركة محترمة.. إنهم جميعا اتفقوا على إهدار حقوق العاملين وكذلك طردهم في أي وقت يحلو لهم..

- ولكن عليّ أن أبحث هذا هو الموجود..

- كفانا مهزلة إن ما نملكه أنا وأمي كاف لإقامة شـــركة وزيادة..

- هذه أموالكم أنتم..

- إنها أموالك أنت أيضا.. أنت للأســـف وحـــتى الآن لا تعرف أصل الحكاية..

- أعتقد أنه لا يوجد شيء لا أعرفه عنكما..

- يا صبري أنت بالنسبة لنا السلوى ولي أنا بالذات فأنـــت الفؤاد.. لقد كنا من قبل أنا وأمي نبحث عن رجل أمين يدخل علينا البيت ويخرج.. وكان الحصول على رجل حبيب وأمـــين وزوج في هذه المدينة صعب جدا.. إذا كانت هنـــاك صـــعوبة شديدة في الحصول على عمل آمن يكفل الحياة الكريمة فكيف يحصل الناس في هذه المدينة على رجـــل.. كمـــا يقولـــون إن الحصول على رجل من رابع المستحيلات ومن تجد الرجل الذي تبحث عنه تكون قد وجدت الحياة نفـــسها..انظـــر إن كـــل البيوت في مدينتي تبحث عن رجل ولا تجده.. حتى وصلت إلى أن هذا الرجل لن يأتِ أبدا..

- ولكني إنني أري عكس ماتقولين.. إن الرجال كثيرين في بلادي عدد لا يحصى..

- سوف أوافقك.. ولكن ما حال هؤلاء الرجال.. إذا كان الرجل قد فقد كرامته وهو يبحث عن العمل الـــشريف وإن لم

يفقدها اليوم سيفقدها غدا وذلك لدوران طاحونـــة الـــسفالة والانحطاط من رجال الأعمال هؤلاء.. فما الذي يقدّمه الرجل للمرأة في مدينتي وهي تطلب منه أول شيء الأمان والاستقرار.. إذا كان الرجال يعيشون في دوامة من أجل الحياة فكيف يقـــدّم للمرأة حياة وهو يفتقدها.. أليس العادي أن يقدّم الرجل الحياة للمرأة لتعطيه الحب وهذا هو الجاري في كل بلاد الـــدنيا وفي كل الأزمنة والعصور.. إذا كان الرجل في بـــلادي افتقـــد إلى الطبيعي ولن يستطيع تقديم شيء إلى المرأة حتى افتقد رجولتـــه وافتقدته المرأة وهو في هذا الحال لأن الرجال عـــادوا أشـــباحا ومن هنا حدث الجتمع.. إمرأة بلا رجل مجتمع بلا زرع وبـــلا حصاد.. وعليه كان عليه العوض.. إنني أسمع الجميع الآن لسان حالهم يقول "يعوّض ربنا".. تنهّد صبري ملأ صدره وقام مـــن فراشها قلقا وفتح النافذة فوجد سماءً ملبدة بالغيوم وكرات من الدخان الأسود يصعد من الأرض إلى السحاب.. كان يريد أن يرى السماء صافية وأن يرى النجم القطبي في بطـــن الـــسماء واضحا جليا كما كان يراه وهو طفل.. شعر بأنه لـــن يـــرى الأشياء والظواهر والدنيا حواليه كما كان يراها من قبل خاصة أيام طفولته.. قفل النافذة واستدار نحوها وقال وهو يحـــاول أن يمسك بتلابيب نفسه المرتعشة..

- لم أكن أتصور أن امرأة مثلك تعيش في هنـــاء ورغـــد وتملك من المال والأرض الكثير وتتكلم عن الناس المقهـــورين والحياة التعيسة التي يحياها الناس.. أليس لك أن تتكلمي عـــن

شيء آخر.. إنني أشعر بوجع شديد عندما أسمعك.. أكيد أن هناك غيرك في مدينتي يتكلمون عن المعاناة والظلم والانحدار الذي يعيشه الجميع وهم من نفس طبقتك..

- لا أعرف الأخريات مثلي كيف يتحدثن ولكن ألست أنا من أعماق الريف.. إن جذور الناس جميعا من ريف بحري أو من بلاد الصعيد وكل الجذور عاشت في التراب وبين المواشي ونامت على أفران زمان في الغرف الشتويةوأكلت الخبز والبتاو وفطير المحمة حين كان الجميع يقعد خلف المرأة التي تخبز ويأكلون كل ما تخرجه من الفرن ساخنا ويلتهمونه وهم سعداء.. وكان الطعام بسيطا خبز وبتاو وجبن قديم وزبد وعسل أسود وبصل ولا أكثر..

كان الطعام يسرى ويمري.. تعال الآن شوف الخراب أنتكة في كل شيء وفزلكة كنتاكي وما كدونالدز وتيك آواي وغالي جدا ولا يغني ولا يسمن من جوع والناس تأكل من طعام لا يشبع ولا يغني ومنين الفلوس.. ومنين جابوا الزلمكة دي.. مجتمع كله إنقلب ليته إنقلب إلى الأفضل..

مجتمع بلا جذور.. أين القمح الذي نزرعه والدقيق الذي نطحنه والقطن طويل التيلة والطمي والفلاح الذي كان يذهب إلى حقله بعد صلاة الفجر ليفلح في حقله.. حتى الفلاحين عادوا أنتكة وفزلكة.. المدينة.. أي مدينة وأي خيبة كان الجميع في البلاد قد انضحك عليهم أو يعيشون في غيبوبة.. ويا ريت

كل حاجة بناكلها أو بنستعملها بتزرعها أو بنصنعها.. أصبحنا يا سيدي مجتمعا بلا أي جذور.. خايب هايف عاطل.. مجتمع انقلب فيه كل شيء إلى تحت..

- يا نهار إسود ياماريانا.. كفاية هاموت..

- فعلا يا نهار إسود فعلا هيّ بقت سودة..

- أرجوك ياماريانا.. تعال نسافر نريّح أعصابنا.. تعال نروح البلد..

- يا ريت يا صبرى تعال نروّح البلد..

* * * * *

.. ومرت أيام عليهم في البلدة كانوا في ضيافة الدكتور أحمد شفيق صبري، و لم تكن السيدة الكبيرة سعيدة لتغير أحوال القرى بشكل أحزنها حيث كانت تقعد كل صباح وتفتح نافذة المضيفة وترى المنظر المخيف حيث يقف عشرات من النساء والرجال من مختلف الأعمار في طوابير من أجل شراء الرغيف من فرن السيد حسين المجاور للبيت.. وما أضحكها في هذا الصباح الذي حزنت فيه لأول مرّة منذ وصولها إلى القرية حادثة الولد عبود الأهبل الذي ينحشر في طابور النساء بحجة أنه يشترى حيث كان يدّعر خلف امرأة بعد الأخرى حتى قامت إحداهن بضربه على رأسه بالحذاء وأخذه الرجال بعيدا

عن طوابير النساء وهم يضربون أكفهم علـــى حـــال عبـــود المسكين والذي لم ترض به فتاة في القرية قبول الزواج منـــه.. وراح الجميع يضحك رجالا ونساءً على دنيا عبـــود والـــذي ذهب بعد قليل من الحدث إلى بيته دون رغيف .. حزنـــت أم ماريا على كل الأحوال فلم يعجبها أن يسهر الرجال خاصة من شباب الفلاحين حتى الصباح في المقهى المجاور لبيت مـــضيفهم وأن يكون سعر اللحم هو نفس سعره في القاهرة وكذلك كل الأجبان والزبد.. وفي يوم حاول صبري أن يأخذها إلى مريـــان حيث ذكريات الطفولة وأرض أبوها القديمة فرفضت بأنها لـــن ترى شيئا يسر خاصة أن الرجال أصدقاء أبوها مـــاتوا جميعـــا وأولادهم من سافر ومن مات ولم يبق من أولادهـــم يحمـــل صفاتهم الكريمة أحد.. فكيف تذهب إلى الفراغ إلى لا شـــيء هناك.. وقالت خرِبت مريان.. وسألت عن سنابل الولد الشقي فأخبروها بأن عمره ثلاثة وثمانون عاما وأصبح هرما لا يقـــدر حتى على المشي.. وأخبر الدكتور أحمد بأن ملأة مريان لم يعد فيها رجال كما كانت من قبل وأقرب الأمثلة أن رجلاً لم يبلغ الخمسين من عمره عاق عما له مرات وفي عـــرض الطرقـــات وعلناً أمام الناس وكان كل ما فعله عمه عبد العزيـــز أن قـــال له .. رفقاً بجدران بيتي من المياه التي تغرق بهـــا الأرض وكـــان الولد يزيد في إيذاء عمه وكان له أخ صالح يدعى حاتم .. كان

حاتم صالح مثل أبيه .. مات حاتم وكنا جميعاً نحبه مات العم عبد العزيز حداد بعد ذلك وانشق قلب أخيه الكبير عليه وكره من عاقه وراحت العمة الكبيرة تبكي وقالت في حزن شديد:

– أظن أن هذا يعني لأن نذهب ولا نعود إلى البلدة ثانية .. الأحزان والأحداث المؤسفة ملأت الدنيا.

وعدنا إلى القاهرة ونحن محزونون على الكثير من أحوال القرية ولكننا في نفس الوقت انشغلنا بأشياء أخرى رحمتنا من مشاكل الفصل التعسفي ومن حماقة أصحاب الأعمال..

* * * * *

.. وكان علينا أن نبدأ مرحلة جديدة من الحياة وأدركت تماما أن الغم والهم في بلادي موزّع في كل نواحي المدن والقري.. وأنه لا فائدة من الأحزان ولا داعي لأن نبكي على الأحوال، وقامت ماريانا بتقديم كشف بأسماء كافة المحاسبين وبنات المبيعات اللائي تم فصلهم وفصلهن جميعا قدمته لصبرى قائلة :

– علينا أن نفة هؤلاء ونبرهم..

وراح صبري يقرأ الأسماء بعناوينها بهواتفها واندهش قائلا :

– كيف حصلت على كل هذه البيانات؟

- عندما شعرت قبل العيد بأن هناك مكيدة أو خداعا قــد يحدث خاصة عندما قابلني ناجي وليم المحاسب علــى الــدرج واستوقفني قائلا.. يا سيدتي أنا خائف وأشعر بأن هناك شــيئا يُدبّر في الخفاء ضد المحاسبين جميعا..

ولما قلت له وماذا تريدني أن أفعل.. قال لا شــيء العمــل عمل ربنا..

.. أخذت منه الكلام ودق قلبي بسرعة وشعرت بــالخوف وأخذت نفسي إلى الأرشيف وطلبت من محمد محــاريق هــذا الكشف فأتاني به بعد ساعة.. كنت أتعثــر وأنــا أمــشي في الشركة فأيقنت إلى حد كبير بحدوث شيء.. ..

- برافو عليك.. يعني ناجي هو السبب.. مشيت ورا قلبك واحساسك وصدق..

- وكان فيه حاجات كتيرة أوي حواليه بــس مارضــتش أقولك لأنها كانت مجرد إحساس ..

- وما الذي نستطيع أن نفعله لهؤلاء إذا كنا نحن لا نستطيع أن نفعل شيئا لأنفسنا..

- إننا نستطيع عمل الكثير ..

- كيف ..؟

- أتمنى أن تنسى أن تكون في يوم آت تعمل مديرا ماليا عند الأخرين.. لدينا المال والأرض والإدارة وهؤلاء هم المحاسبين وغيرهم.. حرّر نفسك يا عزيزي ..

وراح صبري يضحك بصوت عال ولما انتهي قال:

- لكن كيف نبدأ.. وهل يكون نشاطنا هو نفس النشاط الذي كنا فيه..

- مصنع ملابس فيه كل الأقسام.. وسنتر فيه كل حاجيات الناس..وسوف أتحدى هذا الخواجة وأضربه في الشغل.. كل أسطوات المصنع من رجال ونساء أعرفهم جيدا.. سوف أسحبهم منه..

- علينا أن نقيم المصنع أولا ..

- من الغد ..

- سوف أقوم بذلك ولكن أين المبني الذي نستأجره..

- سوف نبني الأول..

- هذا يستغرق وقتا طويلا..

- يستغرق.. المهم نبدأ.. ممكن في سنة نخلّص كل حاجة..

.. ومرت أيام قليلة بدأت ورشة عمل تمهد الأرض بعد أن هدمت المبني القديم وراح المقاول بعدها يحفر الأساسات.. وبدأ

شغل الأسمنت والزلط والرمـــل والحديـــد.. وراح الـــصعايدة العاملون يغنون أغنياتهم التي تعودوا عليها وهم يشيدون كـــل بناء..

* * * * *

.. وبعد أن أخذتني الدنيا ومشاغلها تذكرت أن لي إبنـــا في السجن وعمره طفلا صغيرا فشعرت بالخزي علـــى نفـــسي.. وعلى وجه السرعة جهّزنا له زيارة وذهبنا جميعا إليه في ظلمته، وفي هذا اليوم كانت كل كلمة يتفوه بها محمود تبعث في داخلنا البكاء والألم..

- أنا مش عايز زيارة أنا عايز أطلع يا بابا..

- طيب يا محمود حاضر لو كان بايدي كنت طلـــّعتك من أول يوم..

- إتصرّف يا بابا..

- حاضر يا بني..

وكانت أمه وجدته ومحمد أخـــوه وبـــسنت ينظـــرون إليّ وكأنهم يرجوني أيضا مثله.. وشعرت براحة نفسية أن الناس ما زالوا يعقدون عليّ الأمل.. ولمّا انتهت الزيارة وودعنـــاه كلنـــا بالبكاء والعويل.. أخبرتني جدته بأنها سوف تعرج على بيتها في الحسين لتذهب إلى محمد القاضي وهو عضو مجلس شعب سابق عن دائرة الجمالية ربما تجد حلا عنده..وعدنا إلى البيـــت هـــذا

اليوم عدا الجدة التي ذهبت إلى القاضي وتذكرت عندما كانوا يغنون لي وأنا صغير فتقول أمي لبيبة ضُرّة أمي :

- يا قاضي يا قاضي يااللي كلامك قاضي شوف لي حل في داري.. كل ما أكنس القاعة ألاقي مليم أحطه في الطاقة الحرامي ييجي ياخده..

.. ولم يكن عندي ثقة في أن عضوا من أعضاء مجلس الشعب يخدمك بدون مصلحة.. غير أنني عندي ثقة كبيرة في أن بعض الضباط داخل المعتقلات غير راضيين عمّا يحدث بصفة عامة ويعد لها الأهل والناس بصفة خاصة وأنهم كانوا يبكون من قلوبهم على الأطفال الأبرياء.. وكلما زرت ابني جاءني ضابط برتبة رائد بشوش الوجه ابن ناس ملامحه تشبه ملامح وجه أمي يا سبحان الله.. يصافحني بحرارة ويبتسم وفي كل مرّةأشعر أنه يريد أن يقول شيئا لي..وفي هذه المرّة الأخيرة صافحنا جميعا وصافح محمود قائلا :

- معلش

فقلت له :

- ربنا يخليك متشكر أوي.. فيه جوّه ضباط زيك يا ريت يكون فيه زيك كتير.. إنت بتحبنا ليه.. إنت مين وانت منين.. في كل الأحوال سلامك لينا ده جبر خاطر ورحمة من ربنا بتنزل علينا..

فقال الضابط :

- إحنا إخوات وانتو باين عليكم ناس طيبين وأنا بيني وبين نفسي لّما بشوف محمود قلبي بيبكي.. وأنا مش عارف ليه بحبكم زي ما يكون إنتو أهلي.. وعلى فكرة كل أهل مصر كانوا أخوات..

- دا كتير أوي علينا..

- شوف من الآخر.. طلّع ابنك.. فيه طرق كتيرة أوي..

- طيب دلني الله يرضى عليك..

- البلد مليانة طرق كتير شوف اللّي طلعوا طعلوا إزاي..

وانصرف تحسبا من أي عين تراقبه لطول وقفته معنا والحديث الذي ما يجب أن يفشى به.

.. نعم يا سادة رحت أتذكر حكايات كثيرة منها أن راقصة مشهورة أخرجت ولدا له ذقن وكان له نشاط ولكنها بقدرتها استطاعت أن تخرج هذا الولد لأهله وكان هذا الولد يبلغ من العمر ثلاثة وثلاثون عاما وكان ينتمي فعلا للجماعات الإسلامية وليس مثل ابني محاولة الانتماء للجماعات ثم اتزحلق.. ورحت أضحك في بيتي مع أبنائي وزوجتي على حكايات كثيرة.

.. وفي المساء جاءتنا الجدة فرحة وراحت تحكي :

- قابلت القاضي وللأسف طلع كلامه فاضي.. قـال مـا فيش طريق رسمي أقدر أعمله وده موضوع شائك لأني عـايز أقضي دورة المجلس في هدوء ولكن هاقولـك علـى راجـل بالفلوس ممكن يعمل حاجة.. المهم ياولاد جبت منـه تليفـون الراجل ده.. اكتب يا محمد برضه علشان الورقة ممكن تـضيع معايا وراح محمد الصغير يكتب:

.. حميدو عفيفي الورك رقم ٦ حارة عبدالرازق الورك باب الشعرية.. جنب الميدان وتليفونه ..

وبعد دقائق هاتفت الجدة حميدو وكنا نسمعها فقط :

- حميدو بيه موجود..

- ممكن تقول له أنا من طريـق محمـد القاضـي بتـاع الجمالية ..

وصمتت برهة ثم تابعت :

- أهلا يا بيه أنا من طرف القاضي بيـه عـضو المجلـس عارفه..

- طيب خلاصة الموضوع ابن بنتي طفل ستاشر سنة خدوه اللـّي ينتصوا في نظرهم..

- في سجن استقبال طرة.. سنتين..

- حديجيلك..طيب أبوه هايجيلك.. طيب وماله اتفق معاه على كل حاجة..

- من الأول كده.. كام عشرين.ز عشرين ألف بس هات محمود.. عشرة الأول وعشرة لّما يطلع.. يجيلك امتى..

- النهاردة.. هاتروحوا للراجل النهاردة .. طيب ها يجيلك بعد ساعة.. اسمه صبرى درديرٍ.. مع السلامة..

.. كان الحديث محمد حميدو بادرة أمـــل للأســـرة وكمـــا يقولون الغريق عايز قشّاية يتعلـــّق فيها، غير أن صبرى أبلـــغ الحاجة بأنها تهاتفه مرّة أخرى وتبلغه بأن صبرى سوف يأتيـــك مساء غد بعد العشاء وقامت الجدة وأبلغت بذلك..

.. ومرّ بعض الوقت بعده أخبر صبري ماريانا بما حـــدث فسعدت لذلك وأخبرته أن المبلغ الذي سيدفع للرجل سيكون منها وأنه عليه أن يسر ع في الذهاب إليها لتبلغه بأخبار أخرى..

* * * * *

وعندما ذهب إلى زوجته ماريانا بالزيتون وجدهما سعيدتين بخبر أن محمود سيخرج بالفلوس وهناك أخبر ماريانا بملاحظات في الصب وأن الأساسات يجب أن تكون ذات سمك كبير وأن على المقاول أن ينفّذ ما نميله عليه لأنه لا يدفع شيئا من جيبه.. فقال لها صبري :

- ومن أين عرفت كل هذا..

- لا أخفي عليك أنني وجدت المقاول الذي يشرف على البناء بجلابية فتوجست أن يكون جاهلا بأمور فنية فاستدعيت مهندس مباني ليقول لنا خبرته وملاحظاته.. وسوف يأتي هذا المهندس من يوم لآخر حتى لا يجهلنا هذا المقاول في شيء.

ضحك صبري وقال :

- وكيف تأتين برجل وتقابليه دون علمي..

- أبدا يا حبيبي إني أردت أن لا أشغلك بشكل كبير وأنك مشغول هذه الأيام ودمّك مش رايق بعد أحداث الشركة المؤسفة.. ولن أستدعيه بعد اليوم ولن أكون معه وهو عند البناء لتقديم مشورته.. هي مرّة واحدة كانت مبادرة سريعة مني للخوف على الأساسات..

- حسن يا حبيبتي بالنسبة لموضوع الراجل اللّي ها يطلّع محمود أنا معايا فلوسه ليه تقولي إن العشرين مني أنا..

- يا ريت ندفع ويطلع.. عملية أنا أدفع إنت تدفع إحنا واحد.. ولكن ماما هيّ اللي ندرت هذا.. سيبها تعمل اللّي عايزاه الخير كتير..

- يا ألله.. نحن نغرق في الخير الكتير وغيرنا حاله قشّف من كتر مافيش..

- معلش دي أحوال الدنيا وعلى العموم إحنا بنعمل شيء هايكون كبير للناس المقشفة..

* * * * *

وفي مساء اليوم التالي ذهبت قبل العصر إلى بيت أبنائي لآخذ من دولابي خمسة آلاف جنيه احتياطي معي في هذا المشوار وتناولت الغذاء مع الأسرة حتى أمسى الليل.. وبادرتني ماريانا بمكالمة المحمول بأنها سوف تأتيني بالسيارة وتنتظرني مقابل باب فندق السلام.. وتناولت الشاي على عجل وارتديت ملابسي وهلعت مهرولا في اتجاه الفندق بشارع جسر السويس.. دلفت بجوارها وأخذت يدها وقبلتها فابتسمت قائلة :

- على إيه دا كله..

- عشان بحبك ..

- كفاية عليّه كده.. حبني أوي يا صبري..

- هاموت فيك طول عمري..

- يا رب يكون عمري قبل عمرك.. إنت روح قلبي..

واخترقت المركبة شارع جسر السويس مارة بأحياء منشية التحرير وعزبة شنودة والزيتون ومنشية البكري حتى وصلنا إلى

العباسية ومنها إلى باب الشعرية.. كانت الشوارع خالية لانشغال لناس بمباراة لكرة القدم.. كانت ماريانا سعيدة وقلبها يبتهج وتردّد كلماتها بصوت فرح :

- إيه يعني الفلوس بس يطلع..

- يا ريت .. يارب..

- خيبة بتحصل في البلد.. ياخدوا إبننا ظلم وبهتان وندفع فلوس كمان علشان نطلّعه..

- تنكيل.. هوّ دا التنكيل..

- طيّب الناس الغلابة تجيب فلوس منين علشان تطلّع ولادها..

.. وصلنا إلى باب الشعرية ودخلنا في حواريها وكانت أنوار الشارع العام ترسل أشعة المصابيح إلى تلك الحارات فلم يعد الظلام حالكا ولكنه كان باهتا واستطعنا الوصول إلى البيت وأمام الباب هاتفناه فنزل إلينا وصافحنا وركب في المقعد الخلفي وانطلقت ماريانا بالمركبة متجهة إلى أول شارع فيصل حيث بيت الرجل الذي نقصده..

.. كان حميدو الورك ابن بلد شبيه كل أبناء البلد في أي مدينة ولكنه كان قريب الشبه بزاين قهوة حميدو في محطة الرمل بالإسكندرية وانشغلنا معه في سماع حكاياته:

- إحنا يا بيه عايشين هنا من زمـــان ومولـــودين هنـــا.. شوارعنا ضيقة وبيوتنا قديمة لكن هيّ دي الأحياء الشعبية طول عمرها وتلاقي الناس فيها كل واحد شكل.. أم العيال عـــايزة تمشي من هنا بس فين الفلوس اللـــّي تجيب بيوت..

- ربنا هايبعت يا حاج حميدو.. هوّ احنا ها نقابل مين..

- راجل عارف كل حاجة في الدنيا.. عارف كـــذا لـــواء بيقضي مصالحهم وهمّ بيخدموه ومتعرفـــشي ماشـــية إزاي.. الفلوس بتعمل يا بيه.. بالمناسبة يا بيه جبت المقدّمة.

- ما فيش مشكلة نشوف الراجل الأول وكلامـــه.. مـــا تخافش إحنا فلوسنا جاهزة ..

.. وكان الرجل يقول لماريانا بين الفينة والفينة الأخـــرى.. يمين شمال لأ لأ شمال يمين أيوه خلاص قرّبنا نوصل.. خـــلاص على مهلك.. وكانت ماريانا تبتـــسم لأن حميـــدو يتكلـــــّم (بلهمضة) وبسرعة وكأنه يكح في كلماته ويبدو أنه كان ذلك من كثرة سجائره.. ويبدو أننا كنا قريبين مـــن ترعـــة الزمـــر توقفت العربة أمام البيت.. صعدنا الدرج حتى الـــدور الرابـــع ودق حميدو الباب وفتحت لنا امرأة في الأربعين مفكوكة الشعر والصدر وكأنها خارجة من غرفة النوم.. كانت علـــى علـــم بوصولنا وأجلستنا بالصالة وهمست في أذن حميدو ثم انسصرفت إلى الداخل.. وكان عدد من الرجال والنساء والفتيـــات مـــن

مختلف الأعمار يجلسون معنا في الصالة الكبيرة كمن ينتظر كل منهم دوره وكانت مريانا تـــدقق في وجـــوههم وتتملمـــل في جلستها.. هذا رجل طاعن في السن يجلس على مقعد وحـــده متكئا على عكازه وهذه سيدة عجوز تتمـــتم مـــع نفـــسها.. وهاتان فتاتان في عز الصبا وقد جلستا في مقعد واحد.. وهذه سيدة في الأربعين زائغة النظرات، وفتاة أخرى تجلـــس بعيـــدا عارية الصدرمنكوشة الشعر جذابة مثيرة ترتدي بنطلونا ضـــيّقا يحضن أردافهم البعض والتي قامت إلى المرآة في ميوعة تـــسوّي من شعرها ثم طرحته منثورا على كتفيها ثم عادت أكثـــر دلالا إلى مقعدها ووضعت ساقا فوق الأخرى غير مبالية وهي تشعل سيجارتها بعود ثقاب ولّما زفرت الدخان من فمها راحت تتابع كراته المتصاعدة وهي تنظر إلى سقف الصالة وكأنها تتأمل شيئا يستحق أن تستغرق فيه.. ثم رجل عربي يرتدي العقال يـــبرطم بصوت منخفض مع امرأة معه ترتدي عبـــاءة الخلـــيج.. وراح صبري وقد فغر فاه وكأن المكان بمافيه من هؤلاء قد انفـــصل عن باقي المدينة وكأن كل منهم قد سقط منه شـــيء وجـــاء يبحث عنه.. كان يندهش وظهر له أن رصيف المدينة يحتـــوى الكثيرين وأن هذا الرصيف ليس في الشارع فقط.. وأن الناس على اختلاف طبقاتهم وتفكيرهم يبحثون عن مـــن ينقـــذهم.. تُرى عن ماذا يبحث هؤلاء..

.. وكان حميدو الورك قد دلف عدة مرات إلى الداخل ثم يعود يجلس بجانبنا لكنه في المرّة الأخيرة أخذنا إلى الداخل.. فتح

لنا الباب شاب صغيرسرعان ما انصرف.. وإذا برجـــل يـــشبه الرجال يجلس على مقعد ضخم وبصوت يشبه صوت النـــساء قائلا في طراوة ؟

- أهلا أهلا حميدو وضيوفه.. هلا هلا.. إيـــش بيكـــو.. تمجلسوا.. تفسحوا.. هن هن..

.. جلسنا مقابلته وأنا أتأمله في ذهول.. أتأمل ضفيرة شعره الطويلة والتي طرحها خلفه.. عيونه منتوفة مـــن الـــشعر.. لا رموش لها.. وقد طلى شفتيه بلون أحمر الشفاة البني الـــداكن.. كده علني.. الراجل بيقول أنا ست.. ولكن هل هـــذا لـــزوم الشغل.. أهو شاذ ويظهر ذلك على مـــلأه دون مـــداراه..إن الكثير من الرجال الشواذ شواذ لكن أشـــكالهم عـــاديون ولا يطرحون ضـــفيرةعلى ظهـــرهم ولا يـــدهنون بأحمرالـــشفاة ويتحدثون كالرجال.. وشعر بتقزز من الرجل وبإن ذلـــك في وجهه فقالت له ماريانا هامسة في أذنيه :

- ياله نقوم بلاش مسخرة..

فمال صبري على حميدو يهمس في أذنيه:

- إزاي جايبنا في المهزلة دي..

- طوّل بالك يابيه.. دا سره كبير.. إنت مش لسـك إبـــن يطلع..

- أنا شايف العينة تطرّش..

- طوّل بالك إهدى.. إسمع بقة ..

وحكى حميدو حكاية محمود وأنه في استقبال طره وإنه كان ها ينتمي لكن محاولته فشلت ..

فضحك الرجل وتفحص صبري بعينيه الكحيلـتين وقــال بكلمات تتبرطع خارج فمه :

- أنا شفت الباشا قبل كده..

- أنا عمرى ماعملت حاجة كده ولا كده..

- مش فاهم.. المهم ندخل في الموضوع..

- ابني ستاشر سنة من سنتين جوّه ومش عارفين نطلّـعه..

- دي بسيطة.. حميدو قال لك عن السيالة ..

- أيوه ..

- إدفع مقدم دلوقتي..

- هوّ أنا شفت حاجة..

- يا أستاذ.. أنا باشـتغل علـى الـضيق ومـع النــاس المضمونين.. مش عايز حد يقول بياخد فلوس ويطلّـع.. لأن ورايا ناس والموضوع حساس مش سهل..

وراجع صبري يفتشّ في جيوبه حتى وجد ورقة كتب فيها كل بيانات ابنه وناولها للرجل الذي راح يقرأها وقال بعد أن طواها في جيبه.. ياضنايا يابني حرام..

وهز الرجل رأسه وراح يفكر فبادره حميدو قائلا :

- يا عم نأنوز إتكل على الله..الناس دي في ضمانتي ومن بكرة ها يدفعوا المقدم..

- طيب خلاص ..

.. وأدار قرص الهاتف وبدأ في حديثه وكأنه يهلل أويهتف :

- إزيك يا باشا.. يا حبيبي يا باشا.. خيرك ياباشا مغرقني.. وحياة غلاوة مراتي عندك يا باشا ما انت شفتها يا باشا..دايما تشتكي مني.. بقها لأخويا يمكن يجاويها من تعبها.. هيّ دائمة دايخة يا باشا وأنا مش فاضي لها أنا مشغول باخدم الناس يا باشا..حاضر هابعتها يا باشا.. ريّحها.. يا ريت ترتاح معاك يا باشا وتبعد عني..خلاص حلال عليك يا باشا.. عندي حكاية صغيرة واد طفل بيرضع خدوه من سنتين وعايزينه.. غالي عند أبوه وأمه واتفقت معاهم .. أجي دلوقتي.. حالا يا باشا نص ساعة في الزمالك برضه..أيوه حافظ المكان يا باشا.. سلام يا باشا..

.. وكانت ماريانا شديدة الاشمئزاز وهمست في أذن صبري مرات :

- ما ينفعش كده يا صبري..الراجل حاله مايل أوي.. مش مصدّقة إن ده يعمل حاجة..

- طيب اصبري خلّينا للآخر.. دعي الخلق للخالق طوّلي بالك..

وقام الرجل إلى داخل بيته وخلفه حميدو و لم تمض دقائق حتى إنقلب حميدو إلينا مشيرا بيده أن نتبعه..ولما كنا نترل الدرج قال صبري لحميدو :

- هوّ الراجل ده عامل كده ليه..إسمه إيه ومنين..

- مالناش دعوة يا عم صبري سره مع ربّه إحنا لينا مصلحتنا ..

- هوّ هوّ ..

- ما لناش دعوة هوّ فيه كل العبر..يا عم صبري ما فيش راجل صالح في بلدنا يقدر يحل مشكلتك لازم يكون راجل وسخ.. هيّ ماشيه كده.. الناس الشريفة ماتت..

- والله مانا عارف حاجة ولا إحنا من أي نوع ..

- طيب اركبو يابا صبري على ما اشتري سجاير ويترل..

- على فكرة هو اسمه إيه.

- نأنوز التقيل ..

وركبنا السيارة وكانت ماريانا منفعلة ولو قلت لها دعينا من هذا الموضوع لأسرعت بالعربة منطلقة إلى بيتنا.. وراحت تقول بعصبية.. لايمكن الأشكال دي تعمل حاجة.. لا

يمكن..وكان صبري يهدئها رغم أنه يعتقد هذا الاعتقاد لكنه كان يريدأن يصل إلى نهاية المشوار فقد يأتي الأمل من خرم إبرة..

.. مرّت دقائق فيها شعرت وماريانا بالانقباض وأننا قد نكون دخلنا في دائرة من دوائر النصب وقطع علينا تيهنا قدوم الرجلان ففتحت لهما باب السيارة الخلفي..

وانطلقت العربة إلى حي الزمالك حيث يعمل اللواء س.ع.أ في بيت صغير لإدارة من إدارات الداخلية.. وتذكرت كيف كان حي الزمالك جميلا عندما كنت أتمشى في شوارعه الهادئة أثناء دراستي في كلية التجارة بشارع أبو الفدا.. ولم أكن أتصور في يوم أنني سوف أذهب إلى هذا الحي لطلب النجدة مقهورا في ليلة مثل هذه يقبض على قلبي فيها كالموت رجل مثل نأنوز الثقيل.. ولكن من أجبرك على المر.. في ليلة ظلماء أخذوا إبني من بيتي ومن أحضاني.. وفي ليلة ظلماء أخرى انحني لسكة مليئة بالشوك يتلقفاني منها حميدو ونأنوز.. الذين خطفوا ابني أمام عيني عسكر من الداخلية كان أكبرهم برتبة رائد وهذه ليلتي فيها أذهب إلى لواء من نفس الكتيبة ليأتي لي بابني.. في الأولى مضروب على رأسي وسقطت بقية من كرامة كانت في داخلي وفي المرّة الثانية أدفع الآلاف ليخرج ولدي.. في الأولى خاسر ومقهور وفي الثانية مغصوب ومجبور.. من أخذ ابني إلى الظلام الذي صنعوه له هم من بلادي..وحميدو ونأنوز من بلادي.. واللواء من بلادي..وجسر السويس حي من القاهرة

فيه ارتكبت الجريمة وفي حي الزمالك أبحث عن حل لفك ألغاز الجريمة وكلها أحياء من بلادي.. فهل هذه حقا بلادي.. هـل هؤلاء هم الناس.. وهل هذه هي الأحياء.. وهل حقـا هـذه أعمال العسكر.. وهل أحوال بلادي تـسرُّ الحبيـب وتحـزن العدو؟

* * * * *

جلسنا في غرفة صغيرة بجوار غرفة الباشـا أدخلنـا فيهـا العسكري وكانت ماريانا تجلس في مركبتها لأنها لم تستطع أن تتحمل هذين الرجلين أو أي أحداث أخرى، وبعد دقائق مـن انتظار ثلاثتنا الدخول إلى مكتب اللواء.. قدّم لنـا العـسكرى شايا بناءً على أوامر الباشا.. ودخلنا بعد الـشاي.. يرتـدي ملابس مدنية أنيقة وكان ينشغل بالحديث في الهاتف بعدها قام إلينا وصافحنا في حرارة ثم عاد إلى مكتبه وقال وهو يـشخص إلى صبري :

- البيه صاحب الموضوع..

هزّ صبري رأسه وقال في أدب :

- نعم يا سيدي..

وهرول نأنوز إلى مكتبه وناوله الورقة التي بها كل البيانـات عن المعتقل وراح يدقق فيها ثم قال في تروّ :

- موضوع أصله خايب.. طيب حاضر..

وأدار قرص الهاتف وراح يتحدث بصوت خفيض بعدها وضع السماعة ورجع بمقعده قليلا إلى الخلف وهو يمسك بدرج مكتبه وقال:

- إنتو جيتو متأخرين.. الساعة اتناشر همّ مشيوا.. كلهم مشيوا..

فقال صبري بعصبية :

- وبعدين ..

- تعالى بكرة الصبيح.. تعال لوحدك.. عاالساعة حداشر ..

- أكيد ..

- أكيد ها نشوف الموضوع ..

وضحك نأنوز بصوت عال وقال وهو يتمايل يمنة ويسرة :

- مش هاقدر آجي يا باشا..

ضحك اللواء وقال :

- علشان إنت كول بتنام للساعة تلاتة عارف إنك بايظ وعايز.. إنت عارف عايز إيه..

- عارف والله يا باشا.. وراح يسخسخ من الضحك..

وبادره اللواء :

- البيه عرف كل حاجة.. وحكّ إصبعيه ببعضهما ..

- عرف يا بيه..

- خلاص بكره ميعادنا..

وقاموا الثلاثة وتصافحوا مع اللواء وانصرفا كل من صبري وحميدو الورك وتركا نأنوز مع اللواء..

* * * * *

كانت ماريانا تشعر بالبرد ربما.. شدّت شالا على كتفيها ضمت ساقيها إلى بعضها.. أهو خليط من الجزع وصقيع الشارع وراحت تتقوقع في المقعد الأمامي للعربة بعد أن قفلت الزجاج وبدأت أسنانها تصطك.. تحسست جسدها بعصبية وشعرت بالخوف وأخذها القلق على صبري وهو مع الرجلين وهزّت رأسها كأنها انتوت شيئا وأرسلت تنهيدة من أعماقها بينما كان المطر قد بدأ يهطل بغزارة فراحت تبكي وتنتحب ولم تهدأ.. وفجأة فتح صبري باب السيارة وزرع نفسه بجانبها دون أن ينبس بكلمة.. كان يبدو عبوسا من غرابة تلك الليلة التي كان فيها يتصور أنه يذهب إلى رجال محترمين ليخلّصوا ابنه.. ولكن كيف والناس بهذه اللامعقولية أن يوصّلوه إلى شيء.. كانت نفسه تهتز وماريانا ترقبه فبادرته بعد أن تأكدت أنه لا يقدر على أي كلام :

- ما الذي تنتظره ؟

- هما بالداخل.. نأنوز تركناه مع اللواء وحميدو ينتظـــر في الطابق الأرضي..

- ولماذا ننتظرهما ؟

- الموضوع ..

- يبدو أنني ولأول مرّة ألاحظ عيبا جسيما قد بدأ يعتريك وهو أنك تحب أن تجري وراء الوهم..

- إنه الأمل يا مارينا.. ابتدأت طريقا وعليّ أن أصـــل إلى نهايته..

- أي نهاية وأي طريق.. أرجوك أريد أن أنطلق من هنا ..

- ونترك الموضوع ونتركهما.. ماذا سيقولان عنّا..

- سكة هذان الرجلان سوداء وهذا اللواء الـــذي قـــابلتوه الليلة سكة مغيمّة أرجوك علينا أن نهرب من كل هذا..

- أتشعرين بالخوف..

- إنني أشعر بأن هناك مصيبة ستترل بنا إذا سرنا في هـــذا الطريق ..

- إذا عليك أن تسرعي قبل أن يخرجا إلينا..

وانطلقت ماريانا بالعربة بسرعة نحو كوبرى أبو العلا ومنـــه إلى الكوبري الموّصل إلى معروف مارة بمبنى التليفزيون وهيلتون رمسيس..

.. وفي هذه الليلة لم ير أي منهما النوم حتى بزغ نور الصبح وكانت ماريانا تطفح حزنا على ما يجري في العاصـــمة غـــير مصدّقة أن في القاهرة كثير من الأوباش.. وأن فئات متعددة من أهل المدينة وشرائح كبيرة من الناس قد انخرطـــت في أعمـــال السمسرة والدلالة والنصب وأن شرائح أخرى قد اندلعت تعمل في كل الأوقات في أعمال الدعارة.. وأرجأت أسباب ذلك هي وصبري إلى الانهيار الاقتصادي في مجتمع في الأصل فقير لم يكن في حاجة إلى أي فساد.. وأن السرقة واللصوصية والمتـــاجرة في أقوات الناس دمرّت المجتمع وجعلته كالثوب المثقوب الـــذي لا ينفع معه ترقيع وأن هذه الأعمال افقرت المجتمع وزادته فقـــرا على فقر..

.. ولم يكن إختيارنا عندما نواجه صداما واقعيـــا في هـــذا المجتمع فإننا كنا نلجأ إلى تسييس ذلك الموقف، وكان كلامنـــا في السياسة معادا ومكررا لأن كل بيوت المدينة تعرفه وتـــتكلم فيه والطفل في بلادي يتكلم في المعيشة والغلاء والحيـــاة حـــتى الكلاب والحمير في بلادي يبدو أنها تخزّن الكثير في الـــسياسة ولكنها لا تستطيع أن تتكلم..

.. وبدأت خرسانة البناء تعلو حتى وصـــلت إلى عـــشرة طوابق ثم بدأت بعد ذلك عملية بناء الطـــوب بـــين العواميـــد والحيطان.. وكانت المشكلة عند صبري أنه يلجأ إلى السياسية وهكذا كانت ماريانا وذلك في الأوضاع المزرية التي يجداها في كل مكان.. وكانت ماريانا تبحث عن مخرج وتقول لنفـــسها دائما لماذا لا نغوص في داخل المجتمع.. لماذا لا ننصهر كطوبة في بناء.. لماذا لا نعيش كما يعيش الناس ولنسكت عـــن الكـــلام ونعيش والسلام.. لماذا يهمنا أحوال الناس ولماذا نفكّر ولمـــاذا نتفلسف؟ وفي يوم عندما وصلت إلى ذروة أنها يجب أن تفكّـــر في نفسها فقط.. قالت لصبري وهي تمتد بجواره في الفراش :

- عشت سنين مع زوجي السابق اعتقدت فيها أنني عـــاقر وهناك حكايات كثيرة تقول أن المرأة لها نصيب أن تنجب من رجل معين ولا تنجب من آخر وهذا يحدث كثيرا في المجتمع..

.. وسكتت فابتسم وقال لها :

- وماذا بعد..

- إنني ياحبيبي لأنني أحبّك فكرّت في هذا الموضوع كـــثيرا وإنني إريد أن أنجب طفلا منك ..

- أنا لا أمانع.. لو كنت فقيرا لقلت لك لا .. إن الرجل عندما يدخل مرحلة بعد الخمسين من العمر فإن الطفل عندما يأتي في هذه السن يكون ابن يتيم.. ولكن.. وسكت..

فقالت :

- أكمل ولكن ماذا؟

- أبحثي عن نفسك إننا متزوجان منذ وقت و لم تحملي..

- سوف أسأل أمي عن طبيب شاطر..

- وهل عرضت عليها هذا الأمر..

- نعم ومنذ وقت وقالت أنها أمنية عمرها..

- إبحثي عن طبيب..

وفي اليوم التالي عرض عليها صبري أن يذهبا إلى الإسكندرية حيث قريب له من أشهر أطباء الجلدية والتناسلية في المدينة.. ربما.. لا أحد يعرف ما الذي يخبئه القدر..

.. وبعد أيام قليلة حملوا الثلاثة حقائبهم إلى محطة قطار رمسيس مفضلين السفر بالتوربيني.. وأقاموا في أحد فنادق البحر.. وفي مساء يوم ذهبوا إلى حسن أمين الطبيب المشهور بعلاج العقم وهناك رحّب بهم كثيرا وحيا قرابته مع صبري وراح يحلف بالأيام الجميلة التي قضاها في قريته وهو صغير..

قضينا أياما جميلة في الإسكندرية وبعد أكثر من أسبوع عدنا إلى القاهرة وأهم ما تحمله معنا الدواء الذي قرّره الطبيب والذي يجب أن نكرره عدة مرات بعدها نعود لاستشارته..

* * * * *

.. ومرّ شهران على تعاطيها العلاج ولّما فات شهر آخر كان الله قد أراد أن تحمل حملها الأول والذي كان وقعه عليها وعلى أمها أكبر سعادة حدثت لهما في حياتهما.. ولّما مضت أيام وأسابيع أخرى تأكدا فيها من الحمل انتوت السيدة الكبيرة أن تبدأ باعمال الخير ووهبت عشرين ألف جنيه للفقراء والسائلين والمحتاجين وراحت السيدة بنفسها تدخل كل بيت من هؤلاء لتعطي الصدقة في يد محتاجها وذهبت إلى مسجد الحي وتبرعت بآلاف أخرى لليتامى والمساكين وإلى الكنيسة الكبيرة وتبرعت بمبلغ قدر المبلغ التي تبرعت به للمسجد.. وكانت توصي الجميع بأن يدعوا لأم إبراهيم وأن يكمل الله حملها..

.. ومن بالغ ساعدهما بالأيام التي تأتي وتمضي ومزيد من سرورهما ينمو بمرور الأيام والليالي حيث يتم الله عليهما نعمة إكمال شهور الحمل.. بلغت ماريانا شهرها الأخير وكانت أمها شديدة الحرص على قضائها كل أعمال المترل وحاجياته حتى لا تجهد ابنتها في شيء.. ولّما كانت البناية الجديدة تعلو

شاهقة بجوار البيت القديم.. كان هذا البيت العريق تكاد تحتفل جدرانه بمجيء الولد أمنية كل امرأة.. غير أن ماريانا كانت سعادتها تفوق سعادة الفتيات والنساء جميعا لأن ذلك الحلم جاء تحقيقه بعد يأس وبعد حقبة من الزمن فيها تأكدت بأن هذا نصيبها.. وكانت تقول لصبري.. إن الله لمّا أراد جئت إلينا وتزوجتك وحملت منك بعد سنين من زواجي منك لأن الأمل كان يراودني من وقت لآخر حتى أتاني الله بالإرادة وذهبنا إلى الطبيب وحدث الحدث الرائع واكتملت سعادتي ذروتها عندما كشفنا على بطني ورأينا القادم ولدا.. ماذا نريد عطاءً أكثر من هذا.. آه يا صبري من الحلم الذي تحقق.. أنت أب الحلم يا صبري وأنا أمه ووالدتي التي كانت تقول دائما وهي تبكي.. إننا سنترك كل هذا المال وهذا البيت وهذه الأرض لمن.. ليس لنا أحد يورث ثروتنا وتبكي وكانت تداري عنها بكائها.. إن أمي بهذا الحدث الرائع الذي هداه الله لابنتها هي جذور كل هذه السعادة.. بل هي الأرض التي أنبتتني وهي المجتمع الذي سوف يعيش فيه ولدنا..

.. هكذا كانت تكرّر ماريانا كلامها مع صبري دائما من فيض سعادتها.. وفي يوم كان فيه صبري شديد التعلق بذكرياته القديمة فطلب من السيدة الكبيرة أن تقدّم لهم غداء يأكله الشعب الكادح والطالب والفقير.. إنه كان شديد التعلق بالجذور القديمة.. طلب منها أن تكون وجبة الغداء من الفول والطعمية والجبن القديم وطبق السلاطة الحار ولا مانع من

الجرجير والفجل.. كان يحب أصدقاؤه كثيرا في أوائل الستينيات عندما كان يذهب إلى مطعم أبو النور في مدينة منوف وهو طالب بالثانوية العامة في نفس المدينة.. كان يذهب مع عبدالحميد وحداد القطان ومعهم عبدالعزيز حداد من يوم لآخر إلى هذا المطعم لتناول تلك الوجبة الشهية.. ومات أعز الأصدقاء و لم تبق غير الذكريات.. غير أن عبد العزيز بقى قليلا ثم مات في أكتوبر الماضي.. وهكذا يذهب الطيبون إلى الموت ويبقي الكثير من الأشقياء.. ولّما كان من حين لآخر يحكي لماريانا أيامه الأولى الجميلة في مدينة منوف كانت ماريانا تغار من ذكرياته تلك وتقول :

- لا تفرط في ذكرياتك في شبابك لأنني أشعر أن تلك الذكريات تفوق حبّك لي..

- أبدا إن حبي لك هو كل حياتي وغدي.. إن هذا البيت الذي نعيش فيه هو المكان الذي جدّد حياتي وبعث فيّ أمل الحياة خاصة بعد اعتقال ابني.. إنني لا أستطيع أن أقطع مراحل حياتي الجميلة.. وأن الذكريات تاريخ وأن الله قد أنعم عليّ دون شباب القرية جميعا بالكثير وأن جميع أصدقائي ماتوا وأن كثيرا من أعدائي ما زالوا يعيشون ولكني انتصرت عليهم جميعا ببعادى عنهم وهجرتي من قريتي التي تعج بالحقد والكراهية وضيق الأفق.. إنني مازلت كما كنت صغيرا أكره شارع أبو سمك ولا أحب فرع أبو شاطية وأكره كلمة حتحوت وعبود وهاده ولكنني أحب الشيخ عبدالعظيم فقط من كل هؤلاء

الذين مازلت أكرههم.. ولا يستطيع أحد أن يترع ما في قلبي من حب وما في قلبي من كره ومقت والمكان الشديد البغض طيلة حياتي والذي كان مبعثه القلق في كل أطوارها هو قرية صغيرة إسمها شروة حسن فيها الجهل وأناس لا يعرفون الحب.. إنني أختنق من شروة حسن وأهلها جميعا لأن الناس فيها كانوا يكرهوا أمي وعشت طيلة عمرى يا ماريانا على قاعدة من يحب أمي أحبه ومن يكره أمي أكرهه ولذلك كنت أميل دائما إلى جيراني من عائلة الصاوي والقطان لأهم كانوا على علاقات طيبة ونظيفة وراقية مع أمي.. قولي بالله عليك كيف لا أحكي لك عن جذوري.. كان هذا هو الماضي أما أنت فتلك الحياة والحب والأمل التي منّ عليّ الله بها.. إن مقدار سعادتي بكم يساوي مقدار حزني على ولدي.. وهكذا أنزل الله بي الرحمة..

وبعد تناول الغداء من الفول والطعمية والجبن أبو قوطة وفلفل ارتدى صبري ملابسه قاصدا أحد مقاولي البياض للاتفاق معه، ونزل من بيته ومشى على قدميه قاصدا محطة مترو حدائق الزيتون، وعلى ناصية محل سمك في شارع يكتظ بالبائعين وقفت عربة للفول والتفتّ حولها مجموعة من الناس يأكلون الفول والبصل بالخبز الطري.. وتوقف قليلا مقابل المطعم المتنقل حيث لفت نظره صاحبه الذي يتوسط الجميع ويقف في الأعلى فوق الرصيف ليغرف الفول للزبائن.. التفت إلى الشاب إنه رآه من قبل..واقترب قليلا منه فعرفه وتأكد أنه خالد المحاسب.. ونادى

بصوت خفيض.. خالد.. خالد.. إندفع الشاب نحـو أسـتاذه ليحتضنه وابتعد عنه قليلا وهو يقول :

- إنت فين يا أستاذ؟

- أنا كويس.. بس إنت إيه اللّي عمل فيك كده..

- دقيقة يا بيه ودخل خالد المقهي المواجه لعربته ثم إنقلـب إلى صبري وفي يده شاب آخر يعمل معه ليقف مكانـه حـتى يستطيع أن يجلس مع الأستاذ صبري..

.. وقف نائب المعلم مكان خالد ليغرف الفول للزبـائن.. وأمسك خالد صبري من ذراعه قائلا :

- تعال يا أستاذ نقعد مش ها ينفع الوقفة أنا مـا صـدّقت لقيتك..

.. وجلسا في داخل المقهي وبدأ صبري كلامه في تودد مـع خالد :

- إيه اللـّي زنقك على كده ..

- من الأخر لّما رجعت في صباح اليوم المشئوم إلى البيـت وأخبرت أمي بما حدث قلعت الشبشب وفوق رأسـي.. مـا صدّقتنيش وفكرّت إن أنا ما انفعش اشتغل محاسب.. جريـت من ضرب أمي ونزلت الشارع قعدت على القهوة في الأميريـة أشرب شاي وجوزة ورحت أكلم نفسي لمدة ساعتين ..

- وبعدين ؟

- لّما روّحت تاني هدّيت أمـــي وحكيـــت لهـــا الحكايـــة بالتفصيل قامت وجابت فلوس من الدولاب وحطتهم أدامـــي وقالت ما تشتغلش محاسب تاني ولّما قلت لها ليه قالت لا عـــاد شركات زي الأول ولا فيه رجاله أصحاب أعمال زي زمان.. طيب أعمل إيه يامّه.. قالت هات عربية فول واعـــرف قـــصته الأول واشتغل شوية مع واحد صاحب عربية علشان تعـــرف المهنة تعرف تشتغل إزاي.. دول ألفين جنيه اللـــّي معايا شيلهم ولما تعرف كل حاجة عن الشغلة وتكاليفها خد الفلوس وهات عربية واشتغل ونقي مكان كويس..

- وبعدين ..

- اشتغلت عشرة أيام بس مع واحد وبعـــدين اشـــتريت العربية والفول والقدرة والذي منه وقلت يا رزاق..

- يعني بتاخد منها أد المحاسب..

- محاسب مين يا بيه..

- باعمل ألف ونص صافي وكل يوم بيزيد..

- كان كفاية ثانوية عامة..

- وإيش عرّفني أنا أن المحاسبين مصيرهم كدة وأناحر نفسي وممكن أعمل بيت وأتجوز على الأقل فيه دلوقت استقرار وعلى فكرة يا بيه أنا أحسن من غيري كتير..

- زمايلك راحوا فين..

- إنت عارف كامل جمعة المحاسب..

- طبعا عارفه ..

- دا راجل سنه تلاتة وتلاتين سنة متجوز لف على كل شركات مصر ما لقاش أي شغل..

- وبعدين عمل إيه..

- بقه بتاع نسوان..

- بتاع النسوان ما بيجيبش فلوس..

- لأ يا بيه مش فلاتي.. الفلاتي بيدفع فلوس..

- مش فاهمك ..

- أحمد لقي نسوان كتير مش لاقية شغل وعندهم التزامات جمّع شوية وهات يا تسريح..

- والحريم دا متجوّز..

- على كل لون يابا..

- وبيجبهم منين..

- من كل حتة تلاقي منهم كتير وكل واحد له طريقته في شغله..

- أنا عايز أروح لكامل جمعة..

- أوي يا بيه.. خد عنوانه وتليفوناته أهيّ ..

* * * * *

.. لم أذهب إلى المقاول بعد أن تركت خالد.. أي مقاول بعد شعوري بخراب ينخر في داخلي.. تفتق الناس وتشردوا وبدأ كل منهم يذهب بعيدا عن طريقه.. وماذا تفيد بناية فخمة وسط بيوت الفقراء.. ماذا يفيد برجا شاهقا وحوله عشش من صفيح.. إن بيوتا متساوية يجب أن تكون ولابد من مدينة جديدة تسع الجميع فيها أهلها لا يجوعون ولا يطردون من أعمالهم.. ولا بد للناس الذي يعيشون حالة خاصة مثلي أن ينتهوا..

.. هاتفت كامل جمعة في المحمول قبل أن أصل إليه:

- آلو كامل.. أنا صبري..

- صبري مين..

- نسيت بسرعة صبري المدير المالي..

- إزيك يا بيه معلش الدنيا واخداني..

- عايز أشوفك..

- إتفضل في أي وقت..

- أنا جايلك دلوقتي..

- أهلا هاكون سعيد تحت أمرك..

- العنوان عارفه.. ص .. شارع سراج نمرة ٩ الدور التالت شقة ٦..

- خلاص قبل ساعة هاكون عندك..

- أنا منتظرك والمدام سهرانة معايا عايزة تشوفك..

.. كانت زوجة كامل تعرف أن صبري رجل سوبر وأن امرأة جميلة أخذته من عياله ويعيش معها في بيتها وأنه رجل لا يقاوم.. فإذا رأته امرأة تمنت ورسمت عليه لتوقع به.. أخذت رأي زوجها في أن توقع بالرجل القادم فأجابها لا مانع إن لديه الكثير من المال وإذا أصبح أحد الزبائن فإن ذلك في حد ذاته نجاحا كبيرا.. وفي أثناء حديثهما عنه قرع الباب فأسرعت تفتح له بفستان عار الصدر شفاف يظهر كامل جسدها ودخل في أدب ووقف برهة بعد قفل الباب فتقدمته مهللّة.. أهلا أهلا.. فعلا باشا.. الباشا جه بيتنا يا نهار أبيض.. دا كتير علينا أوي.. تردّد في أن يتبعها وتلعثم وتوقف لحظة في الصالة.. كانت قد فتحت باب غرفة الصالون الضيقة وفي هذه اللحظة كان عبق العطر يفوح من تلك الغرفة كأن قنينة منه قد سالت في أرجائها.. وعملت كأنها تندهش.. ياه إنت مالك يا بيه.. هوّ حضرتك رقيق أوي كده مش داخل ورايا على طول أد كده إنت راجل متربّي.. كان صبري يبتسم وليس له من كلمات يرد بها غير.. أبدا.. مرسي أوي.. أبدا مرسي.. وأشارت إليه أن يقعد وقبل أن يجلس صافحته في حرارة ولوت كف يده في

كفّها.. وبسرعة أدخلته إلى شقتها.. وتركته وهو شبه منـــذهل وعلى باب إذا دقته رياح خفيفة انفتح وتخور قواه.. وجاءتـــه السيدة المثيرة وجلست قباله مبتهجة منفعلة مثـــارة فلاحقهـــا قائلا :

- جميلة رائعة من أين أتي بك كامل؟

- من قرية في بنها..

- ليست الجرأة شيمة أهل القري.. وهل في بنـــها مثـــيلا لك..

- كنت من القرية ولكن من أهلها المتفرنجين فلما كنت في تعليمي الثانوي بمدينة بنها كنت أهوى الـــسير في شـــوارعها خاصة شارع الكورنيش وكان كثير من الـــشباب والرجـــال يعاكسونني وسعدت لذلك كثيرا وصاحبت بعضهم وعرفـــت قصصهم وكانت هذه صفحة فيها كثير من الأسرار لا يعرفهـــا أحد..

- حتى كامل لا يعرفها..

- كامل من قريتنا.. وعندما رآني كنت أتمشى في ســـوق الخضار بها فتبعني حتى البيت وعرف من أبي وأمي.. ولم يعرف عني شيء عندما كنت ألهو في مرحلة الثانوي وبعدها عنـــدما سافرت إلى القاهرة لأتلقى تعليمي الجامعي كنت أذهب وأعود بالقطار وكانت لي تجاربي العميقة مع الكثيرين..

- المهم هذه عادة أهل القرى.. إذا تزوج من قريته فهو يأخذ فتاة سليمة لم تعرف من تجارب الحياة شيء ويظل الشاب يقول.. إنها من قريتي.. أخذتها من بيت أبيها.. هي صاغ سليم.

- عندما تزوجته لم يكن الرجل الوحيد أو الرجل الأول الذي أخلع أمامه ملابسي..ولكنه هو كعادة أهل الريف الذين يعتقدون دائما أو يحبوا أن يعتقدوا.. أن الفتاة من قريتهم.. غلبانة..ساذجة.. خجولة تخجل من أن تلقي على رجل التحية..

ودخل زوجها كامل يحمل الصينية بالبارد وفي كل برود قال وهو يضع البارد على المنضدة :

- بارد الأول.. إزيك يا أستاذنا واندفع نحوه وقبّله..

وكانت سامية قد وضعت ساقا على الأخرى غير مبالية بزوجها.. وكان فقط ينظر إليها ويبتسم في برود وكأنه يقول لها.. المزيد.. تعرّي أكثر.. فلوسه كتير أوي..هايبقه زبون جوّه سُقع..

.. قرأت ذلك من عينيه وكان يهز رأسه لها بمزيد من العري والدلع.. و لم يكن هناك وقت لأن يندهش صبري أويذهل وإذا عبّر عن ذلك فإنهما سيقابلانه باستهزاء.. الجو كله

على عينك يا تاجر.. هوّ مين صبرى أو أحسن منه مليون مرّة لما كنا في يوم وأيام كتيرة مش لاقيين اللقمة..

.. وراح صبرى يعتقد أنه قد وقع في مؤامرة خُطط لها.. ولكن كيف خُطط له في ساعة واحدة.. أم أن تلك هي مؤامرة مستمرة الفصول معي ومع غيري.. وكان عليه أن يتبين وأن يسأل ليضع أصابعه على الحقيقة فقال لكامل :

- إنت بتشغل فين دلوقتي..

- اشتغل بره وجوه..

- مش فاهم..

.. وتدخلت سامية في توضيح طبيعة العمل قائلة وهي تفصل ساقيها عن بعضهما كأن شيئا من الجد قد حلّ بها فجأة :

- أنا كنت باشتغل سكرتيرة في شركات القطاع الخاص.. وأنت عارف كل صاحب عمل في القطاع الخاص له طريقته مع السكرتيرة بالذات.. كنت لسه عندي شوية خجل وبرقع الحياء كان لسّه موجود.. قعدت سنة واتنين وخمسة و.. أنتقل من شركة لشركة علشان أهرب من مطاردة أصحاب الأعمال.. وهوّ المرتب باخده في الأخر بالدم والدموع.. وجوزي الغلبان زي أي راجل في البلد عايز يعيش ويستقر لكن

منين ييجي الاستقرار من أصحاب أعمال منتـــهى الـــسفالة.. برضه راح ينتقل من شركة لشركة.. فيه محاسب مايكملـــّش سنة في شركة.. كام شركة وكـــام طـــرد وكـــام بهدلـــة.. وسكتت..

فقال صبري وكأنه يهمس:

- وبعدين..عايشين إزاي دلوقتي..

- من الهوى..

- من الهواء..

- لأ مش من الهواء اللـــّي في الجو.. من الهوى هواي..يعني بالله عليك سنين طويلة وأيام سودة في البلد دي.. واحد يطردك وواحد يطاردك وواحد بيضربك من فوق وتاني بيضربك مـــن تحت.. يعني بقينا ملطشة.. تفتكر كامل يرّوح البلد يقول لأبوه هات فلوس علشان أعيش ولا أنا أروّح لأبويا وقولـــه عـــايزة فلوس علشان كامل مش قادر يعيشني.. تفتكر حد يعمل كده ولو حد عمل كده أبوه هايهزأه.. ثم أحنا في مصر مفـــيش أب يقدر يصرف على ابنه بعد ما يتجوّز وبعدين كـــل البيـــوت بتعلـــم أولادها بالعافية بعدها بيلفظوا النفس الأخير..المفروض بعد كده عمل شريف فيه استقرار.. عمل محترم يكفي الحيـــاة الكريمة.. لكن لمّا خلـــّصنا طلعنا لقينا واقع مؤلم بيتحكم فيـــه الوحوش والمنحطين.. طيّب قوللـــّي أنا وغيري نروح فين ولمين

لما البلد غابة ما فيهاش فرع أخضر للغلابة.. جامعات أد إيـــه ومعاهد خاصة أد إيه وعشرات الآلاف من الشباب بيتخــرّج ضحك على الدقون فين الحياة تعرف تقوللـّي فيـــه حاجـــة واحدة متوفرة في البلد عشان الناس تشتغل أوتعيش أو تستقر أو تبدأ حياتها..مافيش أي حاجة.. كله مدمّر..طيب نروح فين.. طيب نعمل إيه.. أيام كثيرة وشهور لدرجة إننا وصلنا للهاوية.. قلنا للهاوية سلام عليكم.. ردت علينا السلام والله الهاوية هيّ الحاجة الوحيدة في البلد اللـّي عبرتنا.. قلنا لها الله يرضـــى عليك عايزين نشتغل قالت يا مرحبة ما صدقناش.. قالت مش مصدقين أهلا بيكم.. وكان الهوى هواي..أصل الهوا هـــواي الوليد الوحيد للهاوية..

* * * * *

- يا لهوي على كلامك دا إنت وصلتينا إلى الهاوية واحنـــا لسة قاعدين.. لأ لأ.. بس الموضوع مش بالخطورة دي..

- طبعا واحد زيك كنت بتاخد أكتر من خمس تلاف جنيه مش ها تحس بكل الكلام ده.. وعلى ماأسمع وراك ست عندها أرض وبيوت..إنت واحد في المليون..

ضحك صبري وقال :

- هدّي هدّي .. ياست دا أناراجل اشتراكي..

- يعني إيه إشتراكي..

- يعني راجل مكافح أنصر الفقراء والمظلومين..

- إنت مكافح.. يا أستاذ صبرى معلش هوّ فيه حد مكافح يبني عمارة إحنا عارفين عنك كل حاجة إنت راجل محظوظ.. وبعدين هوّ المكافح مكافح بالشعارات والكلام شبعنا من الكلام ده.. طول عمرنا وسمعناه من ناس فوق أوي.. كانوا بيقولوا الكلام ده للناس علشان يخدعوهم ومن ناحية تانية عمّالين يسرقوا في البلد لّما خلصت..

- دا انت ثايرة أوي ..

- كل واحدة بتقلع هدومها علشان الفلوس بتقول كلام زي الدوا.. عايز تعالج المجتمع بصحيح روح شوف المومس المحترفة بقت مومس ليه.. شوف الناس انحرفت ليه ومن إيه ومين كان السبب والانحراف مش في النسوان بس.. شوف السرقة.. شوف النصب.. شوف القتل.. شوف الناس في بيوتها كويّس.. داالست لّما تبقة مومس أحسن من السارق والنصاب والقاتل.. دا الست لّما تقلع هدومها في الشهر مرّة لراجل علشان تأخذ منه قرشين تكمّل الشهر وعلشان ولادها ما يجوعوش هي أكثر حظا وكرامة عن الراجل اللّي مش لاقي شغل أو مراته بتضربه بالشبشب كل يوم علشان يجيب لها حاجات البيت..لأن الراجل الشريف أوي ده اللّي لاحس الكوتة لو كان عنده زي الست كان عملها.. كلم الراجل ده

المسكين الـــي ماعندوش أي حاجة يجيب منها قرش لو قلـــع هدومه ميت مرّة الناس هاتف عليه..

- يا لهوي ويا لهوي لغاية الصبح..

- ياأستاذ صبري إنت مش من الناس وراك حيطة كـــبيرة أوي سانداك..

- والله أنا عندي مصيبة مش عند حد..

- إيه هيّ المصيبة..

- مالكيش دعوة بيها لأنك مش ها تقدري تحليها..

- كيفك يا أستاذ صبري.. عايز منّي إيه تاني..

- عايز أعرف إنتو بتعملوا إيه بالضبط..

- إنت لسه مش عارف..

- لأ .. قولي.. فسّري..

- علشان إنت راجل فري هاقول:.. الحكاية من البدايـــة أحمد بالصدفة إتعرّف على واحدة منتقبة معاها ليسانس حقوق سنها تلاتة وتلاتين سنة مطلقة بعدما تجوزت واحد شيخ عقّدها من حياتها.. بعد الطلاق اشتغلت شوية في شركات برضه أبـــو الرمّاح ربع وراها..

- يعني إيه أبو الرمّاح ربع..

-

- إحنا نهايات المجتمع..

- إزاي ..

- يعني إحنا الضحايا..

- مش فاهم..

- يعني القتيل اتقتل خلاص..

- والحل إيه..

- الأبواب انفتحت للناس كلها.. إحنا كنا من سنين فاتت بنقول فوضي.. إحنا دلوقتي فوق الفوضى يعني ما فيش اسم تاني يفوق الفوضى لقد اجتزنا جميعا مرحلة الفوضى.. نحن نعيش الآن ما بعد الفوضى..

- نسميها غيبوبة..

- يا ريت.. الناس ماتت خلاص.. لو كنا في غيبوبة الناس هاتيجي في يوم وتصحي منها.. لكن دلوقتي والله الناس ماتت..

- والحل .

- لازم من ناس تانية تبدأ من جديد..

- يعني مش ها ترجع يا كامل..

- إسمع هارجع فين ولمين وعشان إيه.. هوّ الميت بيرجع.. يا أستاذ صبري أنا ميت ومت خلاص.. أحسن حاجة تعملها تترحم عليّ..

نزل إلى الشارع شاردا يحدّق في الناس ويكاد يلفظهم وكأن كل منهم عاد يعمل في بيته كما يعمل كامل جمعــة.. عينــاه شاخصتان وكأنه في داخل نفسه لا يجد شخصا طاهرا طالما أن الناس أصبحوا فقراء فإن هذه هي الخطوة التاليــة لأعمــالهم.. وكان جسدها الفاتن الذي انشق عنه فستانها قد ترك أثرا جامحا ولو قليلا في داخل نفسه.. يا لجسد المرأة عندما يكون صارخا وتعرّيه لرجل فإن كل النداءات تصرخ في داخلــه.. وعينــها الفاجرة تسرق من أي رجل ثباته فتسرى في العلاقات الإنسانية لغة الجسد فينقلب المجتمع واحدة بعد الأخرى إلى مجتمع حيواني وماذا تفعل النساء إذا كانت لغة العلاقات الإنسانية والمبــادىء والقيم لم تنفع ورفضها الجميع، وكان على النساء أن تقلــب الوجه الآخر وعليها أن تقضي حاجياها بالجسد.. إن المــال في بلاد يتعجرف فيها أصحابه ويجهلون كل معاني النبل والأصول والحقوق يتحول فيها المجتمع إلى سوق الجسد كي تعيش الأسر التي تحتاج إلى العمل.. وعاد إلى ماريا وفي رأسه هذا الــصوت كأن إعصارا سقط فوقه فراح يصرخ حتى وصــل إلى البيــت ودرجة حرارته تعلو وجسده يرتعش، ارتمى في الفراش وهلعت إليه ماريا وأمها تغطيانه بغطاء ثقيل وراحت كل منهما تعمل له شيئا يهدّئ من حرارته.. ولم ينفع الشاي والليمون أو حبــوب تخفيض الحرارة أو الكمادات بالثلج فهاتفت ماريانــا الطبيــب

الذي وصلهم بعد نيف ساعة وأجرى الكشف بدقة على رأسه وصدره وكامل جسده.. ولّما انصرف الطبيب كانت ماريانــا تنصرف هي الأخرى لأقرب صيدلية لتحضر الدواء لحبيبـــها.. ولّما تناول من يدها الحنون جرعات من العلاج مرّ بعض الوقت وهو يرتعش بعدها توقف الجسد عن الرجفـــة وبـــدأ يـــستقر وغمضت عيناه و(اندلش) بعدها في نوم عميق يصحبه عـــرق غزير.. وراحت السيدة الكبيرة تدعو لشفائه ونامت ماريانــا بجواره حتى بزغ نور صباح اليوم التالي.. واستطاعت ماريانا أن تناوله رغيف من الفينو محشوا بالجبن وتفاحة ثم كوبا من عصير الليمون.. وثقلت رأسه ونام ثانية وهو يمسك بكـــف يـــدها ويقبله حتى أقبل الظهر وتقلب في فراشه كثيرا وهـــو يغـــط في نومه وراح يهذي بكلمات..

- لأ يا كامل إرجع امك ها تضربك بالشمارعيب يا كامل مش هيّ دي عادتنا..

- هات عربية فول واعمل زي خالد..

- عيب يا كامل تهون مراتك عليك ..

- هوّ فين دينك يا كامل.. كل جبنة وفجل وبلاش الجاتوه اللــي جاي من (السوخة)..

- بلاش يا كامل عيش زي ولاد البلد.. خليك غلبـــان.. الغلب (بالشرف) حلو أوي يا كامل جرّبه.. بـــلاش مراتـــك

تتعرى كده يا كامل أدام الناس.. بلاش يا كامل.. الحتة دي جبتها منين بقه الحلاوة دي كلها من بنها..داريها يا كامل.. أرجوك بلاش فتنة مراتك يا كامل بالشكل اللّي شفته لأنها بكده ها توقّع أجدع راجل.. بلاش يا كامل.. إتق الفتنة يا كامل سامعني هاتروحوا في داهية وتودوا الناس معاكم..

وراحت كل من ماريانا وأمها تضحكان حتى سمعتا بلاش فتنة مراتك.. وشافها كمان يا نهار أسود يا صبري سكتت كل منهما وانصرفت الأم إلى الداخل.. وكانت تريد أن توقظه بعنف ليخضع لتحقيقها كيف رأى فتنة امرأة أخرى.. أين ذهب ومن هو كامل وزوجته وماذا كان يعمل..نهارك إسود معايا يا صبري.. وراحت تأكل في نفسها وهي تساعد أمها في أعمال المترل وما كان من السيدة الكبيرة غير أن كانت تهدأها وإنه في أضغاث أحلام وإنها الحمي يا ابنتي تجعل المريض يهذي.. اهدئي يا ماريا حتى يتعافى لا تظلميه.. لا تظلميه..

* * * * *

.. وفي تلك الليلة جرجر كل ما يعانيه في الفترة الماضية وكانت ماريانا حريصة على سماع كل كلمة يهذي بها لكنه لم يكرر كلماته عن فتنة زوجة كامل وارتاحت قليلا لذلك كأنه شيء عابر زحف على لسانه وتمنت ألا يكون فيه شيء من الحقيقة ولا توجد امرأة في الأصل ومرّ يومان فيها عفي صبري

ولّما أفاق ورأته بكامل تصرفاته العادية وخلا منه ضعف المرض.. تناول ثلاثتهم طعام الغداء وبعده انصرفت السيدة الكبيرة لتنام وجلست ماريا مع صبري يحتسيان الشاي قرب الشرفة وقالت متظاهرة بالهدوء :

- لقد كنت تتكلم كلاما غريبا..

- متى ..

- وأنت في شدة مرضك..

- كلام غريب ..

- نعم كنت تكلّم رجلا يُدعي كامل وامرأة..

- كامل وامرأة.. أه دعيني أتذكر.. سكت برهة وتابع :

- كامل هذا كان محاسبا قديما معنا في سنتر الخواجة..

- من هي زوجته.. كنت تقول.. عيب يا كامل تهون عليك مراتك.. بلاش مراتك تتعري يا كامل.. بلاش فتنة بالشكل اللي شفته.. ها تروحوا في داهية وتودّو الناس معاكم.. كل هذا وأمي سمعت معي وكنا نضحك..

- عندما تركت المترل في هذا اليوم رأيت العجب.. خالد المحاسب يبيع الفول وكامل يبيع زوجته وفتح بيته كرخانة.. وراحت تسمعه..

وحكى لها كل شيء وتركت كل ما في الحكايات من مأس إنسانية والهيار في مجتمع تعرض فيه مجموعة من العاملين لفصل

تعسفي فذهب كل منهم إلى نهاية أمره وأمسكت في إمرأته الفاتنة وكيف يجلس معها ويتفرّج علي جسدها وأنه ما كان ينبغي له أن يذهب من الأساس.. وانفعلت وراحت تبكي.. وانتوى صبري بعد ذلك أن لا يحكي لها عن المآسي خاصة مع النساء.. وختمت بكائها الطويل على هذا الموقف وكأنها توقظه:

- عندي كل شيء.. وكل شيء نملكه ملك لك.. وابني القادم هو إبنك.. فكيف تتوه.. ولماذا تذهب مع الآخرين في حياتهم، وما لنا نحن بخالد أو كامل أو زيد.. علينا أنفسنا.. وأنت في الطريق إلى أي رجل سوف تجد امرأة.. ابعد عن كل النساء أرجوك وعن حديثهم وعن مآسيهم.. إنك لم تأت لتعالج مشاكل الناس.. وإننا لن نستفيد شيئا من معالجة أو سماع أو ذهابنا إلى بيوتهم إننا في نهاية الأمر لن نثنيهم فيما اتخذوه من طريق.. هذه سامية داعرة ولو لم يكن عندها الاستعداد لأن تدخل هذا الطريق لدخلت كأي امرأة سوية في طرق أخرى شريفة وكثير من النساء في المجتمع يتعرضن لأكثر من هذا ومع ذلك يدخلن في أعمال كثيرة قد صنعها هذا المجتمع بعيدا عن هذا الخطر الذي دخلت فيه هذه السافلة.. وهذا زوجها إنه ليس برجل حتى يرضى لزوجته وبيته هذا الدنس.. وسكتت لتسمعه فقال وهو يهز رأسه :

- كل ما قلتيه سليم وما كان يجب وما كان يجب.. هذا كله صحيح.. ولكن أنت تأتي للضعفاء الذين لا يملكون شيئا

وتقولين لهم ما كان يجب.. إنه يجب علينا أن نذهب لمن يملكون المال ونقول لهم ما كان يجب أن تطردوا الناس من أعمالهم بدون وجه حق وما كان يجب أن تربعوا وتطاردوا النساء والفتيات اللائي يعملن في مصانعكم وشركاتكم وتساوموهن بالعمل مقابل التنازل عن الشرف.. ما كان يجب تقال للقوى قبل الضعيف..

- وإذا كان القوي لايسمع وليس في رأسه إلا الطغيان والجبروت.. فإذا قلت لأي صاحب عمل المفروض أن يكون كذا وكذا.. يقول لك في كبرياء.. المفروض ده أنا اللّي أقوله مش إنت.. ولا يسمع ولا يطيع ويزداد في فرماناته ضد العاملين عنده سوءاً يوما بعد الأخر..

- إذا نحن لا نملك إلا الجانب الضعيف..

- وعليه فأنت بدلا من أن تذهب إلى مقاول البياض- ذهبت إلى خالد وإلى كامل وإلى زوجته ..

- ألم تقولي في يوم إن دورنا يجب أن ينصب على تشغيل الفقراء والمطرودين من أعمالهم وحماية كل صاحب مهنة أو حرفة في هذا المجتمع.. هذه البناية التي إنتصبت شاهقة أليس فيها ستكون شركتك وأعمالك إلى من تذهبين ليكونوا عمالا وموظفين.. أكيد ستذهبي إلى كل من فصل فصلا تعسفيا وسوف تتحولين في كل مكان لتأتين بكل صاحب مهنة أو حرفة ليكون له عمل.. أليست هذه مبادئك واتفقت معك عليها..

- صحيح صحيح.. وراحت تضرب ذقنها بقبضة يـــدها.. ولكن

- ولكن.. سوف أجيبك أنا يا حبيبتي..

..وقام إليها واحتضنها وراح يقبّل يدها وجبينها ويقول :

- سوف أكمل البحث عن كل الذين تفرقـــوا وتـــدمروا نتيجة الأعمال والتصرفات المشينة لأصحاب الأعمال ســـوف أبذل قصارى جهدي للم شمل مجتمعي قدر ما استطعت ولـــن يمكنني مساعدة هؤلاء الناس إلا إذا عرفتهم واقتربـــت منـــهم ووعيت بمشاكلهم.. سوف أفعل كل هذا برضاك ولكن لـــيس لي شأن بأي امرأة وإذا وجدت في طريقي امرأة عارية الساقين فسوف أفر من أمامها وأجرى من أجل خـــاطرك.. وفي كـــل الأحوال بقي أنني وفيّ وأمين معك.. قولي يا ماريانا.. هل هناك امرأة أجمل منك في المدينة حتى أنظر إلى أي امرأة فيها.. إنهـــن جميعا وضيعات عند الملكة ماريانا..

.. وضعت رأسها بين كفيه وشدته إليها وقالت وكأنها تعيد إلى نفسيها الاطمئنان :

- صحيح يا صبري.. أنا كل حاجة..

- والله كل حاجة.. أنا لماريانا الملكة وبس..

وحملها إلى الفراش وهو يقهقه وشدته إليها في رقـــة بالغـــة وقالت :

- لا تتركني اليوم أنا في حاجة ماسة إليك.. لا تتركني أبدا

واحتضنت بكفيها كتفيه وألقت برأسها فوق صدره..

* * * * *

.. وكان عليه أن يذهب إلى أحد مقاولي البياض ليتفق معه بعد أن جاءه المقاول في يوم وتجوّل في البناء ليرى الواقع وكان يصحبه رجلان يقومان بعمل القياسات لتجميع مساحة العمارة بأكملها.. أنفق قرابة اليوم حتى تم الاتفاق على كل شيء على أن يبدأ المقاول عمله قبل مضي أسبوع .. استراح في بيت ماريانا حتى بلغ الوقت آذان العشاء، احتسى معها الشاي ثم صلّيا معا بعدها خرج قاصدا خالد بائع الفول الذي يقف بعربته بعد شارعين من البيت، وكانت هي تعرف أنه ذاهب إليه ليساعده في تجميع أعداد من الناس مؤهلات وبدون وأصحاب مهن وحرف في صناعة الملابس وذلك للإعداد لعمل مقابلات بعد الانتهاء من المبنى وشراء الماكينات ومواد الخام اللازمة، وكان حي الأميرية الذي يسكن فيه خالد مليء بمثل هؤلاء الناس وكان قد اتفق مع خالد من قبل بأن يأتيه بشخص متخصص في أعمال الإعداد والترتيبات الخاصة بإنشاء مصنع للملابس الجاهزة، وفي هذه الليلة زوّده خالد بكشوفات فيها أسماء للعاملين والعاملات والأسطوات الذين يعملون في خطوط

الإنتاج المختلفة وعناوينهم وهواتفهم.. ولم يثن إنشغال صبري بهذه الأمور دون أن يسأل خالد وهما جالسان بالمقهي عن بقية أعمال الأولاد والبنات الذين كانوا يعملون في سنتر الخواجة وتم طردهم على دفعات بعد طرد المحاسبين وكان جواب خالد :

- يا أستاذ صبري سوف آتيك بكل هذه الأسماء وعناوينهم حتى يتم مساعدتها وتشغيلها في مصنعكم..

- هذا أمر مفروغ منه ولكن ما أريد أن أبلغه في سؤالي.. هل هناك أحد من الرجال والفتيات سلك سلوكيات أخرى مثل كامل جمعة..

- هناك الكثيرين.. ولكن سوف أحكي لك عن سميرة التي كانت تعمل رئيسة أحد أقسام البيع في السنتر..

- ذكرّني بها.. هل رأيتها :

- نعم رأيتها وهي تعرفك..

- إعطني هاتفها..

- إسمع حكايتها أولا باختصار ..

- ماذا حدث لها..

- وهي تعمل معنا في السنتر كانت مخطوبة.. ظلّت مخطوبة لسنوات طويلة دون إنجاز وكانت هي وخطيبها

يكافحان معا من أجل توفير الشقة.. هذه البنت بعد طردها من سنتر الخواجة انتهت خطوبتها مع خطيبها في موقف مؤثر لأنه كان يعني تدمير قصة حب دامت سنين مع هذا الشاب المكافح.. هي التي أخذت القرار بعد فصلها من العمل وشعورها باليأس وأن طريق الحلال صعب وطويل وقد يحصلان على الشقة وهما في سن الأربعين.. شوف يا أستاذ صبري حكايتها طويلة من الأفضل إذهب إليها أنت.. إسمع منها أنت ربما تساعدها خذ هاتفها المحمول.

* * * * *

.. عاد إلى بيته هذه الليلة وهو يحمل في رأسه كثيرا من الأفكار والهموم.. كان يشعر برجفة أخرى تنتابه.. حاول أن يظهر أمام ماريانا بالقوة وأن ينسى تلك الرجفة وذلك التوتر الذي يحلق به جراء كل حكاية.. حكي لزوجته كل شيء وأطلعها على الكشوف التي أخذها من خالد وأنه سوف يأتيه بكشوف أخرى، وفي صباح اليوم التالي نزل من بيته قاصدا مقهي قرب جسر السويس ليجلس منفردا بنفسه ليحدّثها.. ولما راح يحتسي الشاي ويزفر أنفاس الشيشة بدأت أفكاره تترتب في داخله ضرب رقم سميرة لتكون أول الحكاية :

- آلوا ..

- مين معايا ؟

- أنا صبري ..

- صبري من ..

- إفتكري سنتر الخواجة.. إرجعي شوية لـــورا.. صــــبري المدير المالي..

- أيوه أيوه أهلا بيك والله سألت عليك ناس كـــتير أوي.. إنت فين ..

- سعيد إني باسمع صوتك عايز أشوفك..

- وأنا والله.. بس فيه حاجة مهمة..

- طبعا الحاجة المهمة إني أشوفك..

- طيب .. دي نمرتك..

- أيوه ..

- سيبني أرتب أموري وهاكلّمك ..

- إمتى..

- النهاردة بالليل أو بكره زي دلوقتي..

- خلاص اتفقنا ..

- باي .

* * * * *

٧

كان الموعد في الثالثة عصر اليوم التالي في القاعة الداخلية لمحل جروبي بروكسي، جلس ينتظرها وأيقن وهو يتأمل تلك القاعة تأكد أن عصورا مضت منذ أكثر من نصف قرن وكانت أحداثها تدور خلف السور العالي الذي يقع أمام جروبي و لم يتغير شيء في الناس فالحاجة كما هي والنساء هن النساء والرجال كذلك.. ولكن لّما كنت طفلا لم أكن أدري بالطغيان ولّما بلغت بي الأيام صبيا كنت أهتف لرجال كما علّمونا في مدارس الجهل والظلام وبعد أن كبرت أيقنت أننا كنا في ضلال.. التاريخ مزيّف ولا يمكن أن يكون التاريخ كلام أو لرجل يحمل بندقية أو لحزب يرفع شعارات.. التاريخ ليس بأوامر العسكر أو للسجون أو للمعتقلات إنهم يكتبون تاريخا أسودا مثل دخان حريق أحرقوا البلاد فيها.. وجعلونا نحن جميعا أنا وكامل وخالد وسامية وسميرة التي ستأتي وغيرها في كل درب وبيت وحارة وزقاق جعلونا جميعا حتى نبلغ لقمة عيش أن نتخلّي عن كل شيء نبيل حتى خلعنا ملابسنا.. إننا جميعا الآن نخلع ملابسنا حتى نبلغ بلغة عيش وكثير منا يخلع ولا يبلغ.. فلا يفيد خلع الرجال لأنه بلا ثمن ولكن خلع النساء بثمن.. أخ عربي قال لي.. الواحد يترل مصر بالجنيه يعمل

اللـّي عايزه في أجدع واحدة.. بلدكم كلها امرأة شــر.. ..
هذا العربي لم يكن يستطيع قبل عام ١٩٥٢ أن يقول مثل هــذا الكلام كانت مصر سيدتهم جميعا.. نحن نسمع هذا الكلام علنا ولا نتكلم ولا نستطيع أن نرد عليهم لأن لقمتنا عندهم.. إننــا نبتسم ونرضخ.. نحن الآن خدم وعبيد.. أي عــصور مــضت رذيلة ومهينة وحقيرة خطّها من هتفنا لهم ونحن صغار لم يقدموا لنا غير الذل والهوان ونحن الآن نخلع لنأكل.. وشعرت بأن هذه القاعة العريقة في بنائها ما زالت شاهقة وأن الذي بناها مهندس كان مرفوع الرأس أيام كان أمثال طلعت حــرب يمــشي في شوارع بلادنا..

.. أقبلت سميرة عليه وكأن جسرا من النساء الفاتنات يمتد نحوه.. أين العباءة وغطاء الرأس وحمرة الخجل.. الكم الطويــل والحذاء الحافي والحاجب الثقيل.. كل هذا تبدّل ولباسنا الــذي كان لففناه في قفة البلد وأرسلناها إلى البلد لترتديها أي نبويــة أوشلبية أو نوارة إنها زكاة عن صحة من خلفــني في المدينــة ليتحدوا بها خرائب فتحت أبوابها من زمن.. كنا نسمع الأبواب تنغلق في أول المساء على أهلها لمّا كانوا يشبعون مــن قمــح البلد.. والآن فتحت الأبواب ولن تنغلــق إن أهلــها جميعــا هجروها من أجل أن يحصلوا على حبة قمح لم تزرعها يــد في البلد..اختلط الحلم الذي كان قديما باليقظة التي حملتــها إليــه سميرة و لم نعد قادرين حتى على الحلم.. وكانــت سمــيرة أول

اليقظة بعد الحلم لصبري.. وشعر بأنه رجل خائب وأن ذكرياته خائبة مثله وأنه رجل عاجز لا يستطيع مجاراة الزمن الحديث.. جلست إلى جواره بعد أن رحبّ بها وصافحها بحرارة وبادرته بقبلة رقيقة على ثغره فنسى الكثير من الحلم وقال في نفسه باين عليّ سبهللة زي كل الرجالة.. يا نهار اسود على رقة البنت وطراوتها... وقدّم الجارسون ما لذّ وطاب من قطع الجاتوه والشاي و .. وقال لها صبري في رقة:

- كم أنت رقيقة وجميلة وعذبة..

- أنا سعيدة أوي بكلامك..

- مش مصدّق إنك سميرة اللي لابسة عباية ومدّارية أوي وأنت في السنتر.. كنت محافظة أوي وما كنش حد شايفك..

- ده كله ما نفعش.. أصلي زي أي بنت عايزة تعيش وتداري ويبقى ليها جوز وأولاد.. لكن قول لي بالله عليك نعمل إيه صبرنا كتير في سكة الحلال لأنها أصلا بتاعتنا لكن الناس ما رضيتش نبقى كويسين.. الخواجة ما عجبوش كلمة حق ومشّانا من عزبته رحت عند الحاج برضه عايز ومنعته بكل الطرق وما فيش فايدة.. يعني أسيبه يعمل اللي عايزه مقابل إني باشتغل عنده. يعني عشان أستمر أخلع له وده حاج.. كل الحجاج كده وأكثر منهم بتوع الدقون.. طيب أروح فين.. فسخت الخطبة وقلت ما بدّهاش أشتغل حرّة نفسي أحسن

ألف مرة زي مانا عايزة وبلاش أدّي كل واحد لفة.. هيّ دي البلد وهمّ دول الحجاج اللـّي معاهم فلوس وهمّ دول إخوانا الخواجات.. هيّ دي القضية والله قضية كل بنت وقضية كـل ست بعد كده كل واحد بياخد طريقه..

- على فكرة اللـّي بتقوليه بيقولوا كل العاملين والعاملات وفيه ناس كتيرة بتتحمّل وماشية وفتيات وستات بيمشّوا حالهم مع أصحاب العمل وفيه رجالة بتنضرب بالشلوت من صاحب الشغل ومع ذلك مستحملة علشان تعيش..

- بس أنا ما عنديش حاجة اسمها أمشي حالي طالما نخّيـت لصاحب الشركة ورضيت ومشّيت حالى يبقة في عرف الحرام المرتب اللـّي باخده هايبقة حرام، إذا ده مقابل رخيص يعـني خليها بقة حرام في حرام وفي السكة اللـّي اخترتها يبقة حرام له تمن وعلى فكرة أنا دلوقتي عايشة عندي عربتي وشقتي وأبويا واخواتي عايشين أحسن عيشة خلاص أنا رفعت سـكينتي زي كل واحد في البلد رافع، ما هو مجتمع زي ده فوضى بقة علىٰ الستات ترفع رجليها علشان تعيش..

- وعلى فكرة أكتر من واحد وواحدة قالـت لي حكايـة الرفع دي..

- إنت عارف الحاج اللـّي طاردني لمّا كنـت باشـتغل عنده..

- أيوه راح فين ..

- جبته.. مش قلت أنا بقيت سيدة نفسي.. في يوم هاتفته وعرّفته بنفسي وفكرته إني سميرة اللـــّي كانت عنده وأنا تحت أمره لو كان عايزني..

- عمل إيه ..

- فرح أوي وقال أتمني.. قلت الله فيزتي عالية أوي.. قـــال أأمري.. قلت له ألف جنيه قال تحت أمرك..

- وبعدين..

- رحت له شقة واخدها في حي جديد عامل فيها بار للّي عايز يشرب.. وبعد ما اتبسط معايا قلت له إنت مش عاتق حد في المصنع ولا برّه وإزاي بتروح تحج كل سنة.. تعرف قال لي إيه ..

- قال إيه ..

- شوف التفاهة اللـــّي الناس عايشة فيها في البلد.. قال إن كل حجة بتغسل الذنوب اللـــّي بين الحجة والحجة.. شـــوف خيبة الحجاج.. طبعا مش كل الحجاج.. ولكـــن آدي نوعيـــة ناس في البلد..

- وهوّ فيه حد بيحج كل سنة..

- كتير إنت عارف دا بيحج بكام كل سنة بستين ألف جنيه والناس عنده في المصنع مش لاقية تاكل ولا حد واخد حقه..

- يا نهار إسود على الناس..

- يا أستاذ صبري إنت مش مننا ما عشتش اللّي احنا عشناه.. إنت بس حبيب الناس.. إنت نوعية غريبة في مجتمعنا لا إنت فوق ولا إنت تحت.. إنت مين مش عارفة..

- أبدا أنا منكم أنا من تحت ولكن خدمتني الظروف والحظ.. بعيش بكل قلبي مع الناس الغلابة وبكل عقلي مع الناس اللّي فوق..

- اللّي فوق اللّي نخنحوا البلد.. بس إنت ما خدتش قروض ولا نهبت أرض ولا نصبت..

- وللأسف مش عارف أعمل حاجة للناس الغلابة.. لسه هاعمل..

- عارفة ها تعمل إيه كل الناس عارفه أخبارك إنت بتعمل إيه علشان الناس بتحبك.. عملت عمارة في أرض ماريانا وها تعمل مصنع ملابس جاهزة وباقي المبنى أدوار للبيع.. كتّر خيرك وخيرها ها تعملوا اللّي ها تقدرو عليه.. لكن هاتلمو كام

واحد غلبان ألف واحد.. إنت عارف البلد فيها كام غلبان ستين مليون غلبان وبيزيدوا يوم بعد يوم

وتنهد صبري وتعجّب كيف للناس عرفوا بأخباره إننا لا نختلط بأحد.. هل هناك عصافير في الجو.. وهزّ رأسه وابتسم وقال:

- علشان كده أنا عايزك تشتغلي معانا وتسيبك من الكلام ده وترجعي تلبسي العباية تاني..

- هاتديني كام..

- ألفين ..

- في الشهر

- أيوه ..

- أنا باعمل ألفين في اليوم وعندي يومين أجازة في الأسبوع .. دا غير الحظ لمّا يضرب والصدف الجميلة اللّي بتحصل معايا..

- سيبك من الكلام ده تعالي معايا دلوقتي شوف السنتر الجميل اللّي عملناه..

- مش ها تقدر تميّل دماغي..

- يمكن آخد رأيك في حاجة..

- كان زمان لمّا كنت جربوعة عبدة عنـد اللـي ما يسووش

- ها تبقى مديرة المصنع..

- ولا مديرة السنتر كله..

- دا الأمور فلتت معاك أوي..

- المجتمع كله فلت..

- الشغل اللـي إنت فيه عمره قصيّر ..

- أنا عاملة حسابي أوي.. عارفة إن عمري بالكتير عـشر سنين وبعد كده ما حدّش ها يعبّرني.. ساعتها هاكون عنـدي فلوس وأرض وكل حاجة مش هاكون محتاجة لأي شغل..

- وربنا .. ها تخسري دنيا وآخرة..

- ساعتها هاروح أحج علشان ذنوبي كلها تتمـسح زي الحاج..

- إنت نفسك ما عجبكيش طريقته وأفكاره الخايبة..

- زي الناس ها أعمل..

- المجتمع لسّه فيه ناس كويسين تعالي نكافح معاهم ونبقـة مناضلين ونكسب ثواب..

- مجتمع.. مجتمع إيه هوّ المجتمع عمل لي إيه لمّا كنت مـش لاقية آكل أنا وأخواتي كان منظرنا يصعب على الكافر.. مجتمع

صامت حزين ما تعرفش من غلبه ســاكت ولا صــابر ولا في غيبوبة مجتمع مذلول بيحب الذل ويموت فيه وكل واحد بيذل التاني، لّما كنت غلبانة باشحت اشتغل عند الناس كنت بحس إن الناس كلها بتراقبني ولّما كنت بشوف الكلاب الــضالة ماليــة الشوارع كنت بعّيط أوي لأني كنت بحــس إني بقيــت زي الكلاب، على فكرة على أد الناس ما هي مظلومة على أد مــا هيّ ظالمة..

- غريبة إنتي بتقولي كلام جامد أوى دا إنت عشتي مكبوتة كتير أوى..

- خد عندك رغم فقر الرجالة شوف تحرّشاتهم بالستات.. شوف النكت السياسية مين بيألفها وكلــها علــى الوجــع.. الخوف والجوع والعرى والحاجة بتنتشر بشكل رهيب تحس إن الناس من الذل اللّي بتعيشه بنت سور تحــت الأرض مــدّاري لأنهم خايفين سور من الفقر والكبت وعقد الــنقص وشــدة انتقامهم من اللــّي ظلمهم.. سور خطير مدّاري مــا حــدّش شايفه هاييجي يوم ها يقع.. إنت عارف لّما يقع ها يقع علــى مين.. وسكتت وحدّقت في عينيه بشيء من التحدّي ..

- على مين ها يقع..

- عليّ وعليك وعلى الحاج والخواجة والعــسكري أبــو بندقية على الناس كلها.. ها يهد كله..

- هو إنت جاية تتكلمي عن الناس والمجتمع وإنت مالــك ومال كل الناس.. بصراحة أنت مليانة غل وحقد على المجتمـــع كله..

- للأسف فهمتني غلط أنا واحدة من النـــاس دي كلـــها حسّيت بكل حاجة مع الناس.. لّما كنت غلبانة عـــشت مـــع الغلب والغلابة ودلوقتي أنا عايشة بين الناس المفترية لّما الحـــاج وغيره يدفع لي ألف جنيه علشان فرجه والتاني والتالت.. إنـــت عارف الفلوس اللّي بيعربد بيها الناس دي جاية منين مـــن دم الناس.. يعني لّما واحد شاب أو متجوز يشتغل عند سي الحـــاج أو سي الخواجة من الساعة عشرة الصبح لغاية عـــشرة باللبـــل بملاليم هايبقة إيه فاضل له في الحياة إذا كان مرتبه ما بيقضيش أي حاجة من ضروريات الحياة..

- عايزة تقولي مجتمع جديد بناه الظّلمة..

- أكتر من السخرة.. مين يخلّـــصنا من كل ده.. وعلشان كده أنا خلّصت نفسي بطريقتي..

- على فكرة ما تزعليش يا سميرة إنت دماغك ضربت على الآخر..

- إذا كنت بتكلم غلط تبقه دماغي ضربت.. وعلى فكرة أنا عايزة أتكلّم معاك تاني إنت عارف ليه علـــشان بتـــسمعني كويس أوي وبتعرف تستفزني ولّما بابلبع بارتاح..

- خلاص أشوفك تاني وتالت..

- أكيد.. أنا كده إتأخرت عن ميعادي..

- إلغي الميعاد..

- دا زبون سقع.. هات ألف جنيه وألغيه..

- على العموم أنا موجود ويمكن ربنا يهديكي..

- كتّر خيرك.. إديني رقمك تاني وأنت مش عايز حاجة..

- حاجة زي إيه..

- زي الحاج..

- كفاية عليك حجّاجك..

.. وانصرفت سميرة مسرعة ودخلت شارع جانبي وركبت سيارتها التيوتا وانطلقت بها تجاه شارع الخليفة المأمون..

* * * * *

ولو وضعنا في ميزان حزني على المجتمع وفي الكفة الأخرى حزني على ولدى الطفل البريء المعتقل لكانت كفة حزني على المجتمع أشد وأعتى ولم أكن أبكي من حزني على المجتمع وكنت أبكي من حزني على ولدي.. أبكي بحرقة شديدة بيني وبين نفسي بعيدا عن ماريا وبعيدا عن أولادي وكنت أتصنع القسوة

والحسارة.. ولأنني كنت أسعى في حب الدنيا لإشباع البطن والفرج وكانت حياتي مليئة بحي لماريانا وحبها الكبير لي فعندما تخلع ملابسها في الفراش أنسى الدنيا وما فيها.. ولأنني إنسان حقير كمعظم الناس أقسم لكم أنني كنت أنسى ولدي عندما أضم جسدها الفاتن إلى جسدي.. وتساءلت بيني وبين نفسي كثيرا من أنا.. وحتى الآن لا أعرف من أكون.. إنني أشعر أنني من عجينة غريبة تشكلت من كل عجائن هذا المجتمع ولذلك أجدني دائما حائرا لا أعرف من أي طبقة أكون.. ولن أنسى في يوم عندما تشاجر أحد أقاربي مع قريب آخر على شبر من الأرض كان يريده هذا القريب ليبني طبقة من الأسمنت تحمي جدران بيته من مياه الري التي تجري حول بيته.. واندهشت يوما من حب الفلاح في بلادنا لشبر من الأرض وليس مهما أن يقع جدار بيت قريبه.. كان حبا للأرض قريبا من الكفر.. ولقد كان قريبي هذا الذي يريد أن يحمي جدار بيته الذي بناه وسط المياه.. كان قريبي هذا جلاّب للمشاكل ومشاكس مع كل جيرانه وكان الجميع يكرهونه وكان إخوته يتجنبوه لقسوته.. ولّما فكرت قليلا في هذا الشقي الذي يعيش طيلة عمره في مشاكل مع نفسه ومع الجيران ومع إخوته.. علمت أنه كان غير بار بأمه وعلمت السر في أنه يعيش حياته بالليل والنهار كأنه يتقلّب على جمر النار..

.. خرجت من هذه البيئة الكريهة بلا عودة ولو أعطوني في بلدي فدانا من الأرض مجانا لتركته وعليه كانت هجرتي من قريتي إلى المدينة هجرة أبدية هجرة لها أسبابها العميقة ومهما وجدت في المدينة من شقاء فإنني أحب المدينة ولأنني كنت بارا بأمي وأبي جمّل الله حياتي وأكرمني بامرأة مثل ماريانا ومصيبتي في هذه المدينة الآن هو كيف أخرج ولدي من معتقله.. ربما أكون وفي غمرة أحداث الحياة حولي أنني كم فرحت بحمل ماريانا وكانت سعادتها بذلك تفوق الوصف ولكنهما كانتا من شدة رقتهما وأدبهما معي كنّ يخفين شدة فرحتهما على الحمل وذلك مراعاة لحزني على ولدي.. وحتى لا أقول في نفسي أنهما يفرحان بولد قادم لهما أما أنا فحزين على ولدي.. ولكنني والله كم دعوتهما كثيرا بأن يفرحا ويظهرا فرحتما لأن هذا ولدي وهذا ولدي.. وكانتا قد علمتا بواسطة الجهاز بعد أن مرّت عدة شهور أن القادم ولد.. وكلما دخلت ماريانا في حملها كلما اقتربت السيدة الكبيرة من منح الفقراء والمساكين نقودا بكثير من الكرم، وزارت كل من المسجد والكنيسة لتجزل المحتاجين هناك من كرمها بواسطة المسئول عن ذلك في داري العبادة.. وكانت تدعو دائما في صلاتها في أن يمنح الله السلامة لابنتها وأن تنجب مولودها بكامل صحة وعافية.. ومرّت الأيام والشهور حتى عادت ماريانا ملازمة للبيت ولسريرها تتوجع وتتألم ثم تحلم باقتراب الوضع وكم سيضيف هذا المولود بهجة وسعادة ووجودا جميلا لحياتها.. وفي يوم قالت لصبرى :

- كن قريبا مني وأكثر من حنانك وعـضدك لي إنـني في حاجة شديدة إليك هذه الأيام بالذات.. لا تبتعد ولا تنـشغل بأشياء أخرى وكن بجانبي دائما..

فيقول لها دائما بعد كل رجاء منها :

- لن أغادر غرفتك أبدا حتى تملـّي وجودي..

- دع يدك على بطني في رفق وداعب ولدك إنه يتحـرك كثيرا ويسأل عنك..

.. وكان يفعل لها كلمّا طلبت منه شيئا مثل هذا.. وكـان يندهش لشدة رقتها وأنه لم يفعل ذلك مع زوجته أم محمود من قبل.. حيث كانت تقول له.. إبعد عني.. ما تجيش جنبي.. أنـا زهقانة.. وتأكد بأن أم محمود كانت امرأة غشيمة تخلو من كل رقة أو هكذا حال بعض النساء أو كثير منهن في أيام الحمـل الأخيرة.. وأن قليلا من النساء مثل ماريانـا البديعـة في كـل شيء.. وتذكرّ أمه التي كانت تقول لأبيه مثل أم محمود.. غـير أن ماريانا من شدة غيرتها عليه قالت له في يوم وهو يتحـسس طفله في بطنها:

- هل تتذكر عندما كنت تقول لي أن جسدك مثل عـود القصب..

- وما زال يا حبيبتي..

- لا يا صبري.. أنت هنا تكذب.. لقد أصبحت مثل شجرة الجميز أو كبطيخة..

- لا أبدا.. أنت في نظري دائما عود قصب.

- أنت بكّاش يا صبري.. أنت مجامل.. ولكن ما يهمني ألا تنظر إلى غيري من النساء والفتيات.. في هذه الفترة.. إنني بعد الحمل سأعود لك كما كنت أحلي من عود القصب..

- يكفيني حبك لي .. وغيرتك ورقتك أنت فعلا امرأة بديعة في كل الأوقات.. ليت كل نساء مصر يفعلون مثلك..

- لا أعتقد.. إن رقتي وغيرتي وحبي لك لأنك كنت الرجل الذي كنت أنتظره وأحلم به وكانت أمي كذلك تحلم مثلي وكنا نقول أحلامنا ونحكيها سويا.. لا أعتقد أن النساء يفعلن ذلك..

- ولماذا هذا الاعتقاد إن النساء في بلادنا على كل الأشكال..

- أعرف.. ولكني ما أقصده بالله عليك.. إن معظم نساء مصر فقيرات لأن معظم الرجال أيضا فقراء فلن تتفوه أي امرأة برقة وتقول كلاما حلوا لزوجها.. إن النكد وهم الحياة والمعيشة الثقيلة اللائي يعشن فيها تجعل النساء جميعا مصدر كرب وشقاء للحياة التعيسة اللائي يعشنها.. إنك لن تجد امرأة

رقيقة وعميقه في حبها لزوجها لأن الفقر والحاجة والبهدلة قتل وحطّم كل شيء جميل في داخل نفوسهن.. لن يبقى فيهن إلا الوجع ولا يتفوهن إلا بالشكوى.. إنه الشقاء والحالة الاقتصادية المهينة التي يعيشن فيها قضت على كل المعاني الجميلة..

- كل شيء ترجعينه إلى الحالة الاقتصادية..

- هذا واقع وهذا صحيح.. وإنني أحمد الله على النعم الجزيلة التي منّ الله عليّ بها..

- ليس لدينا إلا الدعاء بأن يديمها الله علينا..

* * * * *

.. ولا أخفى أنني مثل كثير من الرجال يهرب من البيت عندما يكون فيه أي نوع من أنواع الألم والوجع.. فوجع المرأة وألمها الشديد سواء أكان من حمل أو مغص أو فقر تجعل الرجل يخرج من البيت أو يغيب كثيرا من الوقت بعيدا عن بيته.. ولا أعرف لماذا كنت حريصا في الحصول على تفاصيل أكثر عن حياة ونشاط كامل جمعة وزوجته وما بعد ذلك.. وهذه المنتقبة وما حكايتها وما تفاصيل علاقتها مع حرمه..

.. لم أكن في داخل نفسي بأن تمر الأحداث حولي وانا كعابر سبيل لها فهاتفت بيت كامل جمعة وردّت عليّ زوجته ورحبّت كثيرا بأن أذهب إليهم ثانية، وكانت هناك كثير من الأسباب لأن أخرج فأقضي وقتا في البناية مع العاملين على

تشطيبها ووقت آخر مع موردي الماكينـات والآلات والعـدد والأدوات الخاصة بالمصنع وأوقات أخرى مع موردي الأدوات المكتبية ومهندس الديكورات وأخرى مع الأسطوات الـذين يجلبون العاملين والعاملات في المصنع وأقسام البيع، ومع كـل ذلك لا أخفي أن نفسي التواقة لمعرفة حكايات الرجال والنساء الذين تركوا لأنفسهم الانسياق وراء بيع أجسادهم كطريـق لكسب العيش، وكنت أشعر بالأسف الشديد بيني وبين نفسي لأنني وأنا ذاهب إلى كامل جمعة وزوجته كانت نفسي تميل كل الميل لأن أرى جسد هذه المرأة مرة أخرى.. ومـاذا بعـد لا أعرف..

.. فتحت لي الباب امرأة شبه عارية تحـاول أن تتـداري خلف الباب وأنا أدخل، وتقدّمتني إلى نفس الغرفة الضيقة الـتي جلسنا فيها من قبل، وجلست قليلا في مقـابلتي ترحـب بي وبلعتها بعيني لأسعد من عريها الذي ينفذ إلى أحساسيـسي.. ودخل زوجها علينا مرحبا وقبّلني وكان يرتدي بدلـة كأنـه ذاهب إلى مشوار هام وجلس بجانبي وانحنى نحوي بوجهه في ود وقال :

- معلش البيت بيتك.. عندي مشوار مهم استأذنك..

- طيّب كدة خدني معاك..

- لأ والله.. الحقي يا سامية.. عايز يمشي معايا..

وأقبلت سامية مهرولة وهي تضحك:

- ليه ليه.. هوّ أنا بعبع.. كامل أخوك وإنت أخويا..

- يظهر أنا جيت في وقت غير مناسب..

خبطه كامل على كتفه كأنه يقول فضها بقة.. وقال وهو يخرج من الغرفة مسرعا نحو الباب:

- يا أستاذ صبري.. دا بيتك وسامية أختك خلاص.. باي باي..

وصفق الباب خلفه وتركني معها.. وجلست ثانية ولكن بجواري وشعرت بأن أنفاسها تلفح وجهي وعطرها يعتق في أنفاسي وأخذت يدي في طراوة شديدة وقبّلت كف يدي فارتبكت وشعرت برجفة غريبة تهزّني تختلف عن الرجفة التي كنت أعود بها إلى زوجتي أتوجّع من أحداث الناس المؤلمة.. في هذه الرجفة شعرت بأنني في داخل الأوجاع واقتربت من صلب حياتهم ولمّا لاحظت ارتباكي قالت :

- تشرب إيه؟

- لأ ما فيش حاجة..

وفي جرأة همست :

- عايز إيه يا صبرى بيه؟

- عايز

- أتكلّم معاك..

- في إيه..

- أنا عايزك ترجعي.. عودي كما كنت سامية وكامل يرجع معاك..

وطوّحت بتلك الضحكة التي تسكت أي رجل عن الكلام.. ضحكة غيّرت من هواء الغرفة الخانق، وهزّ صبري رأسه وكأنه يقول.. مفيش فايدة... هيّ مصرّة على مجونها.. إنها قوية وتجاسر وقال :

- بالراحه عليّ يا سامية عامليني كأنني أخ لك.. إنت بنت ناس من الفلاحين..

- هامشي معاك للآخر.. هات لي سكة أمشي فيها مفيهاش بهدلة.. هات لي طريق يديّ للست كرامتها في البلد دي وأنا أرجع..

- عيشي زي بقية الستات ..

- أنا مش غلبانة زي الستات ومحبّش خيبة الستات في غلبهم وضعفهم.. وبعدين يا سيدي إنت تزعل من واحدة بتحرّر نفسها.. تعرف لو مارحتش الجامعة يمكن كنت أبقة غلبانة زي الستات، إنت عارف إن الواحدة في الجامعة بتاخد أو بتحس بجرعات معنوية عالية وبتفكر إنها بعدما تخلّص ها تلاقي نفسها في مكانة كبيرة أوي في المجتمع.. لكن الواقع غير كده خالص الرجّالة كلهم بيعاملوا الست من منطلق واحد

وبس.. إن الست دي في النهاية تتركب وبس.. طيب طالما إن المجتمع كده ونظرته ما تغيرتش ومش ها تتغير بتعملوا جامعات كتير أوي ليه وبتشجعوا البنت زي الواد الناس بتقول كده وفي الآخر اللـّي إتعلمت زي اللـّي ما تعلـّمتش.. فيه وحش في عقول الرجالة أو فيه وحشية في المجتمع.. إمتى نبقة أد التعليـم والثقافة بصحيح.. روح شوف البلاد الأوربية رغـم الحريـة اللـّي بيعشوها وكل واحد يعمل اللـّي عايزه.. لكـن فيـه احترام.. العلاقة بين الرجل والمرأة والحريـة المفتوحـة شـيء والعلاقات الإنسانية المحترمة بين كل أفراد المجتمع شيء آخـر.. كل شيء منفصل عن الآخر لكن في الأول والآخر فيه إنسانية وأدب عام واحترام.. تعال شوف البهايم اللـّي في البلد.. لسه بدري أوي على الثقافة والإنسانية والإحترام الحقيقي والقـيم النبيلة.. أسكت يا عزيزي.. في ديننا فيه كل شيء عظيم يرقى بالإنسان والإنسانية ولكن للأسف ما فيش حد عارف الـدين الكبير لأننا بنتمسّك بالقشور والتفاهات.. العقلية عندنا تافهـة أوي عند الكل رجالة وستات إوعه تفكرّ إننا بنعيش في القـرن الواحد وعشرين حضاريا.. أقسم لك إننا لم نفعل شيء بعـد مرور هذه القرون وأننا نعيش أيام الجاهلية الأولى ولكن كـل واحد بطريقته..

- كل الكلام ده حواكي.. هوّ أنا جاي أخد محاضـرة.. كلامك كويس بس إحنا فيك إنت كل واحد يـصلـّح مـن نفسه..

- أصلّح من نفسي إزاي وأنا الجانب الضعيف في المجتمع.. دلوقتي الطبقة المثقفة أو المتعلمة زي اللّي ما تعلّمش خالص لأن اللّي فوق بيعامل الناس كلها كأنهم عساكر.. هوّ المجتمع المدني عسكر..

- المجتمع المدني مش بيعيش بأوامر ولا بتعليمات المجتمع المدني مجتمع إنساني لازم اللّي فوق يتعامل معه باحترام وبأسلوب جامع كل ما هو إنساني ونبيل.. مش بتحترموا الناس والناس مالهمش أي قيمة في بلدنا هوّ الاحترام شعارات وكلام وبس.. الكبير مش قدوة الكبير اللّي هوّ من المجتمع ويمكن يكون أبوه كان من قاع المجتمع بقه فرعون مرّة واحدة ومحدّش قدّه وكل واحد ماسك حاجة بقه كده.. إنت جاي عليّ أنا وجوزي الغلابة اللّي حتى ملقوش فرصة عمل شريفة تقول لهم عملتوا كده ليه إرجعوا.. لو إنت راجل.. معلش أنا آسفة.. أقصد لو إنت راجل صحيح بتدعوا إلى القيم وأن الناس ترجع للأصول الأولى.. خد الناس كلها إللي زيك وروحو لأي واحد فوق معاه فلوس أو معاه سلطة أو يملك أي شيء وقولوا له عيب اختشي عيش وخللي الناس تعيش زيّك.. إنت عارف إن المجتمع بتاعنا عبارة عن آلاف المواقع والأماكن في كل أنحاء البلاد التي ترزح تحت نيران العبودية وكل واحد في حتته ماسك فيها بالباطل ونازل سلخ في الناس واحتكار في الناس بل واحتقار في الناس ويا ريت الناس اللّي بقت فوق دي من بلد تانية إحنا والحمد لله مننا فينا..

- يا نهار إسود عليك يا سامية إنت مين..

- أنا سامية خريجة جامعة اتجوزت كامل واحد من طبقتي دخلنا في المجتمع نشتغل بمؤهلاتنا لقينا كل واحد صاحب شركة عايز يقلّع النسوان والبنات كلها اللي عنده في مقابل يستمر شغلهم.. لو لفّيت البلد كلها هاتلاقيها كده بس كل واحد له طريقته.. أنا كواحدة رفضت الحكاية دي إذا كان العمل الشريف ها يبقه فيه وساخة وكله كده.. كنت باحكي لجوزي كل حاجة بتحصل وهوّ كان بيحكيلي اللّي بيحصل في شركته.. وفي الآخر إيه لقينا إن ما فيش حاجة اسمها أعمال شريفة في البلد لازم الست تتنازل وفي الآخر لازم تقلع.. دا غير الأجر المتدني وساعات العمل الطويلة جدا مقابل أجر ما يأكلّش عيش حاف.. الشعب كله بقة حاجة واحدة رجّالة وستات بقة كله عبيد في نص قرن وأكثر هيّ عمر حكم الناس اللّي حكمونا من بلدنا..

- أنا حاسس إن إنت حطيتي سد كبير أوي بأفكارك دي وإنك مش هاترجعي..

- ممكن ما تزعلش مني.. أرجوك ما تزعلش مني.. إنت عجّان ولكّاك يا أستاذ صبري.. إنت من ضمن الناس اللّي بتستعبط وتستهبل في البلد.. ودن من طين وودن من عجين.. عامل نفسك عندك أخلاق علشان ربنا سترك شوية.. علشان

مراتك غنية وانت مدير مالي من زمان بتهبر اللي أنت عايزه.. يا ريتك كنت متجوز واحدة عادية موظفة وبس وأنت كمان كنت زيّنا.. كان نفسي أشوفك ها تعمل إيه..

- بس أنا من جيل قبلكم..

- إنت طلعت لقيت حاجة..

- أبدا هيّ الحاجة اللــّي كانت موجودة فرجــت علــى الناس كلها إن البلاد العربية كانت مفتوحة بشكل كبير لجميع المؤهلات.. كل الناس في البلد عملوا أي حاجة لّما رجعــوا.. بيت.. جواز.. قرشين..

- شوف بقة المشكلة عندنا إننا طلعنا مالقناش أي حاجــة مفتوحة.. كله جوّه البلد بياكل في بعضه والعبودية والـسخرة بتزيد يوم بعد يوم وشوية ناس فوق واكلة البلد وبتسرقها علني وناس شبه عايشة وعلشان كده حــصل إنفجــارات رهيبــة للمجتمع.. أقول انحرافات سلوكيات جديدة وغريبة في البلد.. ودا كله علشان الضغط الاقتصادي.. انهيــار اقتــصادي ودا نتيجته.. يا أستاذ صبري معلش روح هجَّرها وما تعملش راجل مصلح ونبيل علينا.. أحسن حاجة تبقة مننا أو تبعد عننا..

- يا خبر إسود يا سامية دا إنت هزأتيني على الآخر..

- دا عيبنا يا أستاذ صبري.. إن كل واحد بيتكسف مــن التاني وما يقولشي له الحقيقة ويقول علــشان مــا يــزعلش.. الحقيقة والصراحة في بلادنا عيب وما يصحّش.. يعــني شــرا

خواطر بالزيف والكذب.. يعني إحنا مجتمع مكسوف مجتمع عيب يا جدع عيب يا بت وكل واحد مننا بيعمل البدع في التاني.. يا عزيزي إحنا مجتمع بيضحك على بعضه.. وعلشان كده إحنا مجتمع هش كلنا أشتاتا أشتوت.. وصلنا إن ثوبنا بقة كله مخروق ومفيش حتة باقية ينفع فيها الترقيع..

- أنا ما عدش فيه حاجة عندي أقدر أتكلم فيها معاك إنت خلّصت كل حاجة..

- لأ ما خلّصتش.. الحمد الله ما عنديش ولاد كانوا إزاي يطلعوا يعيشوا العيشة دي.. شوف لمّا أطفال يلاقوا أمهم وأبوهم باعوها كان ها يبقة حالهم إيه..

- علشان كده بقول نحاول..

- يا ريت تسمعني أحسن.. إحنا دلوقتي بنصيع وبنحاول نداري نفسنا وفي كل بيت هاتلاقي واحد أو اتنين زينا.. لكن بكرة الضياع هايبقه شكله إيه.. ها نقف في الشوارع جنب بعض نبيع الصياعة علني..

- والحل يا فيلسوفة؟

- كل واحد في البلد بيقول الكلام ده في داخل نفسه.. الحل نرجع زي زمان نبقه بلد زراعي بحق.. قطن زمان، قمح يكفينا.. فين صناعة الغزل والنسيج فين الخبيز والبتاو وعيش الفرن.. هوّ فيه بلد تتخلّى عن جذورها أو تبيع أصولها بعد

كده ها نبيع إيه.. البلد فيها سماسرة كبيرة أوي وقوادين كبار وصغار ونصابين وعبيد وخدم ومنافقين البلد دي لازم ترجع تاني من جديد..

- خلينا نبدأ الإصلاح من تحت..

- شوف هيّ كلمة واحدة وفّر الأعمال الشريفة للناس والناس كلها ها ترجع.

- وإيه تاني.

- خلّي الأصول ملك للناس.. ما تبيعش أصول البلد.. إزاي تبيع عرق السنين إزاي تبيع بلدك.. لازم كل حاجة في البلد تبقة بتاعة الفقير قبل الغني.. إزاي تاخد ما للفقير ودم الناس من آلاف السنين وتتاجر فيها وتبيعها على بتراب الفلوس.. إزاي يحل ليك تاكل مال الناس الغلابة إزاي تسرق الأرض والمباني والشواطيء بكره هاتبيع ميّة النيل وقناة السويس بكره هاتخش على الناس في بيوتها وتعتقلها علشان تبيعهم في سوق العبيد.. بكرة.. بكرة. عايز إيه تاني يا صبري.. جاي بعد ما خربت تقوللي ارجعي.. روح رجّع الفاجرين.. وقل بعد كده للصبية بحق ما تتعريش.. عمرك ما هتلاقي واحدة قلعت علشان تعيش..

- طيّب ما تتعريش..

- تعال شوفني جوّه.. تعال شوف سريري.. تعالى شوفني قالعة من غير هدوم..

- لأ معلش يا سامية ها روّح علشان أم ابراهيم..

- فين فلوسك عايزة أدوق منّك فلوس..

- سلف ..

- لأ..

- أنا مش بادفع فلوس علشان أدوق..

- طيب تاكل معايا قرنبيط وبعدين نشوف الفلوس..

- عندك تفاح..

- لأ ..

- طيب انزل أجيب تفاح قبل ما تقلعي..

- الفكهاني على الناصية هات وتعال ها تلاقيني قالعة عسا السرير.

- خلليّ بالك أخاف عليك تبردي أحسن أغيب..

- إن غبت عني عمرك ما تيجي عندنا تاني وتقول كلامك من جديد ..

- طيّب ورايا اقفلي الباب أوي ما تفتحيه..

.. وفي الشارع كان يريد أن يجري وتوترت خطاه ولم يكن يستطيع أن يهرول.. ومن رجفة إلى أخرى شعر نفسيا بأنه ينهار.. وحتى يستطيع أن يمسك بتلابيب نفسه توقف أمام دكان صغير يبيع الروائح والعطور وكان حائرا مرتبكا يتأمل القناني والعلب ولا يعرف ماذا يريد وخرجت إليه البائعة تقطع تردده..

- ماذا تريد يا سيدي.. تحت أمرك..

- لا لا .. مافيش.. وسكت .. وأمعن النظر في وجه البائعة فوجده جميلا فقال لها :

- هو هذا المحل يخصّك..

- لا أملك شيئا .. أنا بائعة..

- أليس لك وأنت بهذا الجمال أن تقفي في مكان أكبر من هذا ..

- يا سيدي هذا ما وجدته ليس لي أن أختار شيئا.. هذه المدينة كبيرة ومحلاتها كثيرة جدا ولكن تشعر أن هناك بالوعة في كل شارع تشعرك بأن كل ما في هذه الحوانيت لا معنى له.. ما معنى أن تعرض البضاعة ولا يشتريها أحد.. أنا أسمّي هذه الظاهرة بالوعة..

.. دخل الحانوت بصعوبة وقدمت الفتاة كرسيا صغيرا له فقعد وقال :

- سوف اشتري منك الكثير لك أن تأتيني بكافة أنواع سبريه عرق النساء وكذلك عطور نسائية أختار منها.. أرجوك حاولى أن تأتيني بكل ما هو أصلي..

- حاضر يا سيدي.. حاضر.. الله يكرمك..

.. دقائق وجلبت له كل ما هو أصلى ومقلّد من العطور والسبريه وراحت تشرح له أنواعها.. هذا في الصباح وهذا في المساء وتركها تسوّق حتى سكتت فقال :

- هذه وهذه وهذه.. ثلاثة يكفي.. خمسة وهذه.. ستة أنواع من العطور.. إنها جميعا لحبيبتي.. كم الحساب أيتها الجميلة..

- مجانا يا سيدي.. أنت يا سيدي زبون لقطة ..

- هات من الآخر لا أود أن أتناقش معاك في أسعارها..

- حاضر يا سيدي..

- هذه.. وهذه.. وهذه الإجمالى مائتان جنيها..

- خذي .. ولك عشرة جنيهات ..

راحت الفتاة تشكره بالكثير من الكلمات الحلوة ثم تأملته وقالت :

- من أين أنت يا سيدي.. لا يمكن أن تكون من هنا..

- أنا من حي مثل هذا.. عريق في شبعيته أصيل في ناسه.. إن شبرا مصر ستظل شبرا مصر والناس هم الناس ولكن المنـــاخ هو الذي تبدّل والأحوال.. السيئة هي التي جعلت الناس جميعا يتغيرون ولكنهم كما كانوا أصلا غير أنهم الآن قد انكفـــأوا في داخل بيوتهم وشوارعهم في صمت بجوار صمت وجميعا كأنهم ينتظرون شيئا كبيرا ليخرجهم من رقة حالهم ليكونـــوا كمـــا كانوا يعيشون يشترون ويبيعون ويتزوجون..

- إنك يا سيدي تشعرني بالأمل.. إن كـــل الآمـــال قـــد انطفأت في داخلي..

- كيف وانت شابة وجميلة..

- وما فائدة أن أكون كذلك ولا أعيش.. لا بيع ولا شراء ولا زواج..

- أنا أعتذر لك عن عدم الزواج إن الحالة الاقتصادية المهينة قد وقعت فوق كل سقف فقطعته..

- هل تعرف يا سيدي ماذا أقول أنا لنفسي.. إنني أقـــول دائما ليس هناك رجال.. أقصد أين الشباب.. هل الـــشباب لا يراني ولا يرى غيري.. والله أنا خرجت من بيت أبي لسببين.. في كل صباح ومساء أبي وأمي لا يملّان العراك في أحوال المعيشة ولقد شعرت بأن الأرزاق تضيق وأنه لابد عليّ من نفـــسي أن

أبحث عن عمل.. أي عمل.. أنا حاصلة على ليسانس آداب قسم اجتماع من عين شمس.. لا يهم الآن حاصلة على ماذا ومن أنا في مكنون نفسي فلم أكن أتصور بعد كل هذا المشوار الطويل من التعليم أنني سأقف في محل في آخر اجتهادي وتحصيلي.. المهم يا سيدي كان عليّ أن أخرج من البيت كل يوم لأبحث عن عمل في المحلات التي على جانبي شارع شبرا.. هل تعرف أن أسهل شيء كان من الممكن الحصول عليه وهو عمل مجزي.. أن الرجال الآن خاصة التجار والذين يملكون هذه المحلات ماذا عرضوا عليّ وسكتت..

- ماذا عرضوا عليك.. يا.. إسمك إيه..
- سونيا .. عرضوا عليّ أن أكون رفيقة وبمرتب مجزي..
- وماذا قلت لهم..

- بكل هدوء انصرفت بعد أن سمعت العرض وبكل أدب قلت لكل منهم سوف أفكر يا سيدي.. دعني أفكر وكل منهم أعطاني محموله وهواتفه الأخرى.. وكنت أتصرف وأتابع وأضحك في داخلي وأسخر من كل هؤلاء.. وأقول ألم يبق غير هذا العمل.. أهذا العمل وحده هو المتوفر وبكل سهولة للفتاة خاصة وإن كانت جميلة..

- هذا موضوع كبير يا سونيا.. وماذا حدث بعد ذلك..

نظرت سونيا في ساعتها وقالت إنه عليّ الآن أن أقفل المحل لقد بلغت الساعة العاشرة.. هل من الممكن أن أكمل حديثي معك يا سيدي في أي مكان تختاره..

- إن هذا يسعدني..

وأنتظرها حتى قفلت دكانها وجاءت إليه قائلة :

- كأنني وجدت شيئا كبيرا أحكي له.. من أين أنت يا سيدي ولماذا كنت هنا في شبرا..

- تعال يا سونيا إن علينا أن نجلس أولا حتى أحكي لك ..

- وأنا يا سيدي سوف أكمل حكايتي.. قالتها وهي جد فرحة تكاد أن تطير من فرط سعادتها بالرجل..

* * * * *

.. ركبنا المترو حتى محطة المظلات ولمّا صعدنا إلى الشارع اجتزنا مبنى الري على اليمين ثم دخلنا في شارع يؤدي إلى النهر.. صادفنا عدة مقاهي لا تليق حتى وجدنا كوفي شوب على الكورنيش.. ولمّا كنا ندخل من الباب والجارسون يرحب بنا أمسكت بذراعي وكأنها تخاف من شيء.. وشعرت بأنها ألفتني وأنني قريب منها لأنها من شبرا وشبرا مصر عزيزة عليّ لأنها أول محطة في القاهرة وصلت إليها وعشت فيها لمّا جئت إلى القاهرة لأكمل تعليمي الجامعي.. وكم كان لي من

ذكريات جميلة.. وكانوا جميعا من أهلي وأنا منـــهم خاصـــة النساء الجميلات اللآئي عرفتهن من المظـــلات وحـــتى حـــي طوسون ومسرة، استحوذ على نفسي في دقائق كل حيـــاتي في هذا الحي وكم عشت أياما جميلة في شقتنا الصغيرة أنا وأخـــي محمد سامي أياما لا تنسى وسجلتها أرض وهواء وناس شـــبرا العريقة.. إن سونيا أمامي الآن وكأن كل أحداثي تتجمع وأنـــا أنظر إلى وجهها الفاتن ورغم أنها كانت تصغرني كثيرا إلا أنهـــا قالت بادئة :

- جئت معك طواعية ولو كان شابا في مثل عمـــري مـــا نظرت إليه ولكن من أنت يا سيدي.. إنك جذبت كل شـــيء فيّ لدرجة أنني كدت أطير من الفرح عنـــدما دخلـــت علـــيّ الحانوت ورأيت وجهك الذي ينطق بكل المعاني.. ولم يكـــن يهمني حركة الشباب لكونهم شباب وكنت في داخل نفـــسي أبحث عن المعاني والنضج ورجل كبير يشملني بالحب والعطف والحنان.. ربما تكون أنت.. أو أن هذا الرجل لم يأت بعد.. أو أنه لن يأت أبدا.. هل تعرف يا سيدي إن ماوصلت إليه مـــن معنى للحياة الاجتماعية في مدينتي أن الناس تائهون كـــل منّـــا يبحث عن وجوده فلا يجده.. أي أن كل رجل وكـــل فتـــاة وامرأة يبحث كل منهم عن نصفه الآخر دون جدوى.. إننـــا جميعا نتقابل ويرى بعضنا البعض ونعمل ونتسوق ونحـــاول أن نحيا ونتعارك ونأكل ونشرب في مدينة كبيرة فيها يعيش كـــل

أجناس الناس بحري وقبلي ومن كل الطبقات ونحن جميعا مـــن أصل واحد وجذور واحدة، ولكن لا أحد يلتقي بـــالآخر أن يتجانس معه وكأنناجميعا هائمون على وجوهنا ومنكبون على ذواتنا نتداري ونخاف ونتروي..

.. وامتعضت وكأنها تشعر بيأس ما غير أنها استراحت لمّـــا أفضت بمكنون نفسها وابتسم صبري وقال وهو يمسك بكـــف يدها ويرفعه إلى فمه ويقبّله :

- دراستك في الجامعة جعلتك تتكلمين ببراعة عن حالـــة المجتمع .. ولكن ما باليد حيلة الآن لقد انقسم الجميع وعـــدنا جميعا فرادى كل منها يبحث عن الرغيف فقط.. لأننا ســـكتنا وخضعنا حتى الرغيف الحاف نجده بصعوبة بالغة.

.. لكن يا سونيا دعينا من الفلسفة والكلام العام وقـــصّي عليّ حكايتك :

- إن قصتي عادية هي قصة كل بنت وكـــل واحـــدة في البلد.. القصة باختصار أنه على كل واحد من أي عائلة عليـــه أن يخرج ليعمل لأن الجميع في أي أسرة إن لم يخرجو ليعملـــوا فلن يستطيع الأب والأم ملاحقة إطعام بقية الأسرة لأن موجات الغلاء مستمرة والدخول ثابتة ولا توجد أعمال بـــالمرّة ســـواء مناسبة أو غير مناسبة والمصيبة كما قلت لك يا سيدي أن مـــن يملك يريد أن يقلـــّع كل الستات والفتيات في البلـــد مقابـــل حفنة قروش واستقرار الإنسان معه في العمل.. يعني البجاحـــة

وصلت يا سيدي من الذي أوصلنا إلى ذلك.. من الذي أخلى البلاد من أعمالها الشريفة.. من الذي جعل بلادنا بلادا بلا إيراد.. من الذي جعلنا نعيش بالليل ووالنهار وكأننا حفاة أو عرايا.. وهل نتعرّي لكي نعيش.. ويتكلمون عن الكرامة والقيم.. كيف تكون الكرامة لإنسان يعرّيه أخيه الإنسان في نفس الوطن ليأخذ منه أغلى ما لديه.. وينزعه نزعا منه أي يغتصبه..وهل ولدنا ووجدنا في هذه المدينة كي نغتصب.. إنهم يجبروننا جميعا نحن النساء على الاغتصاب وأن نقدّم كل ما هو غال في مقابل الرغيف.. ماذا أقول لك أكثر من ذلك يا سيدي وأين الحل ومتى يأتي..

- غلبت عليك فلسفتك.. أقسم لك بكل الإيمانات أنني لم أجلس مع رجل أو امرأة في هذا الوطن إلا وكلمني عن العيش والحياة والعمل الشريف والغلاء.. يبدو أننا جميعا في وطن يتكلم فيه كل إنسان كلمة واحدة لأن الوجع أصبح واحدا وأن الألم وصل إلى كل جزء في جسدنا حتى الآطفال يشكون ويتكلمون كما يتكلم الكبار.. ماذا عنك أنت.. دعينا من الحكاية الواحدة للناس.. حكايتك أنت..

- أنا سونيا رشدي حبيب بابا على المعاش وأمي في البيت.. لي أخ مهاجر من عشرين سنة.. لي أخ تاني.. بيعيش معنا.. وسكتت..

- وماذا بعد..

- معاش أبي ربعميت جنيه وأخي المهاجر لا يرسـل لنـا شيءا ولا يريد أن يعود حتى زيارة.. صاحبة المحل إسمها الحاجة فوده باشتغل معاها من سنة كل يوم بافتح المحل من تلاتة بعـد الضهر لعشرة مساءً..

- بكام ..

- متين جنيه..

- كويس ..

- كويس إيه.. ميّة للبيت وميّة مصاريف وأخويا بيـشتغل مندوب مبيعات طافح القندلة مـن الـشغل في اللـف علـى البيوت.. ويوم أه ويوم لأ..

- اشتغلى مدرسة ..

- ما فيش ..

- اخصائية اجتماعية..

- ما فيش ..

- طيب تعرفي تبيعي ملابس..

- سهلة ..

- شهرين بالكتير ها كلمك تشتغلي معانا في السنتر..

- فين ..

- في الزيتون ..

- بكام ..

- مش أقل من ستميت جنيه..

- يا ريت..

ودقّ محمول صبري وكان المتحدث السيدة الكبيرة التي قالت له في جملة واحدة :

- يا صبري إنت فين.. الحق تعال ماريانا بتولد في مستشفي الميري لاند..

* * * * *

.. كانت سونيا شديدة الألفة فلما خرجت مسرعا من الكوفي شوب كانت تهرول خلفي وأمسكت بذراعي ووضعت رأسها بكتفي كأنها تحتمي بي من شدة المطر الذي كان ينهمر بغزارة ومرّة واحدة التصقت به وشدته تحت مظلة بنك مصر ودخلت في أحضانه كأنها زوجته أو ابنته وتركها.. كان يريد أن يعرف آخر الحكاية.. وحدّث نفسه كالعادة.. هذا الود من أول مرّة.. ترى لو قابلتها ثانية ماذا يحدث.. وازداد المطر شراسة كالسيول وبدت الشوارع كأنها بركة ماء والمركبات تحاول النهوض منها وشدت شالا رقيقا فوق رأسها ومسحت عينيها من حبات المطر التي أذابت الكحل من مقلتيها وتمنّت أن

تأخذه الليلة إلى أي مكان وتبقي معه أبدا.. ما الذي يدفعها نحو هذا الرجل.. ولمّا هدأت السيول قليلا قال لها وهو يربت على كتفها بيده:

- لابد لي أن أمشي.. إن زوجتي تلدويجب أن أكـــون إلى جوارها الآن..

- يعّز عليّ أن تتركني.. لكني أنا أريدك دائما..

- هذا واقعيا لا يمكن..

- أليس لكثير من الرجال امرأة أخرى غير زوجاتهم..

- هذه عادة يا سونيا غالبا منتشرة في أوربا ولكن في بلادنا فيها غرابة..

- أنا أحب هذه الغرابة وأتمنى أن أعيش فيها معك..

- أنت فتاة يا سونيا وإذا سايرتك في مثل هذه الغرابة التي تتمنيها فكيف يكون شكل هذه العلاقة ..

- لا أريد أن أكون امرأة.. ولكنك سبتقى عليّ عـــذراء.. يكفيني أن أكون بجـــوارك وفي أحـــضانك وأنـــت ترتـــدي ملابسك.. إنك ستحميني من رجل متوحش يشدني إليه ولـــو وافقته في رغبته لتحولت إلى امرأة في ساعة.

- من هذا الرجل..

- هذه حكاية أخرى ..

- عندما آتي إلى شبرا مرّة ثانية سوف أعرج عليك لأعرف من هذا الرجل..

ودار هذا الحديث في المسافة بين الكورنيش وشارع شبرا لأن في هذه المسافة لم نستطع الحصول على تاكسي وكانت تتأبط ذراعي بقوة وتلقي برأسها فوق كتفي وأصرت على أن تدخل مع العربة ولاذت بي في المقعد الخلفي وكانت تصر على أن تذهب معي وأثنيتها عن ذلك لأن ذلك غير ممكن.. وكيف أدخل على زوجتي التي تلد بامرأة أخرى.. إنها قد تموت لأنني سأزيد آلامها آلاما أخرى .. وهدأت من شدة رغبتها وحلفت لها بالإيمانات بأنني سوف آتي إليها بعد يومين وأنه يجب عليّ أن أهاتفها كل يوم حتى أحميها وأقويها على رجل يلاحقها ووافقتها على كل شيء..وتنفست الصعداء لّما نزلت من العربة قريبا من بيتها في شارع محمد الخلفاوي.. وهاتفت السيدة الكبيرة معتذرا عن تأخيري بسبب هطول المطر وأنني بعد نيف ساعة سأكون في المستشفى فأخبرتني قائلة :

- مبروك يا صبري.. جالك ولد..

- ياه والله.. مبروك يا ست الكل وهيّ عاملة إيه بخير والولد بخير ..

- كله بخير وهي على ما يرام والولد في الحضّانة.. لا تقلق على مهلك لا تجعل السائق يسرع خوفا من زحلقة العجـــلات في هذا الجو.. على مهلك يا بني.. مبروك..

- الحمد لله يا ست الكل.. باي..

ودخلت عليها في غرفتها وكانت الدموع تنحبس في عـــيني وارتميت فوق صدرها برأسي في رفق ورحت أحتضنها في رقة وأبكي وهي تحتضن رأسي بأناملها الرقيقة ومردّدة مبـــسوط.. والله مبسوط.. المهم انت تكون مبسوط..

- لأ المهم إنت .. حمدا لله على سلامتك.. إنت مبسوطة.. الولد حلو زي ماما..

- لأنه زي بابا قمر..

.. ثم انعدلت وجلست على حافة سريرها وأمسكت بكف يدها ورحت أقبله.. وكنت أريد أن أقول لها سامحيني.. سامحيني على تخاريفي.. أنا ليه عملت كده.. أنا مالي ومال الـــستات.. هوّ كل ست تحكي لي حكايتها أسمعها وأقعد معاها في الكوفي شوب.. ورحت أهزّ رأسي على مفارقات نفـــسي وأنـــني في داخلي مشتت بين النساء.. ورحت أفكر وأنا أمـــسك بيـــدها وأراها جد مرهقة.. إن عليّ ألا أذهب إلى شبرا مرّة ثانية.. إنني

ضعيف أمام شبرا.. إن شبرا مصر التي أخذت كثيرا من تـــاريخ حياتي وأنا شاب.. ما زالت هذه الشوارع وحاراتها وبناياتهـــا وميادينها تملأ رأسي بذكرياتها الجميلة التي عشت فيها وأنــــا في باكورة عمري عندما جئت إليها من القرية لأكمـــل دراســـتي الجامعية.. إن شبرا مصر في حياتي هي نقطة ضعفي لشدة حبي لها ولكثرة حكاياتي فيها مع نساء جميلات.. وإنه عليـــك يـــا زوجتي الحبيبة ماريانا والتي أمدت لي حياة أخرى مليئة بالحـــب والحياة والولد.. عليك أيتها السيدة المخدوعـــة في صــــبري أن تمنعيه من أن يذهب إلى شبرا مرّة أخرى لأنه ضـــعيف أمامهـــا وأمام كل شيء فيها.. ولكن كيف لا أذهب إلى شبرا ومنـــها جذوري.. كل إخوتي وخالاتي وأخوالي وأقارب أمي يقطنـــون في ميدان الخلفاوي وما حولـــه مـــن شـــوارع وفي أغاخـــان وطوسون ومسرة.. لا أعرف.. أليس لي أن أذهب مرّة أخرى حتى أعرف حكاية سونيا مع هذا الرجل.. دعيني ياماريا ويـــا مخلصة التي لا تدري بشيء أن أذهب للمرة الأخيرة لأعـــرف حكاية سونيا.. بعدها لن أذهب..

* * * * *

وفي اليوم التالي غادرت ماريانا مستشفى الميريلاند إلى بيتها في حي الزيتون، وكانت الأم الكبيرة حريصة علـــى احتـــضان

الطفل ورعايته مع كل همسة أو طرفة عين تصدر من الصغير.. وكانت ماريانا تبتسم إبتسامة تفرش وجهها نـــورا وصـــبري يحتضنها ويقبل كف يديها ويتمدد في جوارها.. وكانت تتمتم بكلمات وكأنها تغني ولمّا تعافت قليلا عـــادة تمتمـــة شـــفتيها كلمات تخرج في رقة من فيها :

.. جانا الهنا جانا بإبراهيم.. والدار بقت جنة بإبراهيم..

روحي ياماما إزرعي الورد والياسمين ..

ياما صبرت واتمنيت جه بعدها أبو ابراهيم

دعيت بكل الأيمانات يرزقني الخلف

قبِل دعايا في السما ربيّ ..

تمم علينا ربنا الفرح وجالنا ابراهيم

قومي ياماما زغردي وغنيّ وقولي معايا..

كلام الفرحانين.. أهلا يا إبراهيم..

سهلا يا إبراهيم.. قولي معايا ياماما..

يا رب نتهنيّ بإبراهيم..

وكانت الأم الكبيرة تردد معها كلامها الجميـــل وتحتـــضن إبراهيم.. البخور والعطور والورود ملأت البيـــت.. جلبـــها

صبري إليها ووضعها في كل غرف البيت ونثر الكثير منـــها في غرفة ماريانا.. كأنه حلم يعيشه الثلاثة في بيت كان ســـاكنا لم يدخله الفرح طيلة حياتهم.. ولّما أراد الله منّ علـــيهم، وشـــعر صبري بأن الله يمنّ عليه بالكثير وكأنه في حلم خـــارج كـــل حدود المدينة الضبابية، ولّما أحسّ بالفرح والسعادة التي حولـــه ويحملها قلب ومشاعر الأم الكبيرة وأم إبراهيم أيقن أنه في ذلك المساء في شبرا كان قد خرج عن المألوف.. لماذا يتلـــوّن بلون آخر من خارج زمانه.. أليس له أن يعيش زمانه ويبتعـــد عـــن زمان الآخرين.. ماله ومال سونيا وكامل جمعة وسامية وسميرة وماله بزمان الآخرين.. أليس له أن يعيش حياتـــه فقـــط وألا يتلـــوّن بألوان الأرض المختلفة، حاول أن يعيش بكامل قواه في بيته ويندمج في كل سعادتهم بولده.. إنه فعلا انـــدمج معهـــم وفرح وسيظل يفرح بها في حياته وأن إبراهيم أكمل وتّمم هذه السعادة وأغرقه فيها، وكانت مشكلته أنه لا يستطيع أن يـــرى امرأة لها قصة ولا يعرفها إنه يريد أن يتتبع كل النساء الجميلات اللائي سقطن في مجتمعه لأنهن اللائي غيّرن لون الأرض وكـــان شديد الحاجة لمعرفة الكيمياء التي بدّلت أرض بلاده.. هل جاء صبري من دائرة خارج الزمن ليجعل كل زمن لامراة ملكا له.. كيف؟ كيف وسواد عينيها وجسدها الذي يصرخ فتنة وشعرها وأكتافها وشفتيها القرمزيتان في فمها الصغير وغمزاتهـــا الـــتي

أحرقت لهيب قلبه.. هي امرأة كل العصور امرأة تلوّنت بها كل أنواع الأرض وفي كل الأزمنة وفي كل مكان في العالم وليست مدينته فقط.. وتساءل وكيف له بامرأة أخرى وله مثل هـذه المرأة ماريانا.. أهي حالة نفسية أو جنونية أم هي حالة مـن حالات السفالة الدنيوية.. أم هو فعلا على يقين في أنـه قـادر على إصلاح حياة الآخرين.. وتوصّل في شطحاته إلى أنه لـو استطاع أن يوفّر عملا شريفا لكل هؤلاء الناس يحقق لهم بعضا من الحياة الكريمة لعاد الناس إلى أصولهم وطبيعتـهم.. ولكـن كيف تحقيق ذلك إن العالم الذي حوله ليس ملكا لـه وهـل يكفي معرفة حياة هؤلاء ولماذا يغيّر لون أرضهم.. عـن مـاذا يبحث صبري وهل الطريق الذي يتبعه صحيحا وليس فيه شوك يعوقه.. وهل الشوك يثنيه عمّا في رأسه..

* * * * *

كانت فاتن المنتقبة المطلقة من شاب ملتحي أذاقها البخـل بكل أنواعه وعلمت من خلاله أن الرجال لهم أفواه نتنة وأرجل كعود كبريت ولا يستحمون ولا ينظفون أسنانهم بالفرشاة ولا يعرفون شيئا عن معاملة النساء.. تم الطلاق بينها وبينه بصعوبة حتى تنازلت عن كل حقوقها لكي تتخلص منـه.. فـاتن أم الخامسة والثلاثين عاما الجميلة الفارعة الطول الممشوقة العـود

صاحبة العيون الكحيلة إذا نظرت إليها من ثقب نقابها خلبت لبّك أو أحرقت لهيب شوقك.. ولدت فاتن من أم في إحدى قرى المنصورة ولمّا جاءت إلى القاهرة مع والديها حيث وظيفة والدها لم تكن تدرك أي شيء في الفترة التي قضتها طفلة في بلدة أبيها وأمها.. كأي فتاة كبُرت وتعلّمت في المدارس ثم دخلت كلية الحقوق.. ومضت السنوات حتى أنهت دراستها وتعرّضت خلالها لعروض صداقة من الطلبة فرفضتهم جميعا ومن المعيدين والمدرسين والأساتذة.. ورفضت جميع من تقدموا لها من هؤلاء لأنها تدرك في داخل نفسها أنهم يريدون أن يتسلوا بها وأن تكون مجرد تجربة كانت تعرف تماما في قرارة نفسها أن الذي يحركهم جميعا هي الرغبة في داخل جسد كل منهم.. ولمّا كانت تعود إلى بيت أبيها في مدينة السلام تحبس نفسها في غرفتها وتبكي.. غير أنها كانت في أوقات كثيرة تهوى أن تخلع ملابسها أمام المرآة ثم ترتديها وتتفرج على كل جزء من جسدها.. كانت أمها قد تركتهم جميعا وتوفيت قبل أن تنتهي من دراستها الجامعية، وكان أبوها موظفا بسيطا في هيئة الصرف الصحي وأختها العاجزة قعيدة البيت.. كان عليها هي أن تقوم بكل أعمال المنزل والتسوّق وخدمة أختها العاجزة.. وكانت هذه الأخت سليطة اللسان مع أبيها وتعاتبه دائما وتحمّله مسئولية إصابتها بشلل الأطفال لأنه أهمل تطعيمها..

وكان الرجل يهرب من قسوة وعتاب ابنته فيخرج من البيت ليجلس في مقهى صغير مع صاحب له.. وفي يوم كانت العاجزة قد وصلت إلى مرحلة تشبه الجنون فشتمت أبوها ووبخته لضيق رزقه.. وكان الأب حنونا يربت بيده على ظهرها ويحاول تهدئتها.. فتقول له.. إذهب عنّي.. إغرب عن وجهي وكأنها سيدة البيت أو أن أبيها عبدا في بيتها.. وفي يوم قالت له أنت حقير.. سافل.. لماذا لم تكن غنيا.. لماذا أنت فقير.. لماذا يكسونا عمنا عادل كل صيف وكل شتاء.. ولّما يقول لها.. لا شأن لك بذلك إنه أخي ويعرف أنني على قد حالي وأنه يساعدني طواعية من نفسه.. فكانت الابنة العاجزة العاقة لأبيها تقول له.. إنت بيئة.. إذهب إلى أي مكان وآتنا بالمال.. فلما تشتد عليه في قسوتها يقول لها وماذا تفعلين بالمال وحالتك الصحية لا تسمح باستخدامه أو التمتع به.. فإنها في هذه الحالة تثور عليه وتحاول أن تأتي بأي شيء في متناول يدها لتلقي به في وجهه.. وكالعادة يخرج الأب والدموع في عينيه من بيته إلى المقهى أو إلى المسجد ليصلي.. ولّما يعود إلى البيت يتداري وهو يدخل إلى غرفة نومه حتى لا يلاقي منها شتيمة أخرى.. وكانت فاتن تدخل إليه لتسرى عنه وتطيّب خاطره.. وتقول له دائما ليس على المريض حرج.. وفي يوم قالت له زوّجها يا أبي حتى تخلص منها.. فهزّ الرجل رأسه وقال لفاتن وكأنه يذكرّها

بشيء لا تعرفه: كيف يتزوج أي رجل امرأة وفتاة عـــاجزة.. فتسكت فاتن وتقول لأبيها..صحيح صحيح.. جـــلّ مـــن لا يسهو.. ولكن ما الحل يا أبي.. يسكت الرجل ويقول.. الحـــل عند الله.. واشتدت الحالة العصبية التي تعيشها أخـــتي عنـــدما خرج أبي على المعاش وبدأ يقضي أوقاتا طويلـــة في البيـــت .. وعرضت على أبي أن يجد عملا يقضي فيه وقته وليكون بعيـــدا عن جو البيت وفي نفس الوقت تحسينا لمعاشه ولمعيـــشتنا الـــتي نعيشها بمعاش لا يصل إلى ربعمائة جنيه... وافـــق أبي ووجـــد عملا في أحد مطاعم جسر السويس وتحسّنت الأحوال المعيشية وبدأ أبي في مجاملتها وتهدئتها كأن يقول لها كل يوم وهو خارج إلى عمله ماذا تريدين.. ويأتي لها ما يستطيع من مـــا تطلبـــه.. وهدأت نفسيتها قليلا وراحت تهدأ وتركن إلى أبيها.. وكـــان الرجل حريصا على تلبية طلباتها وإسعادها وبالتالي حرص على المواظبة في عمله..

.. كنت أخجل من نفسي رغم أني لم أقترف ما أخجـــل منه.. كانت نظرات الرجال مشينة وفظيعـــة لي.. والعبـــارات العارية التي يقولونها في وجهي وخلفي.. سواء كنت في السوق أو عند صديقة وعائدة إلى البيت.. كنت في حاجة إلى الرجل.. لا أخفي عليك.. كنت في حاجة إلى رجل حقيقي يحبّني وأحبه ويحتويني بكل معنى الاحتواء.. ولكن أين هـــذا الرجـــل.. ألم

أجرّب زعزوعة الرجال ومن أدراني أن يكون رجلا زعزوعة مرّة أخرى.. ولماذا الزواج.. ولماذا لا أنتقم من كل هذا الجو الذي حولي.. ولماذا لا أكون خادعة للجميع.. بيت فقير وأب مسكين مغلوب على أمره وأخت عاجزة سليطة اللسان ورجل تزوجته كان خيبة الرجال وخيّب نفسي أن أكون مرّة أخرى زوجة لرجل يكون مثله.. شعرت بأنني محبطة نحو الرجال وأنني سوف أكون تجربة لهم إذا اخترت طريقة الزواج.. ولماذا لا أكون حرّة.. ولكن كيف أدافع عن جسدي وأن أتداري كيف أخدع كل من حولي..لماذا لا أكون غامضه لا يعرفني أحد عندما يراني سواء كنت في مدينة السلام أو في طريقي لأي مكان آخر.. لماذا لا أرتدي النقاب وأكون حرّة طليقة.. سوف أفعل الكثير دون أدنى مضايقات وأنا أرتدي هذا الرداء.. لن أكون زوجة ولن أكون لرجل واحد.. لابد لي أن أخرج من البيت الفقير وألا أبكي ثانية على أب مسكين ولن أكون حبيسة في بيت ضحية لفتاة عاجزة تشتمني وتسخر مني مائة مرة.. هذا الجو الخانق لابد من الخروج منه.. لابد من بيت آخر.. وفي حي آخر.. ومن رجال آخرين أذهب أنا إليهم في بيوتهم لأسجنهم فيها أو يكون هم جميعا سجناء يتبعونني وأنا سجانتهم.. ورحت أفكرّ.. أقبل على أفكاري هذه حينا وأتردد بعيدا عنها حينا أخرى وبين هذا وذاك كنت أجد نفسي ملكة حين أخلع ملابسي وأرتديها أمام المرآة.. كنت أشعر أنني امرأة تختلف وأنه سيكون لي شأن آخر لو استخدمت جسدي وكنت

حرّة.. ولأنني في حي شعبي رديء لابد لي من أتـــداري في حريتي تلك وأرتدي النقاب..

* * * * *

استغرق حديثها عن نفسها وقتا طـــويلا واقتـــرح عليهـــا صبري أن ينتقلا إلى مكان آخر يتناولان فيه بعض الطعام على أن تكمل بقية حديثها بعد ذلك فوافقت.. وفي محل الـــشبراوي بجسر السويس تناولا طعامهما وفي نفس المكان بقيا يحتـــسيان بعض المشروبات وتكمل حديثها مع صبري والذي بدأه معها :

- أنت حاصلة على ليسانس الحقوق.. ألم تجربي العمل في مهنتك..

- بعد وقت من تخرجي عملت في مكتب محامي لاكتساب مهنة المحاماة وقطعت شهران وأنا أعمل في مكتبه بعدها وجدته يحاول أن يقترب مني ويلمس جسدي مرّة ويمسك بأصـــابعي أخرى.. وفي يوم طلبني في مكتبه في صباح أحد الأيـــام ولّمـــا ذهبت إليه حكى لي قصة حياته وتناولت معه طعاما وبعـــد أن عملت له الشاي قال .. أريدك أن تكوني مديرة مكتبي بجانـــب تدريبك على المحاماة فوافقت ثم قال زوجتي أريد تطليقها فقلت له إعمل ما بدالك ثم قال في النهاية أريدك أن تكوني صـــديقتي فقلت له كيف قال أودعك أسرار فقلت له موافقة وماذا بعـــد يا سيّدي بعدما حسّيت إنه هايلخبط.. فقال أريدك الآن فقلت

له أنا معك.. ويبدو أنه فهم غلط فقال في مفاجأة لي.. إقلعي.. خشّي جوه في الأوضه الجوانية فيها سرير.. أدخلي واقلعي.. فقلت له بعد الخضّة الفظيعة التي أصيبت بها.. طيّب تحت أمرك بس بلاش النهاردة علشان تعبانه أوي دا أول يوم في الدورة الشهرية خلّيها بعد أسبوع تحت أمرك.. فقال والله دا وعد.. طبعا عيب يا أستاذ.. فسعد وقال يعني خلاص إتفقنا.. موافقة طبعا هوّ أنا عيّلة.. وكان لي عنده متين جنيه فقلت له أنا ليّ متين وعايزه عليهم متين كمان سلف علشان عندي ظروف فقال تحت أمرك.. لأ متين وفوقهم تلتميت جنيه مش سلف دا عربون اتفاقنا.. أنا تحت أمرك من هنا ورايح.. وخرجت من مكتبه هذا اليوم دون عودة وكانت هذه أول ضحكة على رجل في حياتي.

- وبعدين اشتغلت في حتة تانية..

- إشتغلت في مكتب محامية.. قلت أحاول أن اتعلّم المهنة عندها وبلاش الرجّالة علشان القلع.. عملت عند هذه المحامية ثلاثة شهور والأمور كانت حلوة.. شوية شوية راحت تغازلني وتبوسني وتحضني بمناسبة ومن غير مناسبة..وسكتت.. فقال صبري :

- وبعدين ..

- في يوم استفردت بيّ في المكتـــب وقالـــت لي إقلعـــي.. وسكتت..

- قلعت ..

- بصراحة قلعت علشان واحدة ست مش هاتضرني وكنت باسمع عن الحاجات دي وقلت أجرّب وعملت معايا كل حاجة بتتعمل بين الستات وبصراحة أنا إنبسطت لأول مرّة في حياتي وعرفت قيمة ومتعة الجسد وقلت ياه دا أنا عندي كتر وزادت عندي الثقة في أن أكون حرّة وكيف يكون جسدي أداتي..

- وبعدين ..

- بكفاية كده النهاردة أنا تعبت

- إنت تباخدي كام في الليلة..

- حسب الزبون..

- النهاردة عندك مواعيد..

- لســـه

- خللـــّي الليلة بتاعتي ..

- شقتك فين..

- لأ مش ها نروح الشقة..

- أمّال فين..

- أقصد كملّي حكايتك معايا.. أقصد كملّي حكايتك بعد كده عملت إليه.. البداية كانت إيه.. نروحو نقعد في مكــان تاني وهادّيك خمسيت جنيه مقابل وقتك..

- يعني نص ليلة.. ما فيش مــشكلة.. وإيــه فايــدة مــا أحكيلك..

- علشان أبقه عرفت حكاية تلات ستات..

- والباقي ..

- بكفاية إنت واتنين نموذج نقيس عليه الباقي..

- وبعدين ..

- أنا نفسي مش عارف ..

- طيّب يالّه نمشي من هنا المكان ضيّق وأنا اتخنقت ..

وأخذتها وذهبنا إلى حديقة المريلاند حيث الموسيقى والغنــاء وجداول الأوز.. وهناك انفرجت أساريرها وقالت :

- أشعر أنني سعيدة هنا..

- هذا هو المراد.. وبعدين..

- حكايتي طويلة أوي ..

- معاك للصبح..

- إنت عارف أنا عايزة إيه دلوقت..

- لأ مش عارف..

- عايزه أروح للمحامية

ولم تستطع أن تنبس بكلمة أخرى وكانت حد ضجرة لأنها تريد أن آخذها إلى الشقة.. كانت تريدني ولكنني أمسكت بيدها وقلت لها حتى تهدأ قليلا.. لازم آخد شقة عشانك.. وكانت المفاجأة أنها أخبرتني بأن لها بيتا في مكان بعيد في ضواحي العاصمة تأخذ إليه نوعية معينة من الرجال.. وكانت تقود عربتها بعصبية وودعتها عند فندق السلام وتواعدنا أن أذهب معها في يوم إلى بيتها في الضواحي لنكمل حكايتها..

٨

لم يكن بيت فاتن في الضواحي.. هو بيت في المقابر مقابل مساكن الدراسة أجّرته فاتن من حارس مقابر نجم الدين باشا.. هو غرفة وحمام.. نظيفة بها كل الإثاث العصرى ومعها مفتاحها والحارس أجرّها لها بمبلغ خيالي وهي التي قامت بتجهيزها وتشطيبها والعقد إيجار قديم وهو مؤجر من الخفير لها وكأنه يملك المكان وحتى لا يغدر بها في أي وقت عرّفته أنها قريبة لأحد ضباط الشرطة الكبار في أحد الأقسام القريبة وحتى تجعل ذلك صمام أمان لها.. وحقيقة كان للحارس مصلحة في هذا القسم فأرسلته إلى هذه الرتبة فقضاها له وأوصاه بها خيرا.. ومن وقتها وحارس المقابر يضرب تعظيم سلام لفاتن كلما ذهبت إلى بيتها هذا أو خرجت منه..

.. ذهب معها وشيء من العبثية في داخل نفسه المريضة المجنونة بمعرفة حياة هؤلاء النسوة وكانت هذه العبثية التي تداعب نفسه تتساوى مع كل ألوان الإنحراف الأخرى لأنه يضع نفسه نظريا في طريق الخطر مع نسوة خطيرات.. كل واحدة منهن تهوى الانتقام من المجتمع بشكل عميق في داخل نفوسهن.. كان شيء من اللامبالاة أو الجسارة أو تغيير للحياة ونمطها التي يعيشها بين بيت ماريانا وزوجته وأولاده وابنه المعتقل.. دخل البيت وهي تتقدمه والخفير يرّحب :

- مرحبا يا باشا مرحبا.. وينحني فقال له صبري في صرامة :

- إنت منين..

- من هنا يا باشا..

فقالت للحارس :

- دا باشا كبير أوي يا فرغلي..

- عارف عارف.. هوّ سعادتك تعرفي غير الباشوات الكبار.. أنا تحت أمرك يا باشا..

ولّما دخلا البيت اندهش صبري من جمال الغرفة والأثاث بها فقال وهو يجلس على مقعد قرب فراشها:

- كأنك في جزيرة بعيدة.. مش بعيد دا احنا في وسط البلد..

- علشان تعرف إني واحدة بتفكرّ كويس أوي.. بعيد عن الدوشة والناس وبفرشك تخلّي كل الناس يخدموك..

- حاجة غريبة.. بيت في المقابر بهذه الشياكة..

- مش كده وبس.. هنا فرغلي ده يجيب لك الممنوع..

- إنت .

- حشيش أفيون كل أنواع الفياجرا..

- إنتي بس هنا.. أكيد فيه حد عرّفك بأن هنا ممكن كل شيء يبقه تمام..

- واحدة صاحبتي.. ساكنة قريّب من هنا عاملة حاجة مخصوص زي دي..

- أنا جعان..

- تآكل إيه.. كباب .. سمك .. جمبري..

- على حسابي..

- حسابي وحسابك واحد..

- آكل سمك.. مين هايجيب لك..

- فرغلي وفسبته ساعة يكون السمك أدّامك..

.. فتحت الباب ونادت الحارس وفي كلمة واحدة قالت :

- سمك يا فرغلي.. مشوي.. تلات كيلو ولزومه.. وهات شوية فاكهة.. معاك فلوس..

- حاضر يا باشا تحت أمرك.. معايا كل حاجة..

- ما تتأخرش..

ودخلت إليه وقفلت النافذة المطلة على الشارع المظلم.. ولّما اقتربت منه كانت قد نزعت باقي قطع ملابس النقاب فوجدها ترتدي البنطلون الجينز وبلوزة تحت حـزام وسـطها خلعتـها وارتمت على فراشها وقالت :

- ماذا تريد

- لا شيء..

- ولماذا جئت معي ..

- لأسمع قصتك..

- وماذا بعد ..

- سأنصرف..

- أنت الآن في مملكتي.. لن تنصرف إلا بأمري..

- أرجوك إهدئي.. احكي لي..

- من أول الحكاية.. يعني أول طريقي مع الحرية..

- لو سمحت..

.. الأصل في البداية تعبت من الحياة الضيقة في هذا الحـي ومن مشاكل الفقراء وكان بيتنا منهم.. مللت الحاجة والحرمان والعوز وشح الأزواج.. في يوم خرجت من بيـت أبي الخـانق

وأدرت ظهري لكل من كان خلفي وأخبرت أبي وأختي بأنني ذاهبة إلى العباسية لأقضي اليوم مع صديقتي هناك.. مشيت في شوارع روكسي وتفرّجت على ما يخص النساء في محلات سوقها ثم غادرتها إلى شارع فؤاد في وسط البلد.. ولم يكن يشغلني عن حالة المشي في الشوارع إلا الفرجة على المحلات كما فعلت في روكسي.. وقفت لي السيارات.. عاكسني الشباب ورجال من مختلف الأعمار.. كنت مترددة في كل شيء وظللت أتابع السير وسط البلد حتى مللت

شوارعها لأنني لم أكن أبحث عن شيء واحد.. كنت تائهة حتى أوصلني تردّدي وتيهي إلى كورنيش النيل ومشيت على كوبرى قصر النيل حتى وصلت إلى الناحية الأخرى ميدان الأوبرا.. ومن كشك في الشارع المودي إلى النادي الأهلي إشتريت بسكوتا ووقفت أقضمه بين الكشك وبين نادي المعلمين.. كان عقلي يكاد يفرّ من رأسي وجسدي المهدود بدأ يتهاوى من كثرة التسكع في الشوارع.. وتمنيت في اللحظة أن أكون في بيت أبي لأرتمي في فراشي وأستريح.. وفي تلك اللحظة إذا برجل طويل القامة شديد البنيان يقترب مني قائلا في أدب :

- ممكن أكلّمك.. عايز أتعرف بيك ممكن..

ابتسمت وقلت :

- وإيه الفايدة.. أنا تعبانة من الدنيا كلها هاتعملّي إيه..

- ها عمل كتير.. تحت أمرك..

- إزاي ..

- ممكن نقعد ونتكلّم ..

- ممكن ..

- تحبّي تقعدي فين..

- في أي حتة..

- تعالى نعدّي .. قصر النيل أدّامنا..

.. قبل أن يأتني الرجل كنت حد متعبة ولما جلست قبالته في كازينو قصر النيل ذهب عني التعب كثيرا.. لأول مرّة أقعــد في كازينو.. وكان منظر البواخر الصغيرة والصنادل والقوارب التي تعبر ماء النهر في حركة شبه منتظمة تريحني فرحت أتأملها عن كثب.. وكانت بنايات جاردن سيتي في الناحية الأخرى مــن النهر شاهقة عاليه تكاد تلاصق بعض الــسحب في الأفــق.. وقلت لنفسي أهذا الجمال في مدينتي وأتعب وأتــوه.. لمــا لا تكون هذه اللحظة بداية حياة جديدة وأنسى بــيتي ومدينــة السلام..وكان الرجل يبتسم وهو يرقبني.. وأغــدق كلماتــه

الحلوة وكأنه لم ير مثلي من قبل وكنت أبادله الابتسامة وأشكره على مجاملته.. وجاء الجرسون بشراب ولّما انصرف قلت له :

- عايز مني إيه..

- أتعرّف بيكي ..

- ها تعمل بيّا إيه.. أنا واحدة زي كل الستات..

- لأ.. ما فيش ستات بالشياكة والجمال ده..

- إنت بتبالغ ..

- هيّ دي الحقيقة..

- إنت مين ..

- أنا سمير محي تاجر سيارات.. عندي أجنس في شبرا قرب النيل..

- متجوّز ..

- أرمل ..

- عندك ولاد..

- بنت وحيدة ومتجوزة في اسكندرية..

- إتجوز.. مش بتتجوز ليه..

- خلاص جرّبت حظي.. وأنا دلـــوقتي مـــشغول أوي في شغلي مافيش وقت..

- طيّب عايز منّي إيه ..

- إنت متجوزة ..

- مطلقة ..

- يعني وحيدة زيّي .. إسمك إيه..

- فاتن..

- منين ..

- من كل مصر ..

- حلو كلامك أوي ..

- إنت مجامل..

- ممكن نتغدّي سوا

- أنا فعلا جعانة بس ماليش نفس..

- نفتح نفس بعض..تاكلي إيه ..

- اللي تحبيه ..

وتناولنا طعاما شهيا ومرّ الوقت بسرعة وشعرت بـأنني لا أشعر بشيء.. تائهة مرّة أخرى.. لكن كان هنـاك شـيئا في داخلي يرتاح نحوه وتركت نفسي له.. كلّما قال كلاما أو رأيا في شيء أوافقه عليه.. ومرّ وقت آخر لاذ كلانـا بالـصمت وقطع صمتنا قائلا :

- ممكن تشوفي بيتي..

- فين بيتك

- عالنيل بعد روض الفرج..

ومشينا حتى باب النادي الأهلي حيث يركن عربته وركبت بجواره طواعية ولمّا وقفت معه في المصعد حتى الطابق العاشـر مسك بكف يدي وشدّ عليه فألقيت رأسي على كتفه وشعرت أنني استسلمت.. ولمّا دخلت معه قفل الباب ثم شـدّني إليـه واحتضني وقبّل رأسي وشعرت بجسده يلامسني فألقيت بحقيبتي على مقعد.. وهرولت إلى حمامه.. أمضيت وقتـا في الحمـام وشطفت جسدي بالماء الفاتر ومشطت شعري وكم كنت أتمنى أن أبدل ملابسي.. وخرجت إليه وأنا أرتدي ملابـسي كمـا دخلت بها فقال :

- ترقصي معايا ..

- مش بعرف ..

- أعلمك ..

ورحت أرقص معه الرقص الأفرنجي على موسيقى هادئــة وكان هو الذي يحركني وكان يشدني إليه وبقوة ويلامسني بقوة ثم يبعدني حتى شعرت بأنن أريد أن أذهب إلى فراشه.. انهارت قواي وأريد أن أعطه كل جسدي.. أريد أن استــسلم لهــذا الرجل.. بعد ذلك راح يقبّلني ويضمني إليه في رقــة بالغــة لم أشعر بها في حياتي من قبل.. وكانت رعشتي شديدة تسرى في جسدي من شعر رأسي حتى أسفل خصري.. هل ســيتزوجني الليلة.. هل يخترق هذا الجسد الذي لم يكتشفه رجل من قبل.. هل يستطيع أن يشعرني بأنني امــرأة.. وأخــذني إلى الفــراش وانطويت تحته وتهاويت وجرّدني من ملابسي ورقة بعد أخرى وراح يداعبني كثيرا حتى رحت في غيبوبة لذيذة كأنني أحلم.. إن هذا الرجل يعشقني نعم أنا عاشــقته ليتــه يظــل معــي أبدا..وبكامل إرادتي منحته جسدي ورحت أحلم معه وأتمتــع حتى أنني شعرت بأنني أولد من جديد وأن هذه المــرأة.. هــي أنا.. وأن هذا رجل حقيقي..

بلغت الساعة العاشرة ونحن مازلنا في حلم قد يأخذنا حتى الصباح.. لكنني اعتذرت له وطلبت منه أن أغــادره.. ولــو

تركت نفسي لنفسي لبقيت معه حتى آخر عمري.. وأصــرّ أن يوصلني إلى مدينتي البعيدة في شرق القاهرة لكنه عرج بمركبتــه نحو العتبة واشترى لي محمولا.. وفي الطريق حتى منشية البكرى حدثني كثيرا عن حياته وقرب مدينة السلام أخرج نقودا ورقية ودسها في يدي قائلا :

- أرجوك .. إقبليها مني.. وعلى استحياء قلت له :

- لا أريد نقودا.. أريدك أنت..

- إنت كلك ذوق.. إنت كلك مشاعر جميلة.. إنت أحلى ست في الدنيا ..

- صحيح ..

- صحيح والله ..

- إنت الدنيا الجميلة اللــّي ما شفتهاش قبل كده ..

* * * * *

.. وأعربت عن فجورها فخلعت بنطلونها وعادت عاريــة واتعدلت على جنبها غير مبالية متابعة سرد حكايتها :

- دخلت البيت على أطراف أصابعي وكــان الليــل قــد انتصف..وجدت أبي نائما في غرفته وأختي هي الأخرى نائمــة

لا تدري بي.. وسعدت بذلك ودخلت غرفتي خلعت ملابسي وأخذت ملابس أخرى ودخلت الحمـــام لاســـتحم وغنيـــت أغنيات لصباح وفايزة بصوت مسموع فأنـــا الآن في داخـــل شقتنا.. وفي المرآة وجدت عيني واسعة كأنني رأيت بهـــا دنيـــا جديدة وقلت لنفسي وأنا أضحك بصوت عال.. يا فـــاجرة.. ونمت حتى ظهر اليوم التالي وخرجت إلى صالة البيت وجلست مع أختي وتحدثت معها كثيرا وأخبرتها أن صديقتي أهدتني هـــذا الموبايل فاندهشت قائلة.. هو فيه حـــد في وســـطنا بيهـــادي بكده.. ولم أبالي..وخرج أبي لصلاة العصر ولمّا رجع أعطـــاني تلتمية وخمسين جنيه هو باقي معاشه لأشتري لـــزوم البيـــت وأمشيّ الشهر كالعادة.. وقلت لنفسي يا حسرة كنا بنعـــيش إزاي بالفلوس دي.. وكدت أطير من الفرح عندما وجدت في ظرف سمير الذي دسه في يدي خمسيت جنيه.. وحلفت أجيب اللـــّي نفسنا فيه كله وما جبنهوش قبل كده.. وسألت أختـــي نفسها في إيه فأخبرتني إنها تريد تفاحا.. لن أطيـــل عليـــك.. رحت السوق جبت ما لا يخطر على بال.. وما لم يدخل بيتنـــا من قبل.. ولمّا رأى أبي كل هذا إندهش وقال: دا كتير أوي يا فاتن جبتي دا كله منين.. رديت عليه في هدوء.. أصل صديقتي إدتني قرشين سلف يا بابا.. فقال هوّ فيه حد بيـــدّي ســـلف دلوقتي.. قلت له يا بابا مانا هاشتغل قريّب وهارد لها الفلوس..

ما تشيلش هم.. فقال أبي وهو يدعو لي.. يا ريت يـــا بـــنتي تطلعي من البيت وتشتغلي وتتجوزي.. ربنا كريم يا بنتي..أظن كفاية كده يا أستاذ صبري..

- لأ مش كفاية كملي ..رحتي لسمير تاني..

- تاني وتالت قعدت أسبوع أروح له.. وكل مرّة ربعميـــة خمسية .. وبعدين .. وسكتت..

- وبعدين إيه..

- في يوم واحنا مبسوطين أوي مع بعض قلت له اتجـــوزني فسكت.. ولمّا ضغطت عليه في أمر زواجي في أيام أخـــرى.. إنقلب فجأة وقال بصوت عال :

- إزاي.. قلت له زي الناس.. هوّ أنا وحشة ماليش بالمقام فتعصب أكثر وقال :

- إزاي أتجوز واحدة رقدت لي في منتهى السهولة..

- قمت وارتديت ملابسي وشتمته شتيمة مغمسة من بتاعة مدينة السلام وخرجت من بيته بلا عودة..

- وبعدين ..

- بعدها لبست النقاب ورتبت الأمور..خلاص بقه عندي خبرة وابتديت أعرف ناس كويسة..

- يعني إيه كويسة.. ناس ما يقلش الواحد عن خمسين سنة.. وناس في وظايف محترمة وأصحاب أعمال ومصانع ومحلات وتجار وصحفيين ومحاسبين ومهندسين.. كدة من واحد لواحد..

- بقة ليك كتير في الموضوع ده..

- سنة ..

- خلّصت كل الرحالة ولاد الناس..

- لسه ..

- عملت كام ألف ..

- جبت العربية وخدت البيت ده.. وخلّيت أبويا واختي عايشين كويس وجبت ليهم شغالة..

- والخطة الجاية..

- أشتري شقة ..

- مش حرام عليك تعملي كده بالنقاب ..

- أعتذر لكل منتقبّة .. أنا مش أد النقاب.. النقاب يداريني بس.. أنا مش متدينة وعمري ما كنت متدينة ولكن ربنا جوايه..

- إنت بعيدة أوي عن ربنا.. إرجعي زي ما كنتي.. وهـــا تتجوزي..

- أتجوز مين.. ومين يتجوز من مدينة السلام.. الـــواقفين بس همّ اللي بيتجوزوا منها ..

- أبدا مدينة السلام فيها النـــاس المكـــافحين والمظلـــومين والعجانيين والفرانيين و ..

- أعمل بده كله إيه.. عرضت على سمير الجواز احتقـــرني وقال إني رقدت له.. قلت له هابقة مخلصة لك.. قال وإيـــش ضمّني..

- الحقي نفسك وتعالى اشتغلي معايا في الـــسنتر يعـــني في حدود شهر نبتدي .. شوفت آخرة الرقاد..

- بكام ها تشغلني عندك..

- مش أقل من ألف وتعيشي شريفة وتاكلي لقمةحلال وها تلاقي اللي يتجوزك بس إنوي..

- مينفعش.. أنا بقه لي سنة شوف عملت إيه..

- ها تخلصي بسرعة ومفيش راجل ها يعبّرك بعد كده..

- مش أقل من عشر سنين أكون عملتهم وبعدت عن كل الفقر..

- بالعكس الفقر هايجيلك في حاجات تانية.. في صحتك في دماغك.. على فكرة كل النسوان اللّي بيمشوا في الـسكة دى آخرها بيتجننوا أو بينتحروا.. صدقيني دي سكة آخرها سودة..

- لأ مينفعش..ماقدرش أرجع تاني..

- جبتي كام راجل هنا ..

- إنت أول راجل.. علشان تعرف مقدارك عندي..

- على فكرة عايزك تحاولي تخدميني..

- في إيه..

- تعرفي رتبة في البوليس..

- أعرف..

- على فكرة ليّ ابن سنه صغيّر أوي واعتقلوه..

- يا نهار إسود ليه.. وساكت يا برودك يا أخي.. يا حبيب مامته..

- يا فاتن مفيش وقت للولولة.. بكينا كتير وحزّنا أكتـر.. مستعد أدفع خميس ألف بس تعاوني معايا.. إنت عارفه نـاس بصحيح..

- بقولّك أعرف عمداء ولواءات..

- من جنيه لخمسين ألف..

- لأ أنا ست جدعة أوي من غير فلوس أنا اللّي هـــادفع..
إسمه إيه..

- محمود..

- يا حبّة عيني يا محمود..

- إمتى تردي عليّ ..

- إديني كل بياناته..

وأخرجت ورقة من ورقات معي بصفة دائمة فيهـــا كـــل بيانات محمود.. وأخذتها والدموع في عينيها وقالت :

- حبيب قلبي بقة له كام سنة..

- أربع سنين..

- يا لهوي وساكت..

- لأ تايه بس.. لو مش تايه ما كنتش جيت معاك..

- يعني إنت تايه وأنا مرادك..

- زي ما إنت عايزة يا فاتن المهم حاولي تخلّصي الموضوع ده بطريقتك..

- سيبها على الله.. تعالي جنبي.

- أنا متجوز يا فاتن اختشي وحزين على ابني..

- ما ليش دعوة جوازك.. ..ورقعت ضحكة أقلقت الأموات في قبورهم..

- حرام عليك .. فرغلي هايسمعك..

- كُـ ... دا معرّص .. أنا يهمني حد.. متجوز جايلي ليه.. علشان خاطر ابنك تعالى علشان ما تزعلش عليه أوي .. دانا دوا يا صبري بيه..

- معلش سامحيني النهاردة خلّيها في يوم تاني..

- هوّ إنت •نغة.. عيّل صغير عيب عليك تعالى يا صبري.. أحسن أقوم لك..

- ما فيش فايدة أنا لوح تلج ..

- إنت راجل غريب ما عندكش إحساس هوّ أنا جيتك هنا ليه..

- معلش خللي المرة دي تعارف.. عرفت قصتك وعرضت عليك الحلال..

- يعني توعدني تيجي معايا تاني..

- أوعدك.. بسْ خلصّي موضوع محمود..

- خلاص يا صبري.. أنا جاية معاك.. ضيعت عليّ الليلة..

* * * * *

كالعادة كانت شديدة القلق عليه لقد انتصف الليل و لم يأت إلى أين ذهب.. ولو أنها كانت تعلم بتفاصيل آخر حكاية له مع فاتن لشقّت قلبه بأظافرها.. وقعدت في فراشها ترضع إبسرهيم من صدرها وآذنها تنصت لأنها تسمع وقع أقدامه على السدرج قبل أن يطرق الباب.. ومضي بعض الوقت ومع دقات ساعة البيت الواحدة والنصف طرق صبرى الباب فهلعت إليه وشدّت الباب بعنف حتى خبط الحائط وقالت في ألم :

- حرام عليك كنت فين قافل الموبايل ليه.. كنت مع مين ..

وارتمت على صدره المسكينة تبكي بحرقة.. لكنه راح يربت على كتفيها ويقبّل رأسها وحملها إلى الفراش حيث يرقد ولده الذي قبّله منحنيا فوقه بحنان وكان إبراهيم يغط في نوم عميق.. وأمسك يدها كالعادة وراح يقبّل أناملها وهو يقول .. إنني أقضي مصالح.. كنت مع أحد موردي الماكينات والعدد والأدوات للمصنع.. أسعار وأصناف وفلوس وحكايات وروايات إنت عارفة إن موردين المكسن دول كان أصلهم

أسطوات والأسطوات زي الحلاقين رغايين.. وكالعادة تنسال الدموع من عينيها وتطمئن ثم تحتضنه.. وقالت له هذه المرّة :

- إذا كنت مع الناس الغلابة فأنا من الناس الغلابـــة.. ،إذا كنت مع الأسطوات فأنا برضه أسطى.. وآخذ كـــل منـــهما يضحك من أعماقه.. وقام ليخلع ملابسه ويرتدي ملابس النوم وقال وهو يجلس على حافة السرير :

- المشكلة مش فى الناس الغلابة.. الغلبان بتجيبه وتشغّله.. لكن الناس إللىّ راحت في دنيا تانية عمرهم ماهايرجعوا..

- تقصد النسوان اللي شافت حالها ..

- أيوه دول لقوا الطريق دا فلوسه كتير حالتـــهم النفـــسية اتغيرت وكل واحدة منهن تبتز أي راجـــل خاصـــة التجـــار وأصحاب الأعمال بيصفوا حساباتهم..

- أسوأ شيء في أي مجتمع إن الناس تدخل دائرة الانتقـــام وكل ما المجتمع افتقر وبقت دخوله هشة دوائر الانتقام بتقطّـــع المجتمع كله لأن النـــاس بتحـــارب نفـــسها وبتهـــدر القـــيم الاجتماعية..

- هيّ المشكلة دلوقتي إن كل واحد في البلد مش شـــايف غير نفسه.. المجتمع ساب أي راجل دلوقتي مش عارف مراتـــه

بتروح فين وأخته مع مين وبنته بتروح الجامعة ولا لأ.. ومافيش حد بيسأل التاني لأن السؤال بيعتـــبروه تـــدخل في حريتـــهم الشخصية.

- كل الناس حاسة بكده ويتكلموا بس ما حدّش بيقــول حل لأن الحلول الإجتماعية في أيد من يملك.. يعني عايز تـــوفّر أعمال شريفة للناس لازم فلوس تبني مصانع وتعمل شـــركات ودي في إيد الناس اللـــّي بتسيطر على ثروة البلد والمشكلة أن الناس اللـــّي المفروض تعمل كده بتسرق ثروة البلد علـــني في صور مختلفة وعيني عينك وما يقدرش أي حد يعمل حاجة لأن الحرية سقطت من زمان والعدل راح شوية شـــوية والكربـــاج شغّال والسجون مفتوحة..

- أنا في دماغي حاجات كتير عايز أعملها..

- خللّي في دماغك حاجة واحدة ..

- أنا نفسي أركز في حاجة واحدة..

- خلّص البرج واعمل المصنع وأقسام البيع والتوزيـــع ولم الناس اللّي في شوارع حيّنا بس كفاية وشغلّهم وبكفاية علينـــا حي الزيتون والحلمية نحل مشاكل البطالة فيها ونعمل للنـــاس

حقوق عمل ومرتبات تحقق ليهم حياة كريمة.. تعرف يا صبري إنت عيبك إيه.. وسكتت.. فقال لا :

- قولي عيبي إيه..

- وما تزعلش يا حبيبي.. والله ما تزعل..

- قول لي والله ما هازعل..

- إنك بتتكلم كتير عن الناس من غير ما تعمل حاجة ليهم.. وبتدّور على مشاكل الناس في شكل حكاوي وفاكرانك ها تصلّح الكون وبتتفلسف زيادة عن اللزوم ومش واقعي.. إنت بتوه يا صبري.. الحياة والدنيا متوهّاك من واقعك ومني حتى أنت مع نفسك تايه.. عيش معانا بس حد يسيب برج زي ده ويروح للأسطوات والناس اللي انحرفت.. إنت مالك ومال النسوان اللّي بقت مومس. ما لنا ومال كامل وجمعة ومراته و.. و.. إنت فاكر إني مش حاسة بيك.. حاسة بكل حاجة وسيباك بقول ربنا يهديه ويرجع معانا بكل مشاعره وفكره.. هوّ فيه حد يلاقي الثروة دي وابنك إبراهيم الطفل وأنا وابنك محمود المعتقل من سنين ومش عارف تطلّعه.. أقسم بالله إنت لو ركزت شوية في حياتك ها تعمل حاجات كتير.. هوّ فيه حد يسيب ابنه كده في المعتقل ومعاه فلوس الدنيا ومش عارف طريق سكة.. دا الناس الغلابة اللّي أقل منّك بكتير

شافت سكك وطلّعت ولادها.. وانت تايه ومشتت ياريت تعيش الواقع بتاعك ميّة الميّة.. إذا عشت واقعك القوي هذا وما جرتش ورا واقع الناس واقعك القوي ها يحل مشاكل كتير من الناس بشكل طبيعي وبدوران الحياة وبسنة الحياة.. تعرف إحنا عيبنا كلنا إيه.. بنتكلّم كثير زيادة عن اللزوم يا ريت :لو كل واحد يشوف حاله من غير كلام.. أنا عارفة انك راجل نبيل جدا وتبحث عن حلول وبتحب تشارك الناس مشاكلها وعايز الناس كلها تبقه كويسة.. هذه حقيقة إنت راجل بتعيش بشفافية عالية جدا وده ما ينفعش في مجتمع زي ده.. إرجع يا صبري عيش بواقعية في حالك بس وإذا انصلح حالك هاينصلح حال ميّة جنبك وماعنديش كلام أقوله أكثر من كده.. يا حبيبي أنا مراتك وحبيبتك وده ابنك إبراهيم خد بالك منه ومني خد بالك من محمد وبسنت.. وأول حاجة ندّور عليها كلنا معاك نطلّع محمود المسكين الغلبان البريء من معتقله كفاية كده على الولد.. ما عنديش كلام تاني وإذا كنت غلطت فيك اضربني يا صبري أعمل اللّي إنت عايزه فيّا بعد الكلام ده.. أرجوك إصحى يا صبري..

وراحت ماريانا تبكي بصوت عال و لم يستطع أن يثنيها عن بكائها الشديد لأنه راح يبكي معها بصوت أعلي من صوتها ..

* * * * *

.. وإذا كنت ترى هموم الناس وآلامهم وتشعر بها أكثر من همومك فلابد من تحرر سياسي يحقق آمالنا ويحل مشاكلنا في الحياة.. وعندما يصل إلى الناس جميعا بأن معيشتهم لا ترضى أحدا فنحن إذا وصلنا إلى قمة الفردية التي يحياها كل منا منكفئا على نفسه، فهل الخوف صنع الانكفاء والاختفاء وأن حياة كل منا تحت الصفر.. إنه حتى الحصول على الحقوق المادية المكفولة لفئة ما لا تؤدي إلى تحررهم بقدر ما تؤدي إلى تحقيق أهداف بطونهم وفروجهم وفي إشباع هذين المطلبين فقط هو هزيمة للعقل والإرادة الإنسانية لأن إحياء العقل هو النضال المستمر والطويق الوحيد لكي ينال الناس حقوق الحرية والعدل، لكن نحن في مجتمعنا نجري جميعا لإشباع البطن حتى ولو كان الطعام فول بسوسه وجبنه بدودها.. وإحياء الفرج حتى ولو كانت امرأة شرشوحة أو حمارة ترتدي ثوب امرأة وهذا هو الانحطاط الذي وصلت إليه كثير من المجتمعات المتخلفة.. ويجب علينا في مجتمعنا أن نتزع أنفسنا من هذا الانحدار، ولن يكون ذلك إلا بتحقيق حقوق وواجبات متساوية ومتوازنة لكل أفراد المجتمع بالعدل وأن يكون كل إنسان في ذلك قد حصّل قدرا كبيرا من الحرية مع نفسه ومع مجتمعه ولن يكون كل ذلك إلا إذا حصل

كل فرد في مجتمعه على اللقمة من رغيف خبز يــوزّع علــى الجميع بالعدل، ولابد لكل مجتمع في هذه الدنيا أن يزرع طعامه حتى ولو كان ذرة صفراء ليخبز منها أردأ أنواع الخبز ليأكله.. المهم عندي خبزي حتى ولو كان بتاوا ناشفا وهذه حقيقة أول الطريق أن تكون حرا وسيدا ولا تنتظر القمح من أحد حتى ولو كان هذا القمح يعطينا جاتوهات.. كن حرا وكل مــن إنــاء بيتك حتى ولو كان لقيمات خبز جافة، المهم أن يغنيــك مــا زرعت عن الناس.. أم أنك تريد أن يطعمك الغــير جاتوهــا وتنتظر قمحه وتنتظر مساعدته لك وتبقى أبدا عبدا ذليلا.. إذا أردت حقا أن تكون سيدا فازرع ما تأكل واصنع ما تلبس وما تركب.. إننا نندرج تحت سمات مجتمع أجساد بلا رأس .. أين رؤوسنا.. متى طارت وهل نمشي ونرى حياتنا حقيقة أم أننــا أصبنا بالعمي ونعيش في الحياة ونحــن نــبرطش في الطريــق بالبراطيش.. ليس لنا رؤوس وأصبحت رؤوسنا تحت إرتديناها في أقدامنا براطيش.. إننا نختنق ونختنق لأننا جميعا نتقاتل علــى الفتافيت التي ألقاها لنا اللصوص وعــدنا جميعــا في مــستنقع الفقر..

.. وقامت ماريانا وهو يكلّم نفسه ويفتح نافــذة الغرفــة متطلعا إلى الأفق واحتضنته من ظهره وقالت:

- يا حبيبي.. تعبتني معك وأشعر أني متعبة جدا وأن جسدك لم يعد لي..

.. ومرّت أطراف يدها أمام وجهه وهي تطفق :

- لامس أصابعي إنني لا أشعر بها.. إمسك أصابعي بقـــوة حتى أحسّها وأنها مازالت ضمن أعضاء جسدي..

وأمسك بأناملها وراح يضغط عليها فشعرت بها وقالت :

- الحمد لله إنها ما زالت معي..

ورجعت تحتضنه بقوة من ظهره كأنها تمسكه أن يفر منـــها وألقت بوجهها قرب كتفه وتابعت تقول وكأنها ترجوه رجـــاءً عميقا كما رجته كثيرا كل يوم..

- لا تكن فيلسوفا فالفلاسفة عاشوا في زمن قديم وكـــان كل شيء حولهم يسير في بطء..

- أبدا أنا أتكلم عن الحالة العامة.. ولماذا لا تبقي الفلـــسفة أبدا..

- كانت الفلسفة تبحث عن الحقيقة في زمان كـــان قبـــل الأديان.. ولدت الفلسفة هنا وهناك في بلـــدان العـــالم لتقيّـــد شطحات الناس الحائرة.. لتوقف أو تحد من حـــيرة النـــاس..

جاءت الأديان بعد ذلك وأصبحت الفلسفة بعدها لا معنى ولا لزوم لها..

- إن الأديان لن تمنع الناس عن التفكير..

- إن كل الأديان السماوية إذهب إلى أي منها لتجد فيها جميعا حلا لمشكلات البشر في أي مكان في العالم.. تدّين يا صبري في مجتمع يتيح حرية الأديان.. إننا نريد مجتمعا يتدين فيه الناس..

- أبدا إننا نقيّد الناس في معتقداتهم ونقتل من ترك دينه وذهب إلى دين آخر ونمنع الأديان والمعتقدات الأخرى من أن تقوم.. إنه لا دين بعد الأديان السماوية.. وعلينا أن نمنح وأن نطلق حرية العقيدة أكثر من ذلك طالما أنها لا تمس ذات الله أو أي من الرسل.. دع الناس يعتقدون فإنهم جميعا سيعودون إلى الدين الحقيقي.. فإذا انتقل الإنسان من دين إلى دين فلن ينقص من دينه شيئا ولن يزيد الدين الذي انتقل إليه دينا.. فلماذا نحارب ونقتل من انتقل من دين إلى آخر.. أتركوه فإنه في نهاية الأمر سيعود إلى الحق ومن لم يعد فالله جدير بمحاسبته.. الله هو الذي يعاقب.. ألا تدركون..

- إن الناس تدرك كل شيء حتى الجهلة منهم.. ولكننا فعلا في حاجة إلى مزيد من الحرية في العقيدة وأن تكون حرية

حقيقية دون الإضرار بالناس والمجتمع وأن نمنع التعصب عنـــد الناس الذين يحاربون ويقتلون من يترك دينه..

- جهل الناس في كثير من أمور الـــدين والـــدنيا يجعلـــهم يحاربون بعضهم دون أدنى داع ولا أعرف أي عقل في هـــؤلاء الناس الذي يحاربون الناس في حريـــة عقيـــدتهم أو في حريـــة دنياهم.. إن كثيرا من العادات والتقاليد وما اعتدنا عليه مـــن تعصب من قرن إلى قرن لهي عادات أو تقاليد بالية، وكثير من أمور العرف السائدة في مجتمعنا لا لزوم لها وإن كل هذه أمـــور جهل وعجز توقف المجتمع الإنساني عن تقدمـــه.. فلمـــاذا لا ننطلق..

- إلى أين ننطلق؟.. وكل واحد منا له هدف ويحقق هدفه بأي أسلوب فكيف تحتكر زراعة أو صناعة أو تجارة وأنـــت في بلد فقير يحتكره الحرمان والحاجة في كل شـــيء.. اذهـــب إلى الدول الغنية التي فيها النظام الرأسمالي بلغ قمته.. هنـــاك قمـــة العدالة والحرية والديمقراطية.. لا يوجـــد فقـــير أو عريـــان أو محروم.. وإذا وجدت هؤلاء فهم الذين افقروا أنفسهم.. بمعـــنى واحد غاوي فقر أو عري وبيحب بيقة عاطل أو صايع أو يقلع هدومه في الشارع.. هذا ليس من النظام ولكن مـــن الأفـــراد

المرضى.. ومع ذلك ففي هذا المجتمع يعالجون مثل هذه الحالات لأنهم يعتبرونها حالات نفسية أو مرضية..

- نحن هنا النظام هو الذي يصدّر للنـــاس الفقـــر جملـــة وتفصيلا.. لأنه في الأساس ليس نظاما لكنه شكل ديكـــوري ورقي مملوء بالشعارات أقام نظامه على التزوير والزيف وارتضى لنفسه هذا فماذا تنتظرين من نظام أقيم على الكذب والتزوير.. تزوير إرادة شعب بأكمله.. بل شعب جرّدوه أولا من إرادته.. ولن يكون نظام مثل هذا إلا وأقامه المفسدون لأن المفسد يـــبني كل ما هو هش لأنه يسرق حقوق الآخـــرين علنًـــا.. إنهـــم يسلطون الخوف والقهر ويوزعونه على الناس جملـــة وتجزئـــة والناس العزّل تم تجريدهم من كل عوامـــل الحيـــاة الإنـــسانية الكريمة.. كان الناس من زمن قريب في غيبوبة ولكن الناس في بلادنا الآن ماتوا.. وما زالوا يضربون الموتى..

- إننا للأسف يا صبري وصلنا إلى الطريق المسدود.. وماذا بعد ذلك ..

- أنت شاركتيني شطحاتي وعدت فيلسوفة ..

- هذا أكبر آفة أن يتحول النـــاس إلى فلاســـفة.. أقـــصد يحكون ويحللون اذهب إلى أي مكان واذهب إلى دار الجاهـــل والعالم تجدهم يتكلمون كلاما واحدا فالوجع الآن لدى الجميع

والكل يصرخ ويستغيث ولكـــن هـــؤلاء جميعـــا يـــستغيثون ويصرخون ويتكلمون وهم في مقابرهم والمـــوتى لا يـــسمعهم أحد ولكنهم يُسمعون أنفسهم.. صبري أرجوك كفاية.. تعالي ننتهي من تشطيبات السنتر.. تعـــالى نـــذهب إلى محمـــود في معتقله.. تعال نجهّز أسماء العاطلين في حيّنا..

* * * * *

.. ولأننا لابد لنا أن نعيش في الواقع ذهبنا في يوم إلى محمود في معتقله وكالعادة حملت السيدة الكبيرة معها زادا يكفي كتيبة بأكملها وكما دخلنا المعتقل مرات قبل هذه بالواسطة دخلنـــاه هذه المرّة.. وفي هذه الزيارة كان رجاء محمود شـــديدا لأبيـــه بالخلاص وكان الولد مرتبكا ولّما قال له والده :

- لماذا ترتعش يداك يا بني.. إنني أراك مرتبكا .. أخاف أن تصاب بالرعاش..

فراح الولد في بكاء شديد وراحت أم ماريانا وماريانا تربتان عليه وتبكيان معه حتى أسكتاه.. ولّما هدأ قال أبوه له:

- أرجوك يا بني هل هناك شيء.. هل تخفي عني أمرا..

- نعم يا أبي .. منذ مدة طلبوا مني أن أوقع على توبة ..

- ما معني أن توّقع على توبة.. وتوبـــة علـــى أي شـــيء إقترفته..

- يا أبي اترك هذه الفلسفة الحائرة التي لـــن توصـــلنا إلى شيء.. أنا أول إنسان يعرف على مـــاذا أتـــوب.. لم أزنِ و لم أسرق و لم أنصب و لم أجاهد في سبيل الله.. و لم أحفظ قرآنـــا و لم أشترك في إزدراء إخوتي المسيحيين أو أتعصب على شيء.. أنا مثلك يا أبي في فكرك .. أنا أول واحد أعرف أنني بـــريء مثل لون الحليب ولكنهم لم يعجبهم أن أكون بريئـــا فلوثـــوا الحليب .. كل هذا أعرفه يا أبي..

- خلاص يا بني خلاص الله يكرمك لقد قلت كل شيء.. قل ماذا فعلت بعد ذلك..

- جاءوا إلينا جميعا وركزوا في عرضهم هذا على الأطفـــال والأبرياء على أن نمضي على تلك التوبة فوقعّت ..

- يعني معنى هذا إنك اعترفت ضمنا أنك أرتكبت شـــيئا.. لماذا تفعل هذا..

- يا أبي إنهم يعرفون أكثر مني ومنك أنني لم أفعـــل شـــيئا البتة.. يا أبي الخلاصة أنهم قالوا لنا من يوّقع على التوبة ســـوف نفرج عنه وهذا إجراء أوّل..

- خلاص يا صبري إنه يعرف أكثر منّا.. وطالما هذا الإجراء ينجيه وماذا في أيدينا حتى نفعل.. إننا لا نعرف شيئا ولا ندري ماذا بعد ذلك.. ولكن دعنا نعتقد أن ما يعتقده محمود أو ما فعله محمود صحيحا.. خلاص يا بني على بركة الله..

- يا أبي إنني غريق دعني أتعلّق في قشة ربما يكون منها إنقاذي..

- لكنّي أسمع يا بني أن من يكتب توبة ويفرج عنه يصبح لهم مرشدا..

- قلت للضابط الذي يوقّعني على التوبة نفس كلامك لأنني سمعت ذلك.. فقال الضابط لست أنت يا محمود الذي نستخدمه مرشدا.. فسكت وشعرت بشيء من الاطمئنان ووقعت..

وأمسكت ماريا بكف يده وقبّلته ورجته قائلة :

- بالله عليك يا محمود هل هناك شيء آخر..

- لن يكون هناك شيئا إلا وأخبرتكم عنه.. لكنني أسمع أن كل من وقّع على توبة سيرحّلوه إلى معتقل وادي النطرون ولكن لا أحد يعرف الحقيقة..

- وادي النطرون أين وادي النطرون هذا يا محمود..

- تسألني عنها يا أبي وأنا لا أعرف حتى الألف مسكن القريبة من بيتنا والتي كنت أتمنى أن أراها قبل اعتقالي..

وضحكت كل من السيدة الكبيرة وماريانا ثم قالت السيدة في رقة بالغة :

- عندما تخرج يا محمود لن ترى الألف مسكن فقط ولكنك سوف تأتينا وتقيم عندنا وتعرف حي حدائق الزيتون ..

- إنني أتمنى يا سيدتي الفاضلة أن أرى الشارع.. أي شارع وأمشي فيه حرا..

- سوف تخرج وترى الدنيا كلها.. واتركها على المولى يا حبيبي ..

وراحت تقبله من وجنتيه :

وامتعض والده وتبرّمت شفتاه وطفق يقول :

- فرضا أنهم رحّلوك إلى وادي النطرون هذا.. كيف لنا أن نعرف..

- سوف أبلغ أي زائر لزميل هناك أن يخبركم في التليفون بهذا الخبر.. وفي مثل هذه الحالات يقوم كل منّا بإبلاغ كثير من الزائرين بأخبار الأهل بأي أخبار جديدة والزائرين حريصون على عمل ذلك لأنهم يعيشون نفس الظروف مع معتقلهم..

- والله لا أعرف كيف أذهب إلى هذا الوادي.. أين يقع وفي أي طريق..

- يا أبي من يسأل لا يتوه.. هذه ليست مشكلة.. المهم يا أبي ربما يكون هذا طريق فتح الأبواب..

- على الله يا محمود..

وهمست السيدة الكبيرة في أذنه :

- لو أعطيتك نقودا هل تستطيع أن تخفيها..

ضحك محمود وقال :

- لم تعد هذه مشكلة الآن.. يبدو أن رتبة من السجون قد وصيّ عليّ بألا يفتشوا زنزانتي بشكل جيد.. لاحظ كل من معي ذلك وربطت هذا الأمر بالعميد الذي تدخلون بواسطته..

- الحمد لله يا بني.. خد.. خلّلي بالك.. خمسميت جنيه هات اللّي نفسك فيه يا حبيبي..

إندفع محمود نحوها وقبّلها من وجهها واحتضنها فاحتضنته بقوة وهي تقول :

- ليتني يا حبيبي أستطيع أن أن أفعل ما تتمناه.. وراحت تتمنى وترفع كفيها إلى أعلى وتدعو ثم بادرته:

- كم ولدا معك ..

- خمسة ..

- خذ مثلهم وأعطي كل منهم مائة ..

- هذا كثير عليك يا سيدتي..

- يا بخت من قدر وعمل يا بني..

ودست في يده خمسة أخرى وهي جد ممنونة وراحت تقول :

- سوف تخرج.. وسوف ترى إبراهيم وحي الزيتون وسوف يكون لك شأن كبير في إدارة السنتر.. إنك ابن من ملأ علينا البيت بالحب والحنان..

- من إبراهيم يا سيدتي ..

- إنه طفل صغير جميل سوف يكون لك سندا..

- أين هو ولماذا لم تأتوا به..

- تركناه في حضانة أطفال إلى أن نعود إليه.. إنــه شــقي ويبكي كثير حتى لا نزعجك..

وكان كل من ماريانا وصبري يضحكان من كل قلبيهما.. ومضت دقائق أخرى وانتهت الزيارة وكان وداع محمود هــذه المرّة فيه الدموع قليلة لشعور الجميع بأن هناك بصيص أمل..

* * * * *

وفي اليوم التالي من زيارتي لمحمود كان عليّ أن أذهب مــع المهندس زكي شريف مدير أعمال السنتر إلى أحــد مــورّدي الماكينات والعدد والأدوات الخاصة بمصنع الملابس، واليوم الذي بعده إلى صاحب مصنع لتوريد وتجهيزات المكاتب وفي اليــوم الثالث إلى مصمم ديكورات السنتر والأرفف الخاصة بأقــسام البيع، ومرّت أيام فيها واتفقنا وتعاقدنا على كل التجهيــزات النهائية الخاصة بالأعمال في المشروع، ولــسنا في حاجــة لأن ندخل في تفاصيل التجارة والأعمــال والتنظيمــات الخاصــة بالمشروع لأنها بتوفيق السماء تمت بالدقة المتناهية وساعدنا فيها أناس كثيرون..

وشعرت وأنا أتحدث مع ماريانا أن أعظم الأعمال الإنسانية هي التي تضيف ناتجا جديدا وتضيف إلى دخول الناس موردا أساسيا، وفي النهاية يحصل المجتمع المدني على سلعة جديدة أو ابتكارا جديدا، وأن أسوأ الأعمال هي أعمال السمسرة بكل أنواعها.. وأنه من أفضل ما يعمّر أي مجتمع هو الإصلاح في أمور الاقتصاد والعمل من أجل الارتفاع بمستوى الناس.. ولمّا انتصفت ليلة الإنتهاء من كل أعمال المشروع وأصبح جاهزا للبدء كانت ماريانا قلقة وكانت سماء القاهرة تمتلىء بغيوم كثيرة لم يكن يلفّ ماريانا أية غيمة ولكنها كانت شديدة التوتر كأنها تشعر بصقيع يشمل كل أعضائها وكانت بحّة صوتها كنغمات تدب الحنين في قلبه ويشعر أن علاقته بها أبدية، وكان الفرح يفر من عينيه من كثرة سعادته بالإنجاز وأن علاقة الحب بينهما صنعت معجزة إنسانية أقامها الحب.. وكانت عندما تشعر بأي توتر تقول له ضُمني.. يلف ذراعه حولها ويحتضنها ويتركها تقول.. كانت كأي امرأة تهذي عندما تشعر بسكرات الحب وتترك نفسها معه ولا تدري شيئاً إنها بين ذراعه تذوب ويأخذها دوار لذيذ لا ينتهي.. بين يديه وفي أحضانه تبدأ الحياة ولا تنتهي ولو كانت ستنتهي فإن نهايتها في أحضانه..

.. وجاء النوم في الهزيع الأخير من الليل وكان عليه أن يستيقظ ليذهب إلى السنتر ليرى بنفسه تجارب المكن والتركيب الأخير لها وتنظيم الخطوط.. وفي المساء بدأ يقابل الموظفين والموظفات الذي سيتم اختيار كل منهم في مكانه المناسب..

.. ومرّت أيام بعد ذلك فيها بدأت الأعمال في المصنع وفي كل أقسام البيع بعد الافتتاح الذي حضرته السيدة الكبيرة وماريانا وإبراهيم والتف حوله جميع المحاسبين والمحاسبات الذين تم فصلهم من قبل وتم تعيينهم من جديد وجميع المشرفين والمديرين وكل من تمّ تعيينهم في أقسام البيع والمصنع.. كان حفلا جميلا أسعد الجميع وكانت الزهور والورود تملأ كل جنبات الأدوار.. وقبل الافتتاح كان صبري قد أرسل رسالة على المحمول يدعو فيها كامل جمعة وخالد وسامية وسميرة وفاتن ولم يحضر منهم جميعا إلا فاتن.. والتي همست في أذنه وهي تنصرف قائلة :

- كلمني ضروري ..

.. وكانت سونيا بنت شبرا دائمة الاتصال به وكل أمنياتها أن تعمل معه في السنتر.. وتم تعيينها المديرة التنفيذية والسكرتيرة الخاصة.. وكان عليه أن يستقدم متخصّص ليقوم

بتدريبها واستغرق ذلك أسبوعا بعده انطلقت سونيا في أعمال الإدارة والسكرتارية الخاصة برئيس مجلس الإدارة بنجاح..

.. وفي يوم أرسلت فاتن رسالة لصبري تقول فيها :

- لماذا لم تكلّمني إنه أمر هام..

.. وكنت أخاف على نفسي أن أعود للوراء أو يشدني أمر امرأة من هؤلاء وفي نفس الوقت كنت أريد أن أعرف ماذا تريد.. في حالة واحدة أرحّب بأية واحدة منهن إذا أرادت أن تعمل معنا وأن تتوب عن أعمالها..

* * * * *

وكنت أشعر بالخجل من أناس كثيرين كانوا يطلبون العمل ولم تكن مؤهلاتهم تتناسب مع أعمالنا ومع ذلك أخذت بياناتهم كاملة ، وكانت تنبعث أشياء عميقة في نفسي كأنها شعاع يدفعني لأن أقوم بتعين المزيد في أول أعمال المشروع حتى ولو أدى ذلك إلى سداد الرواتب لشهرين بدون عائد.. ولمّا كنت أشعر بأي آلام أو أحزان كان جسد ماريانا الذي عاد ثانية أحلى من عود القصب هو البحر الذي أغرف فيه لأرتوي.. وكان إبراهيم ابن الوطن الذي يجمع نسيج البلاد كلها في بيتنا.. قد بدأت خطواته تتهادى بين أحضاننا.. ورغم

أنني لا أجد أي صعوبة في مواجهة أي أمر من أمور الحياة فإنني كنت أحمل همّا كبيرا (لأرتال) كثيرة تملأ كل مكان من النـــاس تبحث عن العمل الشريف، إن الأزمة مزّقت الناس من حـــولي ولا أعرف لماذا في هذا الوقت.. وبعد أن بـــدأ المـــشروع في باكورة أعماله شعرت بالناس أكثر.. ولقد كنـــت في أوقـــات عندما أشعر بالحيرة تملأني أمشي في الشوارع هائما على وجهي وأنا أبكي، والغريب أنني كنت أهيم ســـيرا علـــى قـــدمي في شوارع وحواري حي الزيتون فقط، فإذا ما اجتزتها إلى حـــي آخر فإنني لا أجد في رأسي أو في داخلي أي معنى أعيش بـــه.. وكنت أندهش عندما أختلي بنفسي.. كيف هـــؤلاء النـــسوة اللائي أصبحن أحرارا أن تعلن كلاما واحدا :

- نريد أن نعيش أحرارا وجسدنا هو الذي سيحرّرنا مـــن قيود الناس في بلادي..

- نعرف أن هذه الحرية حرية رخيصة لكنها حرية لنغـــتني عن الناس..

- إن حريتنا ليست حرية سياسية تكفل لنا جميعا العـــيش الكريم ولكنها حرية فردية..

- إن كل واحد في مجتمعنا قد رفع سكينته لمواجهة الغــلاء ولكي يعيش وماذا نرفع نحن النساء إذا كانت كل واحدة منا لا تملك أي سلعة.

- كان علينا أن نحصل على القرش لنأكل به وما كان لدينا نملكه غير الفرج الذي نقدّمه كي تشبع بطوننــا.. إذا فـنحن النساء اللآئي رفعن أرجلهن لمن يريد.

.. سمعت بأذني كل هذه الكلمات من أبواق النساء وتهـت وبكيت وهمت على وجهي وتمزّقت نفسي ولكن بدون حل.. هل أنا زعيم المنحرفات أدافع عنهن طواعية وهنّ قد فتحنــها على البحري.. وهل أنا زعيم الفقراء ولست منــهم ولكــني أحبهم وأدافع عن حقوقهم وأشعر بأوجاعهم.. وماذا ينبغــي عليّ أن أفعل أليس لي أن استقل وأن أتفــرغ لبــيتي ولعملــي الجديد أم أنني أعشق التيه وأوجاع النساء إنه لا معنى أن تكون هناك بناية شاهقة وحولها الكهوف.. مدينة كــبيرة لــشعب مكافح يقبع فيها الذل فوق أسطح السقوف والخوف في قلوب أهلها فالفقر قد دخل كل بيت فيها بدرجات.. وهل يــستطيع الخائفون والمذلولون والفقراء أن ينفجروا فيترعوا هذه المدينة من ضعفها..

إنني واحد أشبع وأرتدي الثياب وأسكن وحولي آلاف جوعى وعرايا.. وبيوتهم من صفيح.. ومضت أيام وجاءته فيها رسائل من فاتن تدعوه فيها إلى أن يكلمها لأمور هامة.. واضطربت أشياء في داخله تخوفا أن يراها مرّة ثانية في بيتها بالمقابر.. إن هناك فرق كبير بين طريقها وطريقه فكيف يكلّمها؟ وتذكر أنه كان قد أوصاها بالبحث له عن رتبة تنقذ ابنه من الذين تعرفهم بالداخلية، وبدأ تفكيره ينشغل برسائلها الملحّة رغم وجوده في عمل وانشغاله الشديد بالأعمال الجديدة في المصنع والسنتر، وتحدث مع نفسه يسألها.. إنك في مأوى جميل وظلٍّ ظليل ونهار تقضيه مع كل أسباب النجاح وسعادة وصلت إليها بتشغيل هذا العدد الكبير من العاطلين.. ماذا تريدين يا نفسي بعد.. إن كنت تبحثين عن امرأة أخرى جميلة بجانب ماريانا فهذه هي سونيا ابنة شبرا بين يديك بدلالها ورقتها وأنوثتها.. ماذا تريدين بعد يا نفسي بعد كل هذا الرخاء من حولي.. ولم أستطع أن أستقر في مكاني وأن أحمد الله على الكفاية.. كنت أحمد الله وفي نفس الوقت تواق إلى معرفة ماذا تريد هذه المرأة الداعرة.. وهل هي تطلبني لنفسها أم أنها وصلت بالفعل إلى رتبة تستطيع إخراج ولدي من ظلامه..

* * * * *

.. وفي يوم تواعدا.. وفي أول المساء أخذته في عربتها إلى نفس البيت، وفي الطريق كان يحدّق إليها فارغ العينين لأنه كان يقاوم ولم يستطع كأنه وضع نفسه فريسة لرغبة دفينة في داخل أعماقه، لكنه في نفس تلك الأعماق.. كيف لامرأة مثل هذه تكسر كل هذا النجاح والحلال الذي ينعم به.. كانت ناعمة رقيقة مهذبة كأنها ترتدي ثوبا آخر غير ثوب دعارتها وفظاعتها.. وهل تستطيع المرأة الأفعى أن تتغير.. تحت جلدها ترقد الخبائث.. لكنه الآن في عربتها ويذهب معها إلى بيتها.. فهل يسقط في شباك امرأة تعاشر أكثر من عشرة رجال في أوقات متتابعة.. جاءته مع الليل وهو في الليل ضعيف ينجرف خلف عواطفه.. فهل يذبح نفسه.. كيف لرجل يدفعه الغنى والرخاء والسعادة إلى أن يترك نفسه مع امرأة كهذه وهو الآن ذاهب إلى بيتها.. لقد سقطت فاتن وسامية وسميرة من فقرهن وكن في حاجة إلى المال ليعيشن فكيف لي أن أذهب إلى سقوط صنعته امرأة بعد فقرها وأسقط فيه وأنا الغني.. فكيف لا أكتفي..

.. شعرت بحيرته فمدّت بأظافرها نحو وجهه تلامسه وتداعبه كأنها فتاة عذراء شديدة العاطفة فبعثرت سيطرته في تأملاته وضيقت عليه جسرا كان يحجز بينه وبين جسدها

وسقطت النار على الأجنحة وبدأ الوجع.. وأمسكت بكف يدها لأبعده عن جسدي فطاوعتني وأمسكت بأناملها ركبتي وضغطت على عظامها فقلت :

- يا مجنونة ..

- لن أتركك..

- لا تحاولي أن تقهري الجبل.. أرجوكي كوني رقيقة وإنسانة..

- أنت تعرف قصتي لقد كنت إنسانة ومازلت ..

- إذا لا تطرحي معي رغبتك..

- إنني أذهب إلى الرجال بدون رغبة.. إنني في حاجة إلى إشباع رغبتي معك..

- ليست بهذه الصراحة والمباشرة تبدي المرأة مشاعرها.. إهدأي واتركي فسحة لعقلك إن في الدنيا أشياء كثيرة جميلة غير الرغبة..

- لماذا لا تتزوجني..

- وكيف يكون زواجي بك..

- إن امرأة مثلك لن تتوب حتى تتزوج..وإذا كنـت أنـا اعرف قصتك وأنك داعرة فكيف أتزوج بامرأة عاشرت مائـة رجل في عام واحد..

- لو كان عندك مباديء حقا تزوجني..

- فرضا وافقت على هذا الزواج فهل تتوبي..

- ليس مرّة واحدة..

- يعني هذا أنني سوف أقوم بتسريحك.. يا لها من مصيبة.. أن أقوم بتسريحك فقط .. فأنا قوّاد وأن أقوم بتسريحك وأنـا زوجك.. يا لها من مهانة وحقارة.. وكيف يكون لي كل هذا القدر من الانحطاط وأنا رجل لم أتعوّد مرّة واحدة في حياتي أن أزني وكنت دائما أذهب إلى الطهارة والفضيلة بالزواج لأحفظ نفسي من نساء مثلك..

- إذا لا تدّعي النبل والفضيلة.. إذا كنت تدّعي أنك زعيم الفقراء فهذا هُراء..

- إن الكثير من الفقراء شرفاء.. إنك قبـل أن تـدعري لم تكوني فقيرة.. كنت محتاجة واستسهلتِ هذا الطريق.. الفقـراء في بلادي حقا معظمهم شرفاء رغم أن هناك كـثيرات يمتـهن تلك المهنة لكن في خجل وليس بهذا الانحطاط وبعضهن علـى

حافة الانتحار.. من هذه الجـرائم الـتي إرتكبنـها في حـق أنفسهن..

- أعتقد كفى.. أدخل معي لأحكي لك عمـا يحـدث في بيتنا..

.. ودخلت معها البيت وتركتني جالسا على المقعد وتدارت خلف ستارة يقع خلفها دولاب ملابسها.. خلعـت حـذائي ورحت أرقب خيالها المثير.. ولمّا عبقت رائحة العطر تلك الغرفة كانت قد أغرقت كل مكان في جسدها رائحته النافذة المثيرة.. خرجت إليه وأقسمت أن تصارعه.. ترتدي شورتا من الساتان وقميصا حريريا قصيرا وسوتيان صغير ينفذ منه ثـدييها.. ولم يستطع أن يثنيها من أن تجلس في حجره وتركهـا وأمـسكها بذراعه من كتفها وقال وهو يحاول أن يـسيطر علـى نفـسه ويأخذ منها الإجابة على سؤاله:

- هل تحدثت مع أي رتبة تعرفينها عن كيفية إنقاذ ابني..

- اللواء الذي يعمل في مصلحة السجون ليس له سـكة في ذلك.. حيث أخبرني بأنه سجّان كبير فقـط ولا يـستطيع أن يتدخل في مثل هذه المواضيع ولا يتدخل فيها حتى لا يؤثر ذلك على وظيفته المرموقة في هذه المصلحة وأنه يريـد أن يـستمر سنوات في هذه الدرجة ويخرج وهو نظيف كالحليب..

- هذا جميل بارك الله فيهم.. وهل هناك رتبة أخرى..

- الرتبة الثانية هو مأمور أحد الأقسام برتبة عميد.. وأخبرني بأنه لا يتدخل في هذه المواضيع وأنه ينتظر ترقيته إلى لواء..

- هذا جميل.. من حق هؤلاء أن يختاروا مصلحتهم فقط.. إنهم جميعا يتخلّون عن مساعدة الآخرين حتى ولو كانوا أبرياء.. هذا هو الحال وهذه هي الدنيا من حولي وهذا ما آل إليه حال إبني..

- وماذا تظن في هؤلاء إنهم موظفون يريدون أن يعيشوا ليس إلا وإذا خدمك أحد منهم فلا بد من مصلحة وليست هناك إنسانية بينهم فكيف يقدّمون أي إنسانية للآخرين..

.. ومضت دقائق أخرى فيها سكت كل منا وشعرت بخيبة الجميع في بلادي وأن كل فرد فيها دولة مستقلة وأنه لا يمكن توحيد هؤلاء الناس بسهولة.. وقامت من حجره لتفتح الباب للحارس والذي أتاها بالطعام والحشيش..

.. قفلت الباب بإحكام وراحت تلف بأصابعها عدة سجائر تحشوها بمفروم الحشيش..

* * * * *

.. وتناولا الطعام وشرب معها الحشيش ليجاريها لـشيء خطط له في نفسه ومرّ كثير من الوقت فيـه دخّنـت ثـلاث سجائر ونثر في وجهها دخان سيجارة واحدة.. وسكتت عـن الكلام وأيقن بأنها سطلت من تغلغـل الـدخان في رأسـها.. إمتدت في فراشها عارية تتمتم بكلمات تـدعوه فيهـا بـأن يقترب.. كلمات هامسة ودموع تغسل وجههـا مـن شـدة الرغبة.. شوق عنيف ينتظر.. يرتجف.. يـدعو.. وأمـسكت بوجهه تشده إليها ليدعها قبلة لا تنتهي ولكنـها لا تقـدر أن تجعله يشعر بكل ما تريده الآن وهو يفكرّ في شيء آخر بعيـدا عن تلك اللحظة.. لكنها كانت تنطوي على فراشها كالفراشة المنكسرة الجناح لأن الفارس لا ينطوي فوقها..

.. بدأت غيبوبة الحشيش تأخذها بعيدا عن الوعي.. توقفت عيناها أن ترى وجهه الحزين.. وقبل أن تغيب تماما قالت تناجيه في صوت خفيض :

- خذني.. أنا لك.. هذا كلّه لك.. ألا تراني..

- إنني أراك.. أنت امرأة مثيرة جدا.. دعيني أتأملك أولا .. إنني لم أتجاوز تأملي بعد.. إنك عالم مثير.. لكنني أكـره هـذا العالم..

- اكره كل هذا العالم واكرهني بعد هـــذه الليلـــة إنـــني إريدك.. افعل ما شئت.. هذه الليلة ليلتي معك.. وهذه رغبتي..

- إنك لن تخسري شيئا لأنك تدعري معي كما تدعري مع الآخرين..

- وهل هناك فلسفة وأنت ترى كل جسدي هذا.. هـــل أنت ناقص الرجولة..

- لا يهمني أنني ناقص معك.. وكل مـــا يهمـــني الآن أن أذهب إلى بيتي..

- أنت رجل بلغت كثيرا من سفالة لم أصادفها من قبل..

- تحيا هذه السفالة خير لي من إنحطاط امرأة تعتقـــد أنهـــا بجسدها الهائل تحصل على كل رغباتها..

- إذا فعليك أن تذهب إنك أحط من قابلت ..

- إنني سوف أذهب بإرادتي.. ولن أخسر جمـــال حيـــاتي وحلالها الذي لن تعرفيه أبدا..

- إذهب .. واترك الباب مفتوحا.. أرجوك قبل أن تذهب نادي الخفير وأدخله هنا.

- وأنت عارية..

- أرجوك إنني في حاجـــة الآن إلى أي رجـــل.. وكلّمـــا احتجته دعوته في ليال كنت أتعذّب فيها..

- هذا شيء تعودت عليه..

- وماذا في الأمر من غرابة..

.. كان يريد أن يبصق في وجهها لكنه خرج في صـــمت.. وترك الباب مفتوحا بغية أن يدخل إليها ذئب من ذئاب القبور يفتك بها.

تمت

٢٠٠٩/١٢/٢٥

* * * * *

نبذة عن الكاتب

١- عضو اتحاد الكتاب من عام ١٩٩١ / عضوية رقم ١١٧٢

٢- عضو نادي القصة ..

الروايات التي صدرت للكاتب :

١ - المرأة وآلهة الحب.

٢ - السطح الأملس / فازت بجائزة نادي القصة عام ١٩٨٦

٣ - المدينة الخافية / فازت بالجائزة الأولى لنادي القصة عام ١٩٩٢

٤ - قصور العبيد / فازت بجائزة مسابقة نجيب محفوظ للرواية في مصر والعالم العربي من المجلس الأعلى للثقافة عام ١٩٩٧

٥ - نساء وجياد

٦ - الغجرية

٧ - ساقطة محترمة

المهنة : محاسب

الوظيفة : مدير مالي شركة مساهمة

خريج كلية التجارة وإدارة الأعمال بالزمالك عام ١٩٧٠.

للتواصل مع الكاتب :

٠١٠/٨٨٣٧٨٥٩

